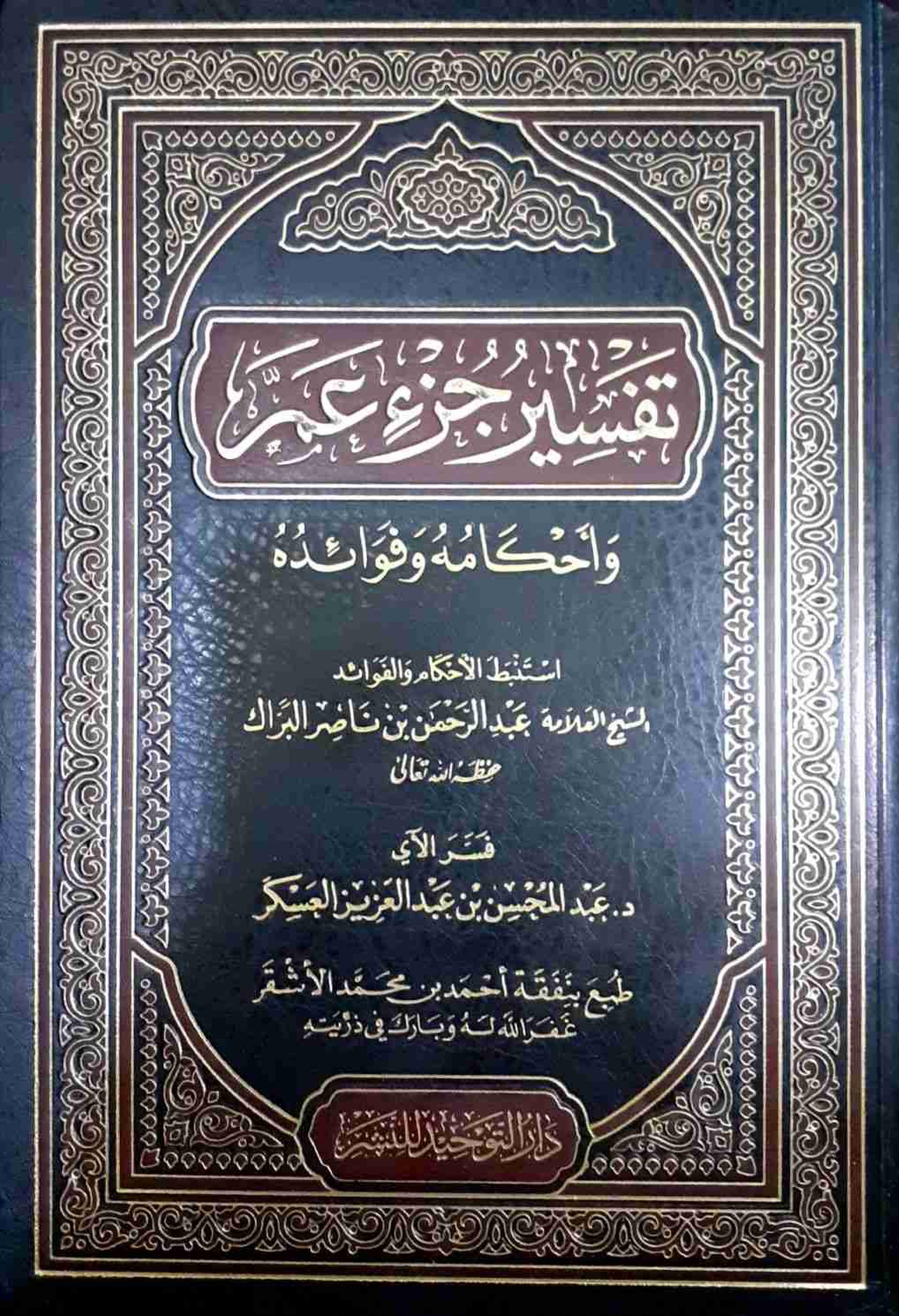
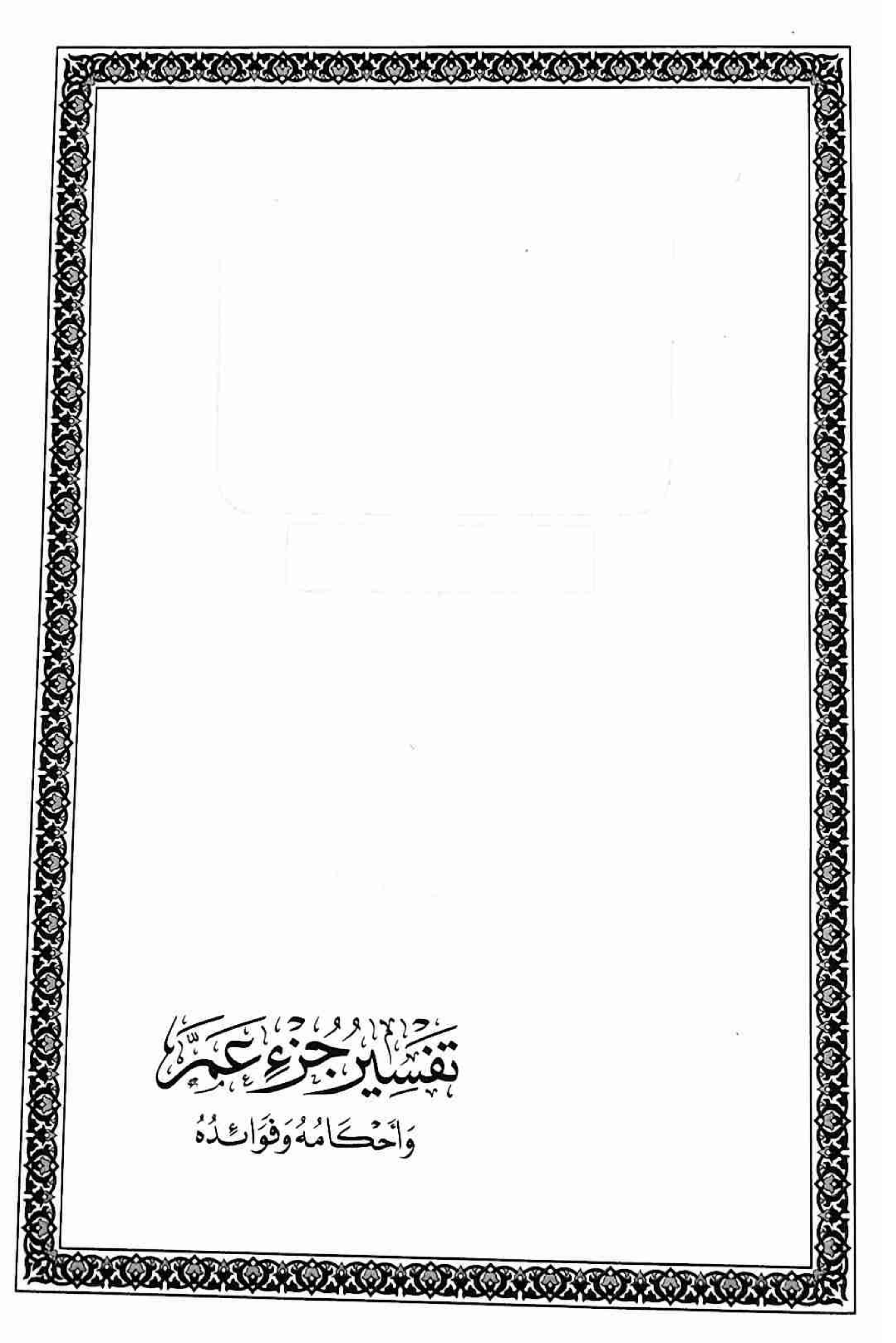

تفسير جزء عم
وأحكامه وفوائده
استنبط الأحكام والفوائد
الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك
حفظه الله تعالى
فسر الآي
د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر
طبع بنفقة أحمد بن محمد الأشقر
غفر الله له وبارك في ذريته
دار التوحيد للنشر


تفسير جزء عم
وأحكامه وفوائده

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسكر، عبدالمحسن بن عبدالعزيز

تفسير جزء عمّ. / عبدالمحسن عبدالعزيز العسكر - الرياض، ١٤٣٧هـ

٣٣٦ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٨-٠٥٦٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - جزء عم - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٣٧/٣٥١٩

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٣٥١٩

ردمك: ٨-٠٥٦٠-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

دار التوحيد للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب. ١٠٤٦٤ الرمز البريدي ١١٤٣٣

هاتف ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ - فاكس ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

darattawheed@yahoo.com

تفسير جزء عمّ

وأحكامه وفوائده

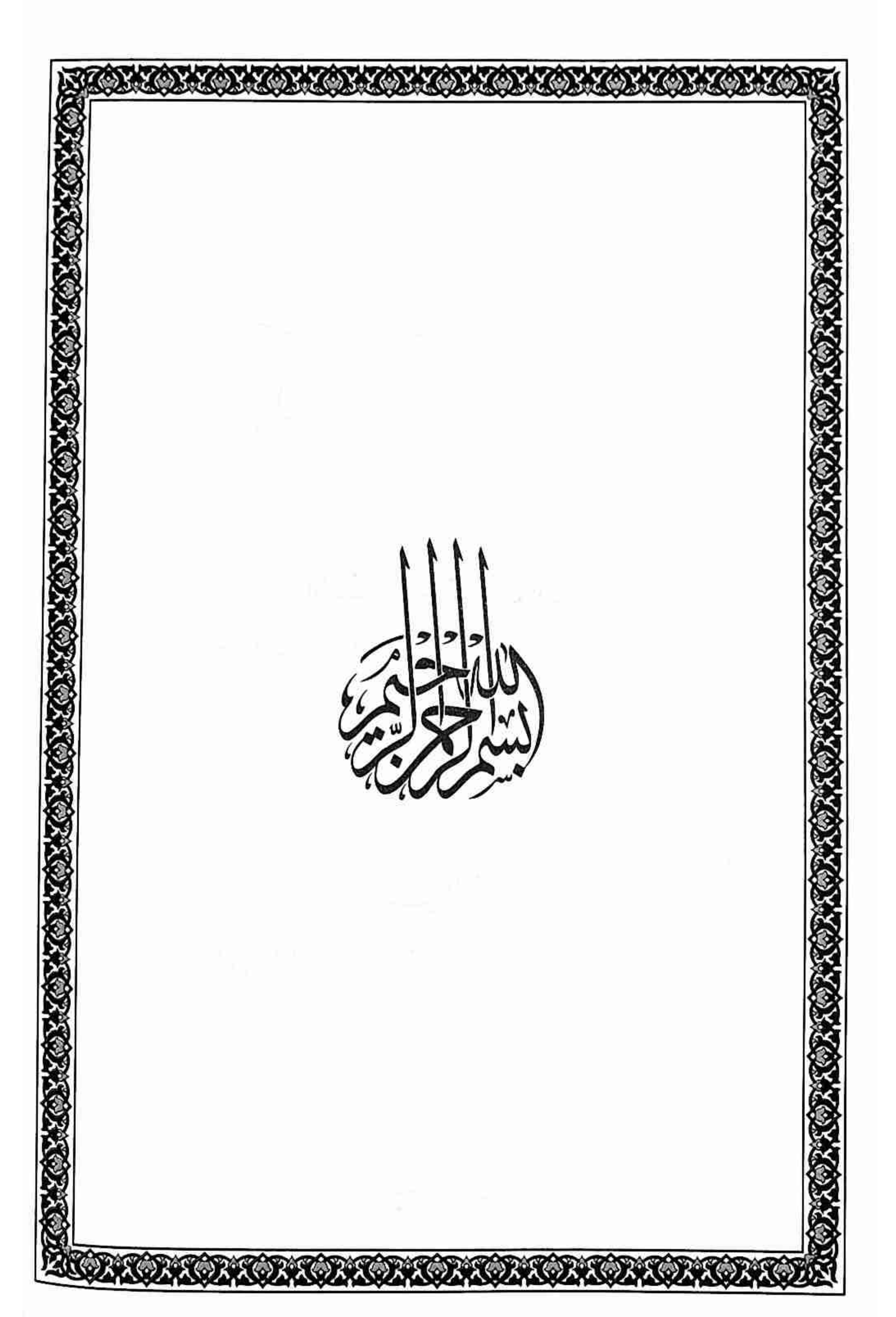
استنبط الأحكام والفوائد

الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك
حفظه الله تعالى

فسر الآي

د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

دار التوحيد للنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، شرَّفه الله بالرسالة، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل أمته خير أمةٍ أخرجت للناس، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه الغر الميامين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد:

فإنَّ تفسير القرآن هو رأس العلوم الإسلامية، وأكبرها فائدة، وأكثرها عائدة؛ لأن مقصوده بيانُ مُراد الله مِن كلامه في كتابه المبين، والقرآن هو أصلُ علومِ الإسلام الأصيلُ الذي منه تتفرع، وهو مصدرها وموردها المبارك الذي منه تنهلُ وتونع ثمارها.

ولم يزل العلماء على مرِّ الأعصار واختلاف الأقطار يولون علم التفسير أهمية كبرى من جهودهم واهتمامهم، ولهم في ذلك طرائق شتى؛ فمنهم من فسر القرآن كله، ومنهم فسر سورة منه أو سورًا، ومنهم من خص بالتفسير آياتِ الأحكام فحسب، إلى غير ذلك من طرائقهم رحمهم الله، وكأنهم في جهودهم هذه يتآزرون مجتمعين على كشف معاني القرآني العظيمة، واستنباط هداياته الراشدة؛ فإن الله قال في وصف كتابه الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل]، والشيء الثقيل مِن شأنه ألَّا يستقلَّ

به الواحدُ من الناس، ولا العددُ القليل، ومما قيل في تفسير ثِقَل القرآن: ما وُصف به من متانة مبانيه، وسعة معانيه، ووفرة إشاراته، وتجدد هداياته، وتوالي كراماته، ولذا تضافرت جهود علماء الأمة مِن المفسرين والفقهاء والأصوليين واللغويين وغيرهم = على بيان معاني كتاب الله، واستنباط أحكامه، وتفسير كلماته، وضبط لغاته، وكشف وجوه إعرابه، ورصد ما حواه من العلوم والمعارف والشرائع.

وقد رغبْنا أن نضرب بسهم في هذا الخير، فجاء هذا التفسير تفسير الجزء الثلاثين (جزء عم يتساءلون)، وكان في الأصل ثمرةَ مدارسةٍ طويلة بيني وبين شيخي وأستاذي العلامة النحرير أبي عبد الله عبد الرحمٰن بن ناصر البراك ـ نفعنا الله بعلمه وبارك في حياته ـ ثم انفردت أنا بتفسير الآيات، واضطلع شيخنا باستنباط فوائد الآيات وأحكامها، وكان يطيل الوقوف مع الآي لينتزع ما فيها من الأحكام والعلوم والإشارات الدقيقة، وكأني به يقول بلسان الحال ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل، فلَوَددت أنَّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها»[(١)].

ولقد أجاد شيخنا ـ كعادته ـ وأفاد؛ إذْ جاء بما يروق النواظر، ويسُرُّ الخواطر، جزاه الله أحسن الجزاء وأوفاه، وبلَّغه مِن كلِّ خيرٍ مُناه، وكان مما أحسن به أني قرأت عليه ما كتبته بعد ذلك في التفسير، فثقَّفه وأضاف إليه مِن علمه وتحقيقه، زاده الله علوًا وشرفًا، وجزاه عني وعن العلم وحملته أحسن ما جزى عالمًا عن علمه وبذله[(٢)].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٢١)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (١٠٦٢٤)، وإسناده صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) يقتضيني الواجب أن أشكر ـ الآن ـ الذين اقترحوا عليَّ تقييد الفوائد القرآنية ودروس التفسير التي يلقيها شيخنا، وفي مقدمتهم سماحة مفتي عام المملكة الشيخ الجليل =

هذا؛ وكان النهج المسلوك في تفسير هذا الجزء الثلاثين ما أخذنا به في تفسير جزء تبارك الذي نشر ـ بفضل الله ـ منذ أمد[١]، وهو النهج المتوسط، فليس هو بالطويل المُسْهَب، ولا بالموجز المقتضب، ولكن بين ذلك، وكان همُّنا وسدمُنا العنايةَ بتَجْلية معاني كتاب الله وبيان أحكامه، دون توسعٍ باجتلاب أقوال المفسرين والفقهاء، ولا خوضٍ في وجوه البلاغة والإعراب، اللَّهُمَّ إلا ما لا بد منه لكشف المعنى أو ترجيح الراجح حين يوجد الخلاف القوي، وهذا ـ في نظرنا ـ ما يحتاجه أكثر المسلمين، ومَن أراد التوسع فعليه بكتب التفسير البسيطة.

وإنما وقع الاختيار على تفسير جزء (تبارك) وجزء (عمَّ يتساءلون)؛ لأن كثيرًا من المسلمين يحفظون هذين الجزأين، وغالب قراءاتهم في الصلوات منهما، بل أكثر ما يقرأه أئمة المساجد في المحاريب مِن هذين الجزأين، فلذا كان من الأهمية بمكان معرفة معانيهما والوقوف على فوائدهما وأحكامهما، لا سيما أن أكثر سور هذين الجزأين من القرآن المكي، فموضوعاتها تدور على التوحيد، وإثبات وجود الله وربوبيته تعالى لجميع المخلوقات، وإقامة الأدلة العقلية على البعث، وذكر أحوال القيامة وأهوالها، وإبطال حجج المكذبين ودعاوى المبطلين.

وبعد؛ فإنه لا عزَّ للأمة الإسلامية ولا اجتماع لكلمتها ولا استقامة لحالها إلا أن تعود بصدقٍ إلى كتاب الله معتصمةً به، وأن تستقل عن التبعية للأمم الكافرة، روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله**»[٢]،

= عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وهو من تلاميذ شيخنا الأوفياء، فله ولهم مني الثناء المستطاب، ومن الله الأجر والثواب.

(١) طبع عدة طبعات، آخرها في سنة ١٤٣٥هـ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨)؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

ولفظه عند الحاكم: «**تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا؛ كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ**»[(١)].

إنَّ حقًا على أمة الإسلام إذا أرادت العز والفلاح أن تهتدي بهدى الكتاب العزيز، وتستمسك بعهده، وأن تحل حلاله، وتحرم حرامه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

ولا بد مع هذا كله للأمه أن تعتز بالقرآن، وتغتبط أعظم الاغتباط بنعمة الإيمان به وتحكيمه والاهتداء بشرائعه؛ فإنه نزل من الحكيم الحميد الرحمٰن الرحيم الذي يعلم السِّر في السموات والأرض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

وعلى الأمة أن تُظهر هذه العزة، وتؤمن إيمانًا لا شك فيه أن هذا الكتاب العظيم مشتملٌ على جميع أسباب السعادة، كما أن الإعراض عنه سببُ الهلاك والخسار في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وإن مِن الحفاوة بالقرآن الاعتناءَ بتفسيره وبيانِ معانيه للناس بعامة خاصتهم وعامتهم، ليعرفوا مراد ربهم وخالقهم، كما أنه من أعظم الأسباب لتوثيق صلتهم بكتاب الله.

---

(١) المستدرك (١/ ١٧١).

وإني في هذه التقدمة لأدعو إخواني من أهل العلم ومن الدعاة أن يعنوا بتفسير القرآن وتقريب معانيه لعامة الناس، ويكثفوا فيه الدروس في وسائل الإعلام، وفي مجامع الناس وملتقياتهم، وفي المساجد خاصة، وهذا ما كان يفعله العلماء السابقون جيلًا بعد جيل، وعصرًا بعد عصر، إلى الأشياخ الكبار الذين أدركناهم، وفي مقدمتهم العالمان الجليلان الشيخ عبد العزيز بن باز (١٤٢٠هـ)، والشيخ محمد بن صالح العثيمين (١٤٢٢هـ)، تغمدهما الله برحمته، فقد كان لهم دروس متصلة في التفسير، وكانوا يوصون تلاميذهم ومحبيهم بالعناية بالقرآن وتفسيره، وقد قُدِّر لي أن أزور الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منزله بالرياض في أخريات حياته، وصادفت في المجلس شيخنا وصديقنا المحدث الشيخ عبد الله بن عبد الرحمٰن السعد زاده الله في الخير نعمًا، وبعد جلسة ماتعة بالفوائد قال الشيخ عبد الله للشيخ محمد: أوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله، قال الشيخ عبد الله: نعمت الوصية، ثم ماذا؟ قال: أوصيكم بإقامة الدروس في التفسير، ثم استدرك: لا أريد القراءة في أحد كتب التفسير والتعليق عليه، كلا، بل التفسير أن تمسك المصحف بيدك ثم تفسر الآي أنت. هذا هو التفسير. اهـ.

قلت: وهذه وصية ذهبية تلقاها مشايخنا عن أشياخهم، وهذا من كمال نصحهم للأمة.

وقد نُقل عن الشيخ محمد ابن عثيمين أن شيخه العلامة المفسر عبد الرحمٰن السعدي (ت١٣٧٦هـ) كان يقول: ينبغي أن يجعل للعامة مجالس في تفسير القرآن.

قلت: وقد ذكر لي صديقنا الشيخ الدكتور سامي الصقير أن شيخه ابن عثيمين أكمل في المسجد تفسير القرآن الذين بدأه شيخه السعدي،

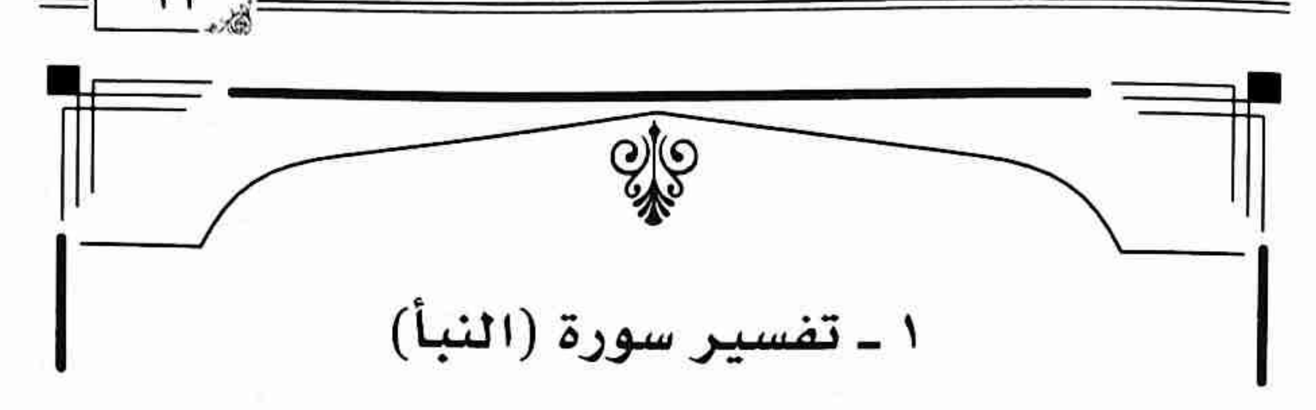
وذلك حين توفي، فشرع الشيخ محمد في التفسير مبتدئًا من حيث وقف شيخه وذلك في سورة آل عمران، رحمة الله على الجميع.

اللَّهُمَّ إنا نُثني عليك الخير كلَّه، وأنت للثناء أهل، ونحمدك ـ إلهنا ـ حمدًا نستديم به نعمك، ونستجلب به توفيقك، ونستدعي به مزيدك يا أرحم الراحمين، اللَّهُمَّ انفعنا وارفعنا بالقرآن العظيم، واجعله لنا إمامًا وحجة، وافتح علينا فهمًا فيه، واجعله ضياء لبصائرنا، وشفاء لأسقامنا، يا ذا الجلال والإكرام، وأعِذْ علينا مِن بركاته، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

وكتب

د. عَبْدالمُحْسِن بْن عَبْدالعَزِيز العَسْكَر
الأستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غرة محرم الحرام ١٤٣٧هـ
في مدينة الرياض
حرسها الله تعالى



١ ـ تفسير سورة (النبأ)

هذه السورة مكية، وسميت بالنبأ لذكر النبأ العظيم في الآية الثانية، وهو البعث، ولهذا ـ والله أعلم ـ تضمنت السورة بعض أدلة البعث، وذلك في خلق الأرض، والجبال، والسماوات السبع، وذكر الليل والنهار، والنوم والمعاش، وإخراج النبات والجنات بالماء النازل من المعصرات، والتصريح بالنفخ في الصور، وبه البعث من القبور، ثم ذكر بعض أحداث يوم القيامة، من فتح السماء أبوابًا، وتسيير الجبال، ومصير الطاغين والمتقين.

الآيات:

قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ① عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ② ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤﴾ [النبأ].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ①﴾؛ أي: عن أيِّ شيء يسأل بعضهم بعضًا، وأصل (عَمَّ): (عن) وَ(ما)، أدغمت الميم في النون لاشتراكهما في الغُنة، وحذفت ألف (ما) الاستفهامية تخفيفًا، وللفرق بينها وبين الموصولة، والضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ ①﴾ للكفار، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ②﴾ جواب الاستفهام، **(النبأ)**: الخبر الذي له شأن، والمراد به هنا:

ـ **قيل**: القرآن، ويؤيده قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ⑥⑦﴾ [ص].

ـ **وقيل**: البعث، ويؤيده سياق السورة كلِّها، فإنه تضمن أدلة قدرة الله على البعث وأحداث القيامة.

ولا منافاة بين القولين؛ فإن (النبأ) يطلق على الخبر، الذي هو الكلام، وعلى المخبَر به، الذي هو تأويل الخبر، فإن القرآن مُنبئٌ عن البعث، والبعثُ مخبَرٌ عنه، فإنه نبأٌ أيُّ نبأ! وإخراج الكلام بطريق الاستفهام إشعار بفخامة أمر المستفهم عنه، وتشويق إلى معرفة شأنه، وتوبيخ للمتسائلين الجاحدين ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③﴾ اختلافًا كبيرًا، فمنهم من يقطع باستحالة البعث، ومنهم من يشك فيه.

كما أنهم مختلفون في القرآن؛ فمنهم مَنْ قال: إنَّه سِحْر، ومنهم من قال: كِهانة، وشعر، وجميعهم ينكرون الرسالة، وأقوالهم كلُّها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ⑰⑥﴾ [البقرة]؛ ولذا أوعدهم الله ﷻ فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④﴾؛ ﴿كَلَّا﴾: ردع لهم وزجر على تكذيبهم، ﴿سَيَعْلَمُونَ ④﴾ صدق الرسول وعاقبة تكذيبهم علم اليقين وعين اليقين إذا ماتوا، أو نزل بهم العذاب، أو يوم البعث، كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ③⑨﴾ [النحل]، وأفادت السين في ﴿سَيَعْلَمُونَ ⑤﴾ قُربَ حلول الوعيد، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤﴾ تأكيد للوعيد، وهو أشد من الوعيد السابق لمجيء (ثم).

الفوائد والأحكام:

١ ـ التعليم بطريق السؤال والجواب.

٢ ـ أن القرآن نبأ عظيم، والبعث نبأ عظيم.

٣ ـ اختلاف المكذبين بالقرآن.

٤ ـ سؤال بعضهم بعضًا؛ ليعلم كلٌّ بما عند الآخر.

٥ ـ الرد على المكذبين وإبطالُ أقوالهم.

٦ ـ تهديد المكذبين بالعذاب.

٧ ـ تأكيد الردع والزجر والتهديد.

ثم ذكر سبحانه شيئًا من أدلة قدرته على البعث فقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾﴾؛ أي: ممهدةً كالفراش، فهي صالحة للسكن فيها والسير عليها، والاستفهام للتقرير والامتنان، وما بعده معطوف عليه، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: جعلناها للأرض كالأوتاد؛ لتَثْبُت وتستقر فلا تضطرب، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] شبَّهَ الجبال بالأوتاد التي تُثَبَّت بها الخيمة، ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾؛ أي: أصنافًا؛ ذكورًا وإناثا، لينتظم النسل، ويسكن بعضكم إلى بعض، والتفت الخطاب إليهم للإلزام والتبكيت، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾؛ أي: قَطْعًا لأعمالكم وراحةً لأبدانكم، و(السُّبات): اسم مصدر بمعنى السَّبْت؛ أي: القطع، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾؛ أي: كاللباس يستركم بظلامه، شبَّهَهُ بالثوب؛ لأنه يستر

الكائنات كما يستر الثوب الجسد[١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: وقتًا لطلب المعاش، و(الجعل) في الآيات المتقدمة بمعنى التصيير.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ جمع شديدة؛ أي: سبع سماوات قوية الخلق، محكمة البناء، بديعة الصنع، لا يُؤثِّر فيها مَرُّ الأزمان، ولا فروجَ فيها ولا فطور، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، والتعبير بالبناء؛ لأنه أريد تشبيهها بالقباب المضروبة على من تحتها.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: الشمس، و(جعل) بمعنى: خلق، ﴿وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: يتوهج ضوءها متقدة منيرة لجميع أهل الأرض، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾؛ أي: السحائب المثقلة بالماء، جمع مُعصِرة، اسم فاعل من «أَعْصَرَتِ السحابة» إذا آن لها أن تَعصِر؛ أي: تُنزل الماء، والهمزة للبلوغ والحينونة، كهي في قولهم: «أحصَد الزرعُ» إذا حان وقتُ حصاده، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾؛ (مِنْ) ابتدائية، ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: مُنصبًّا متتابعًا، يقال: ثجَّ الماءُ ـ مِن باب عدَّ ـ إذا انصبَّ بكثرة، وثجَّه كذلك، فهو متعدٍّ ولازم.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾: كالحنطة والشعير مما يقتاته الناس، ﴿وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ علفًا للبهائم؛ كالحشائش والتبن، وتقديم الحب مع تأخره في الإخراج؛ لشرفه، لأنه غذاء الإنسان، ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: بساتين ملتفة الأشجار لحسنها، جمع لِفّ بمعنى ملفوف، كجذع وأجذاع، أو جمع لفيف؛ كشريف وأشراف، وقيل: إنه اسمُ جمعٍ لا مفرد له؛ كالأوزاع للجماعات المتفرقة.

---

(١) قال ابن الأثير في المثل السائر (٢/ ١٣١): «تشبيه الليل باللباس مما اختص به القرآن دون غيره من الكلام المنظوم والمنثور».

والمعنى أن من خلق هذه الأشياء كلها بعد العدم لمنافعكم قادر على أن يبعثكم مرة أخرى بعد الموت، وهو أهون عليه، فلا وجه لاستبعاده.

الفوائد والأحكام:

١ ـ الامتنان من الله على عباده بجعل الأرض مهادًا؛ أي: صالحة للعيش عليها.

٢ ـ أن تمهيد الأرض نعمة كبرى لبني آدم.

٣ ـ إثبات الجَعْلِ بمعنى التصيير فعلًا لله تعالى؛ لقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾.

٤ ـ الحكمة من خلق الجبال، وهي أن تكون أوتادًا تُثَبِّتُ الأرض فلا تميد.

٥ ـ الامتنان بخلق الناس أزواجًا، ذكورًا وإناثًا؛ لِيَتِمَّ نماء البشرية، ويحصل السكن والمودة والرحمة بين الزوجين.

٦ ـ الامتنان بجعل النوم قاطعًا للتعب وراحةً للناس، فيستجمُّون به من عنائهم في شؤون الحياة.

٧ ـ الامتنان من الله بجعل الليل لباسًا للناس يغطيهم بظلامه، فيُسْكَن فيه بالنوم والإيواء إلى المسكن، والإخلاد إلى الدَّعة والراحة.

٨ ـ الامتنان من الله على عباده بجعل النهار وقتًا لطلب معايشهم بالتجارة، والصناعة، والزراعة، وغير ذلك.

٩ ـ الامتنان ببناء السماوات فوق العباد، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، ولما فيها من الدلالات على قدرته وحكمته تعالى في ارتفاعها بلا عمد، وسعتها، وما فيها من الكواكب، والشمس، والقمر، وذلك من نعمه ﷻ.

١٠ ـ أن السماوات شديدة في ذاتها؛ أي: صُلْبة ليست رِخْوَة، كما تصير يوم القيامة: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة].

١١ ـ الامتنان بجعل الشمس مضيئة متوهجة لشدة ضوئها، يضيءُ نصفَ الكرة الأرضية مع بُعْد ما بينهما، وذلك هو وقت النهار.

١٢ ـ الامتنان من الله بإنزال الماء الغزير الذي يُصب صبًا مِن السحاب المثقلات به، وهي المعصرات.

١٣ ـ الحكمة من إنزال المطر: وهي إخراج أنواع النبات والحبوب والثمار؛ رزقًا للعباد.

١٤ ـ إثبات الحكمة والتعليل لأفعاله ﷻ.

١٥ ـ ومن فوائد الآيات جملةً: الإشارةُ إلى أدلة البعث جملة، وهو الذي كذَّب به المشركون، فإنَّ كل ما ذكر في هذه الآيات دال على كمال قدرته سبحانه، وأكثر أدلة البعث ذكرًا في القرآن الاستدلال بخلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وإحياء الأرض بعد موتها، وكلها قد جاء ذكرها في الآيات، ففيها رد على المكذبين بالبعث.

* * *

ثم ذكر يوم البعث وسمَّاه يوم الفصل، وذكرَ ما يكون فيه من الأهوال؛ فقال:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ].

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: يومَ القيامة، وسُمي يومَ الفصل؛ لأن الله يفصل فيه بين الناس فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، وفي

الحقوق التي بينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [السجدة]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل].

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: كان في علم الله وتقديره، ﴿مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: وقتًا محددًا يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء بالثواب والعقاب، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يفيد تفصيل ما سيقع في ذلك اليوم، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾؛ أي: النفخةُ الثانية، حين ينفُخ الملك في الصور، وهو آلةُ نفخٍ على هيئة قرن، كما في الحديث[1]، فتعود إليهم أرواحهم ويخرجون من قبورهم فيذهبون إلى المحشر، ولذا قال: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾؛ أي: جماعةً جماعةً، جمعُ فوج، وهو حال من الواو في قوله: ﴿فَتَأْتُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾؛ أي: شُقِّقت لنزول الملائكة بعد أن كانت شديدة وسقفًا ملتئمًا، فصارت أبوابًا بتشققها، كما قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان]، وعبَّر بالماضي في قوله: ﴿وَفُتِحَتِ﴾ لتحقق الوقوع، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾: ذُهِب بها عن أماكنها حيث قُلِعت وبُسَّت؛ أي: فُتِّتت، ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: صارت مثل السراب، وهو ما يُرى على البعد أنه ماء وليس كذلك،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٠٧)، وأبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٠) وحسَّنه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٠). وأجمع العلماء على أنه إسرافيل كما يقول القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٠)، وجاءت بذلك أخبار، ولكنها لا تصح في أفرادها.

والمعنى أنها تلاشت وذهبت، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء القيامة يوم الفصل.

٢ ـ أن الله يفصل بين عباده في ذلك اليوم؛ أي: يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

٣ ـ أن يوم القيامة له وقت محدود لا يعلمه إلا الله، لقوله: ﴿كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤﴾ [هود].

٤ ـ أن أول أحداث يوم القيامة النفخُ في الصور، وهي النفخة الثانية، أمَّا النفخة الأولى فهي نفخة الفزع والصعق، وبها نهاية الحياة الدنيا، وعلى إثرها يموت الناس.

٥ ـ إثبات الصور.

٦ ـ أن الناس يأتون من قبورهم إلى المحشر أفواجًا؛ أي: جماعات.

٧ ـ إثبات النفخة الثانية وهي نفخة البعث.

٨ ـ أن من أحداث يوم القيامة فتح السماء أبوابًا، وتسيير الجبال، حتى تصير إلى مثل السراب، بعد ما تمر بأحوال.

٩ ـ الرد على الفلاسفة في قولهم: إن الفَلَك لا يَقْبل الانخراق.

١٠ ـ الدلالة على كمال قدرته تعالى على التصرف في هذا الوجود.

ثم أخبر سبحانه عن حال جهنم وحال أهلها فيها، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ].

التفسير:

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ﴾؛ أي: في حُكم الله وعلمه، ﴿مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾؛ أي: مُرصدة، بمعنى: مُعدة، فقد خلقها الله وأرصدها للكافرين، ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: مرجعًا للكفار المتكبرين عن الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: مقيمين في جهنم ﴿أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ جمع حُقُب، وهو الدهر، كعُنُق وأعناق، والمعنى: أنهم مقيمون فيها دهورًا متتابعة، كلما انقضى حُقُبٌ تلاه آخر إلى الأبد، وفي معنى الحُقُب: الحِقْبة، وتجمع على حِقَب، كقِرْبة وقِرب.

وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في جهنم، ﴿بَرْدًا﴾؛ أي: نسيمًا باردًا يخفف عنهم حرَّ النار، ﴿وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ يُسَكِّن عطشهم، يعني لا راحة لهم أبدًا، وتكرار (**لا**) لتأكيد النفي، وبيان أنه يشمل الأمرين معًا، ويشمل كُلًّا منهما على انفراده، ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾؛ أي: ولكن يذوقون فيها ماءً في غاية الحرارة، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد]، وقوله: ﴿وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: صديد أهل النار، وهو نَتِنٌ بارد، من غَسَق يغسِق ـ كضرَب ـ إذا انصَبَّ وسال، وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ من زيادة العذاب، فهو تأكيد لما قبله،

والاستثناء في الآية منقطع؛ لأن الحميم والغساق ليسا من جنس الشراب المُرْوي المبرد للحرارة.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: جوزوا بذلك جزاءً موافقًا لأعمالهم، ولا يظلم ربك أحدًا، وقوله: ﴿وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ مصدر وافق، مؤوَّل باسم الفاعل، وُصف به الجزاء مبالغة.

ثم ذكر سبحانه السبب في استحقاقهم الجزاء المذكور، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا يؤملون الحساب، ولا يخافونه؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: بالقرآن وما جاءت به الرسل عليهم السلام، ﴿كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: تكذيبًا بالغًا شديدًا، مصدر كَذَّب، وهو فصيح شائع في كلامهم، وجاء الكِذَّاب بدل التكذيب لمراعاة الفواصل.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأعمال والأقوال، و﴿وَكُلَّ﴾ منصوب على الاشتغال، ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: ضبطناه كتابةً، فـ ﴿كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ مفعول مطلق مبيِّن للنوع، ويحتمل أن يكون مفعولًا مطلقًا من معنى الفعل؛ أي: كتبناه كَتْبًا، والأول أولى؛ إذْ تكون الجملة مفيدة للإحصاء، وأنه كان بالكتابة، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ التفات من الغَيْبة إلى الخطاب مُؤْذن بتوبيخهم وتيئيسهم وشدة الغضب عليهم، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ فوق عذابكم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء النار جهنم.

٢ ـ أن النار موجودة الآن، لقوله: ﴿مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾؛ أي: مُعدة ومهيَّأة.

٣ ـ أن النار مرجع الطاغين؛ وهم الكفار.

٤ ـ أن لبث الكفار في النار سنين متطاولة: **قيل**: إنها لا نهاية لها، **وقيل**: مقدرة في علم الله، لذلك اسْتُدِل بالآية على فناء النار. وهو قول مرجوح.

٥ ـ أن أهل النار لا راحة لهم، فلا يخفف عنهم العذاب، لا يومًا ولا ساعة.

٦ ـ أن شراب أهل النار الحميم والغساق.

٧ ـ أن أهل النار يعذبون بأشد ما يكون من الحر، وأشد ما يكون من البرد.

٨ ـ أن جزاء الكفار موافق لكفرهم؛ فلم يُظلموا.

٩ ـ أن السبب في عقابهم تكذيبهم باليوم الآخر وبما جاءت به الرسل من البينات.

١٠ ـ إثبات الأسباب.

١١ ـ أن الكفار يحاسبون.

١٢ ـ إثبات الحساب والجزاء على الأعمال.

١٣ ـ إحصاء الله لأعمال العباد.

١٤ ـ أن أعمال العباد تحصى في كتاب.

١٥ ـ إثبات علم الله بالجزئيات، ففيها:

١٦ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن الله لا يعلم الجزئيات.

١٧ ـ توبيخ الكفار وهم في العذاب وتيئيسهم من تخفيف العذاب.

١٨ ـ أنه يجتمع لأهل النار أنواع العذاب الحسي والجسدي.

ولما ذكر ﷻ ما أعده للطاغين من العذاب، أتبعه بما أعده للمتقين من النعيم، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾؛ أي: فوزًا، وهو النجاة من المرهوب، وهو النار، والفوز بالمطلوب، وهو الجنة، والمفاز على ذلك مصدر ميمي، ويحتمل أنه اسم مكان؛ فيفسر المفاز بالجنة، والمعنيان متلازمان، وإنْ كان الثاني أظهر؛ أي كونه اسم مكان، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم].

ثم فسر هذا المفاز بقوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾؛ أي: بساتين ﴿وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ هذا من عطف الخاص على العام؛ لأن العنب من أفضل الفواكه، كما خصت بالذكر في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي الشابة التي تكعَّب ثديها واستدار، أي: برز كالكعب، وهذا أجمل ما يكون في الصدر، ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: على سن واحدة، جمع تِرْب، والمعنى أنهنَّ متكافئات في السن والجمال.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: ممتلئة، يقال: دَهَق الكأس ـ كجَعَل ـ وأدْهَقها، إذا ملأها، والمراد بالكأس هنا الخمر، من إطلاق المحل على الحالّ، و(الدِّهاق) وصف للإناء الذي فيه الخمر لما بينهما من التلازم، فيكون الكأس مستعملًا في معنييه الحقيقي والمجازي، وجاء عن غير

واحد من السلف؛ كالضحاك وقتادة: أنَّ كلَّ كأس في القرآن هي الخمر[١].

وقد وُصفت الكأس التي في الجنة بعدة صفات في كتاب الله العظيم؛ فمن ذلك ما جاء في سورة الصافات في قوله سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات]، وفي سورة الطور؛ في قوله سبحانه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور]، ووصفت في سورة (الإنسان) بالمزج بالكافور والزنجبيل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان]، وفي قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الإنسان]، وفي هذه السورة (النبأ) وصفت بأنها دِهاق، كما تقدم.

قوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿لَغْوًا﴾؛ أي: كلامًا باطلًا، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾: لا يُكذِّب بعضهم بعضًا، فهم إخوان على سرر متقابلين، قد نزع الله ما في صدورهم من الغل، وليس في الجنة ما يُلغى به ولا ما هو مكذوب، فنفي السمع مراد به نفي المسموع أصلًا، وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ أدلُّ على انتفاء اللغو والباطل، وأبلغ مما لو قيل: لا يلغون ولا يكذبون. وأعيدت (لا) في قوله: ﴿وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ للتنبيه على أن النفي يشمل الأمرين معًا، وكلَّ واحدٍ على حدة.

ولما عدد أقسام نعيم أهل الجنة قال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدر، أي: جزاهم جزاءً، وهذا كالتأكيد لقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾، و﴿مِّن﴾ ابتدائية؛ أي: هذا الجزاء من عند الله تعالى،

---

(١) ينظر تخريج أقوالهم في «كليات الألفاظ في التفسير» (٢/ ٥٠٧).

﴿رَبِّكَ﴾ ضمير الخطاب يحتمل أنه للنبي ﷺ، والربوبية خاصة، وفي ذلك تشريف له عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أنه لكل مَنْ يصلح للخطاب، فتكون الربوبية عامة، ﴿عَطَآءً﴾؛ أي: تفضلًا وإحسانًا من الله، وهذا بدل من ﴿جَزَآءً﴾، وقوله: ﴿حِسَابًا ۝٣٦﴾ صفة للعطاء، أي: كافيًا وافيًا، فهو مصدر أقيم مقام الوصف، من قولهم: أَحْسَبَه الشيءُ؛ إذا كفاه حتى قال: حسبي، أي: كافيني.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من منهج القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، وتقديم الوعيد في أغلب الأحيان.

٢ ـ بشارة المتقين بما أعد الله لهم.

٣ ـ أن التقوى سبب الفوز والسعادة.

٤ ـ تنزيه المتقين عن الطغيان، حيث ذكروا في مقابل الطاغين.

٥ ـ أن الجنة مكان الفوز بكل مطلوب ومحبوب.

٦ ـ أن الجنة ذات حدائق، فيها أنواع الأشجار والثمار والفواكه.

٧ ـ فضل العنب على غيره، وكثرته في الجنة.

٨ ـ أن للمتقين في الجنة أزواجًا شابات أبكارًا ذوات نهود.

٩ ـ أن نساء الجنة على سن واحدة، لقوله: ﴿أَتْرَابًا ۝٣٣﴾.

١٠ ـ أن من شراب المتقين في الجنة الخمر، تدار عليهم بالكؤوس ملأى.

١١ ـ تنزيه خمر الجنة عن عيوب خمر الدنيا.

١٢ ـ أن كلام أهل الجنة لا لغو فيه ولا كذب، بل كله من طيب القول.

١٣ ـ أن كل ما يعطي الله أولياءه المتقين من الكرامة جزاء بسبب أعمالهم.

١٤ ـ أن عطاءه تعالى لأوليائه كثير كاف؛ لكمال نعيمهم.

١٥ ـ أن ما يجزي الله به المتقين من الثواب هو من آثار ربوبيته الخاصة المتضمنة لغاية الكرم والإحسان.

ولما ذكر سبحانه سعة فضله، وما أعده لعباده المتقين في الجنة، ذكر من صفاته ما هو مقتض لهذا العطاء، وهو ربوبيته ورحمته، فقال تعالى:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ].

التفسير:

قوله: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومالكهما ومدبرهما وما فيهما، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من جميع المخلوقات من أحياء وجمادات، و﴿رَّبِّ﴾ عطف بيان من قوله: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾، و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عطف بيان من ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو صفة، هذا على قراءة الخفض في الموضعين ﴿رَّبِّ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وهي قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب، وقرأ الباقون برفعهما، فيكون (رَّبُّ) خبر مبتدأ محذوف، قُطع عن الوصفية لغرض المدح، أي: هو ربُّ السماوات، و(ٱلرَّحْمَٰنُ) خبر ثان.

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ أي: أهل السماوات والأرض، ﴿مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾

من الرحمٰن، والمعنى: أن جميع الخلق لا يملكون أن يتكلموا يوم القيامة إلا بإذن الله، ولا أن يسألوا الله شيئًا شفاعة ولا غيرها من غير إذنه ﷻ، لما يرون من عظمته وجلاله وهيبته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء]، وجملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ مستأنفة، أو خبر بعد خبر.

قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام في أصح الأقوال، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهذا من عطف العام على الخاص، ﴿صَفًّا﴾ حال؛ أي: صفًا بعد صف، لا يعلم عددهم إلا الله، والقيام ضد القعود، أي يقومون وقوفًا صفوفًا، وفيه إشارة إلى عظمة الموقف، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ أي: أهل السماوات والأرض، وهذه الجملة بدل أو مؤكِّدة لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن يتكلم ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: قال الذي أَذن له الرحمٰن أن يتكلم صوابًا من القول، أي: حقًّا، وإنما يأذن الله بالشفاعة لملائكته وأنبيائه وأهل توحيده، وهم لا يقولون إلا ما يرضاه سبحانه.

ومن أحسن من عبر عن هذه الآية الإمام ابن جرير، قال رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر عن خلقه أنهم لا يتكلمون يومَ يقوم الروح والملائكة صفًا، إلا من أذن له منهم في الكلامِ الرَّحمٰنُ، وقال صوابًا، فالواجب أن يقال كما أخبر؛ إذْ لم يخبرنا في كتابه ولا على لسان رسوله، أنه عنى بذلك نوعًا من أنواع الصواب، والظاهر محتملٌ جميعه»[1].

(١) تفسير الطبري: (٢٤/ ٥٢).

قوله: ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ عطف على جملة ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أو حال مِن ﴿مَنْ﴾ المستثنى، أي: إلا من أذن له الرحمٰن وقد قال قولًا صوابًا، وهو التوحيد وما يرضي الله، وهذه الآية كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥].

ثم نوَّه الله بعظمة ذلك اليوم وندب عباده إلى العمل الصالح، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ المشار إليه يوم القيامة يوم يقوم الروح والملائكة، ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت وقوعه لا محالة وليس بباطل، كما يزعم المكذبون بالبعث.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: مرجعًا حسنا، وذلك بالإيمان بالله ورسله، وما يقتضيه ذلك من العمل الصالح، والآية تحضيض وترغيب، فهي كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل]، والفاء في ﴿فَمَن﴾ هي الفصيحة التي تفصح عن شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر كذلك فمن شاء إلخ.

ثم زاد في التخويف والتحذير من العذاب ختمًا للسورة بذلك، فقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وهو عذاب النار في الآخرة، وهو عذاب عظيم، كما يفيده التنكير، وسماه قريبًا لتحققه، فإن كل ما هو آت قريب، وليس بينه وبين الإنسان إلا أن يموت، والإنذار هو الإخبار بمخوف.

قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بمحذوف صفة لعذاب، أي: عذابًا كائنًا يوم ينظر المرء، وهو يوم القيامة، فيبصر المرء ما قدمه من خير أو شر، والمراد بالمرء كل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] وخص اليدين

بالذكر؛ لأن أكثر العمل يكون بهما، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ متحسرًا: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ۝٤٠﴾؛ أي: فلم أُخلق ولم أُكلَّف، أو كنت ترابًا فلم أبعث، أو كنت ترابًا كما صارت البهائم يومئذ، وخص قول الكافر بالذكر بعد العموم في المرء؛ لأنه المناسب للنِّذارة في الآية، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النساء].

الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات ربوبيته تعالى العامة.

٢ ـ أن له ملك السماوات والأرض.

٣ ـ إثبات اسمه سبحانه الرحمٰن وصفة الرحمة.

٤ ـ الجمع بين الربوبية العامة وصفة الرحمة، نظيرَ ما في الفاتحة.

٥ ـ أن العباد يوم القيامة لا يملكون أن يتكلم أحد، ولا الملائكة.

٦ ـ فضل جبريل على الملائكة حيث خصه بالذكر.

٧ ـ أن الملائكة يجيئون يوم القيامة، وجبريل معهم، ويقومون صفوفًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر].

٨ ـ أنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه تعالى، أي: بأمره.

٩ ـ أنه لا يتكلم أحد يوم القيامة إلا من قال صوابًا، وهو ما يرضاه تعالى.

١٠ ـ أن يوم القيامة يوم عظيم وحق واقع، تحِقُّ فيه الحقائق، وتكشف فيه السرائر.

١١ ـ إثبات مشيئة العبد.

١٢ ـ أن الإيمان باليوم الآخر يوجب للعبد أن يتخذ طريقًا يرجع

منه إلى ربه، وهو دينه الذي بَعَث به رسوله محمدًا ﷺ، والمآب المرجع، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل].

١٣ ـ ذكره تعالى نفسه بصيغة الجمع الدالة على عظمته ﷻ.

١٤ ـ إعذار الله إلى عباده بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، والإنذار التخويف والتحذير.

١٥ ـ أن يوم القيامة الذي يكون فيه عذاب الكافرين قريب.

١٦ ـ إشهاد الإنسان لعمله يوم القيامة، ووقفُهُ عليه، فيراه وينظر إليه.

١٧ ـ تمني الكافر أن يكون ترابًا، إذا رأى عمله السيئ، لهول ما رأى من عذاب الله.





٢ ـ تفسير سور النازعات

هذه السورة مكية، وسميت النازعات لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، والمراد بالنازعات والناشطات: الملائكةُ التي تنزع أرواح البشر وتنشِطها، وفي هذا إشارة إلى القيامة الصغرى، كما أُردفت بذكر القيامة الكبرى؛ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات]، وهذا هو موضوع السورة.

الآيات:

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النازعات].

التفسير:

هذا قَسَمٌ من الله تعالى بخمسة أشياءَ عظيمة مِن مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء، ولما كان المقسمُ به موصوفاتٍ حُذفت وأُقيمت صفاتُها مُقامَها وقع خلافٌ بين المفسرين في تعيين المقسَم به؛ **فقيل**: ﴿ٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ هي النجوم التي تجري، مِن قولهم: «نَزع الفرس» إذا جرى، **وقيل**: إنها القِسِيُّ تَنزع بالسهم.

و﴿ٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ **قيل**: هي النجوم تَنشَط من أُفق إلى أفق.

و﴿ٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ **قيل**: هي النجوم تسبح في فلكها، **وقيل**: السُّفن تسبح في الماء.

و﴿ٱلسَّـٰبِقَـٰتِ﴾ **قيل**: النجوم يسبِقُ بعضُها بعضًا، **وقيل**: هي الخيل، وقيل غير ذلك.

والصحيح أنَّ المقسَم بهم في المواضعِ الأربعةِ هم الملائكة، وهو الذي جاء عن جمع من السلف، وعليه جمهور المفسرين، وتفسيره بغير ذلك مما لا يساعده السِّياق، ولا دلالاتُ القرآن، كما بسط ذلك ابن القيم[1] والآلوسي في تفسيره، رحمهما الله تعالى.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ شمولَ الآياتِ لجميع ما ذُكر فيها مِن أقوال، لعدم الدليل على تعيين بعضها دون بعض.

فأمَّا قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ فهم الملائكة بالإجماع.

وجاءت هذه الأوصاف الخمسة بصورة جمع المؤنث السالم على تأويل كُلِّ موصوف منها بالجماعة أو الطائفة؛ فقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ۝١﴾؛ أي: جماعة الملائكةِ تنزع أرواح الكفار عند الموت بشدَّةٍ وعُنف، و﴿غَرْقًا ۝١﴾ اسم مصدر أقيم مُقام المصدر، أي: إغراقًا؛ مِن «أغرق في الشيء» إذا بلغ فيه غايته، والمعنى: أن الملائكة تبالغ في نزع روح الكافر، فتجتذبها بقوة من أقاصي جسده.

﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾؛ أي: الملائكةِ تَنشِط أرواح المؤمنين، أي تسُلُّها بلين ورفق، مِن النَّشْط، وهو الجذب برفق وسهولة، ومنه الأُنشُوطة: رَبطةٌ دون العُقدة، إذا مُدت بأحد طرفيها انفتحت مباشرةً لسهولتها.

وقُدمت النازعات؛ لأنها إنذار، والناشطات بشارة، والإنذار هنا أهم؛ لأن السورة مكية. والله أعلم.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٨٦).

﴿وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾؛ أي: الملائكةِ التي تسبح في الهواء وفي جوِّ السماء ماضيةً بأمر الله تعالى، وسماها سابحة؛ لسرعتها، كالفرس الجواد يقال له: سابح، إذا أسرع في سيره.

وقوله: ﴿فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ صفةٌ للنَّازعات والنَّاشطات، لما تُؤْذن به الفاءُ المسماة فاءَ التفريع؛ فهي تدل على أن هذه الصفة متفرعةٌ عن التي قبلها، فمعنى ﴿السَّٰبِقَٰتِ﴾؛ أي: المسرعات بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وبأرواح الكفار إلى النار.

و(نشطا) و(سبحا) و(سبقا) مصادرُ مؤكِّدة.

﴿فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ صفة للمذكورات قبلُ، و﴿أَمْرًا ۝٥﴾ مفعول به؛ واحد الأمور، وهو الشَّأن، ونكَّره لأنه أمرٌ عظيم.

ونسبةُ التدبير إلى الملائكة من باب الإسناد إلى السَّبب، فإنَّ كلَّ ما يكون في هذا العالم فهو بأمر الله وتدبيره.

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهو: لَتُبْعَثُنَّ ثُم لتُحاسَبُنَّ، ويدل عليه قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦﴾.

وفي هذه الآيات فوائد على أصح الأقوال في الأَقسام الخمسة أن المقسم بهم هم الملائكة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إقسامه تعالى بما شاء من ملائكته الموكلين بما شاء من خلقه؛ ففيه:

٢ ـ عِظم شأن الملائكة.

٣ ـ أن الملائكة أصناف.

٤ ـ أن منهم الموكلين بقبض أرواح الكافرين، وهم النازعات

(ملائكة العذاب)، والموكلين بقبض أرواح المؤمنين، وهم الناشطات (ملائكة الرحمة).

٥ ـ أن أرواح الكافرين تُنْزعُ بشدة.

٦ ـ أن أرواح المؤمنين تُنشط بيسر وسهولة.

٧ ـ التذكير بالموت.

٨ ـ أن الملائكة تنطلق سبحًا بأرواح العباد، وتسبق بها إلى حيث أُمر بها.

٩ ـ الرد على من قال إن الروح عرَض.

١٠ ـ أن من صفة الملائكة السبحَ في ذهابها ومجيئها وصعودها ونزولها؛ بما أعطاها الله مِن قدرةٍ خارقة، فلا تحتاج إلى سبب تتعلق به، أو آلة تركبها، وهذا ما يشعر به معنى السَّبح، ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء] يعني الليل والنهار والشمس والقمر.

١١ ـ أن من صفات الملائكة السَّبق، وهو يتضمن قدرتهم على السرعة في الذهاب والمجيء والصعود والهبوط، ولعل مما يُقرِّب هذا أن النبي ﷺ كان يُسأل عن الشيء فلا يجيب، فما يلبث حتى يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي من ربه.

١٢ ـ أن الله وكَّلَ ما شاء مِن ملائكته بتدبير ما شاء من أمر هذا العالم؛ لقوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ [الذاريات].

* * *

ولما أقسم الله بالملائكة وأفعالِها على وقوع البعث، ذكر ما يكون هناك من الأحداث العظام والأهوال الجسام، فقال:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات]

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ الظرف ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بجواب القسم المحذوف؛ أي: لتُبعثن يومَ ترجف الراجفة، ويجوز أن يكون منصوبًا بفعل محذوف، تقديره: أُذكر ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ وهي نفخة الصُّور الأولى، و(الرَّجف): هو الاضطراب الشديد، وُصِفت النَّفخة بما يحدث بحدوثها، إذْ يرتجف بها كلُّ شيء، وتضطرب الأرض، أي تَزلزل ويموت من عليها، ويختل نظام العالم، فإسناد الرَّجف إلى الراجفة ـ وهي النفخة ـ إسناد إلى السبب.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ وهي النَّفخة الثانية، وبها يكون بعثُ الخلق جميعِهم، إذْ تردُف الأولى، أي تابعةً لها ـ والجملة حالٌ مِن الرَّاجفة ـ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر].

قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾؛ أي: قلوبُ الكفار في ذلك اليوم خائفةٌ مضطربةٌ أشد الاضطراب، لما ترى من الأهوال والشدائد، وتنكير (قلوب) يدل على أنها كثيرة، ولأن المراد بعض القلوب، وهي قلوب الكفار ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾؛ أي: أبصار أصحابها ﴿خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾؛ أي: ذليلة منكسرة، وإنما أضاف الذل إلى الأبصار؛ لأنها المرآة التي تُفْصِح عما في القلب من ذلة أو غبطة، وقد صرح الله تعالى بالذُّل الذي

يغشى الكفرة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

ثم حكى الله عن المكذبين شيئًا مما كانوا يقولونه في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: أنردُّ بعد موتنا إلى الحياة؟! وهذا استفهامُ تعجُّبٍ وإنكار، وأصل الحافرة الطريق، يقال: رجع فلان في حافرته، أي: في طريقه التي جاء منها فحفرَتْ فيها قدماه بالمشي، فالحافرة على هذا بمعنى محفورة؛ كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة]، ثم صار هذا التعبير كناية عن الرجوع إلى الأحوال التي كان عليها الإنسان.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾؛ أي: بالية، وهذا تأكيدٌ للإنكار السابق، يتضمن ذكر سبب التَّعجب والاستبعاد، المعنى: يقولون: أنردُّ أحياءً بعد أنْ مِتْنا وبَليتْ عظامُنا؟!

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ﴾؛ أي: الرَّجعة، ﴿إِذًا كَرَّةٌ﴾ رجعةٌ ﴿خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ لتكذيبنا بها، والمعنى أنهم من أهل النار، ويحتمل أن يكون هذا منهم استهزاءً.

قال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ الفاء للتَّفريع على محذوف، أي: لا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيرًا علينا ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾؛ أي: القصة والشأن ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: صيحة، وهي نفخة البعث، وتنكير النفخة يدل على عظمتها، ووصفُها بواحدة تأكيدٌ لإفادة الوحدة.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: على وجه الأرض أحياءً بعد أن كانوا في جوفها، و(الساهرة) الأرض البيضاء المستوية، سميت بذلك؛ لمنام الخلق وسهرهم عليها، أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة، والتسمية لأدنى ملابسة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من الأحداث العظيمة يوم القيامة الراجفةَ والرادفة، وهما النفختان؛ نفخةُ الصعق وحينها ترجف الأرض، ونفخةُ البعث.

٢ ـ أن قلوب الكفار يكون لها وجيبٌ (أي: اضطراب) مِن شدة الخوف. وأبصارهم خاشعة، ويشهد لمعنى هذه الآية قوله تعالى في الظالمين: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣].

٣ ـ ذم الله للكفار؛ بتكذيبهم بالآخرة، واستبعادِهم البعث بعد أن كانوا عظامًا نخرة.

٤ ـ تعجبُ الكفار مِن ردِّهم ـ بعد أن كانوا عظامًا بالية ـ إلى الحياة التي كانوا فيها، وهي المراد بالحافرة، من قولهم: رجع فلانٌ في حافرته؛ أي: في الطريق الذي جاء منه. وهذا تعجُّبُ استبعاد، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق].

٥ ـ إقرارهم على أنفسهم بالخسران لو بُعثوا فعادوا أحياءً مرة أخرى.

٦ ـ الرد على المكذبين بالبعث؛ ببيان يسر ذلك على الله لكمال قدرته، فما هي إلا زجرة واحدة، وهي النفخة الثانية في الصور، وهي نفخة البعث. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]، وقال هنا: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾، والساهرة: وجه الأرض.

الآيات:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات].

التفسير:

هذه الآيات معترِضة بين ذكر البعث والدليل على وقوعه، وفيها تسليةٌ للنبي ﷺ وتثبيتٌ لفؤاده، بأن الله ناصرُهُ ومؤيدُه كما أيَّد مَن قبله مِن الأنبياء، وفيها أيضًا تهديد المكذبين بالبعث أنْ يصيبَهُم مِن العذاب مثلُ ما أصاب مَن كان أشدَّ منهم قوةً وأكثرُ جمعًا.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو لأمته أيضًا، والاستفهام للتشويق واستدعاء المخاطب لسماع الخبر، هذا إذا لم يكن نزل شيء من القرآن في قصة موسى عليه السلام قبل هذه السورة، فإن كان نزل قبل ذلك فالاستفهام للتشويق والتقرير، والمعنى ـ على هذا ـ أليس قد أتاك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: خبره وقصته مع فرعون. وهي قصة عظيمة كثر ذكرها في القرآن؛ لأن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل، وكتابه وشريعته أعظم كتاب وشريعة قبل القرآن، وكان حول المدينة ثلاثُ طوائف من اليهود من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ، وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فاقتضى الحال تكرار القصة لإقامة الحجة عليهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإهلاك عدوهم فرعون، إلى غير ذلك من العبر، وجاءت القصة في هذه

السورة موجزة؛ لأن الغاية منها العظة بإهلاك فرعون لتكذيبه.

﴿إِذْ﴾؛ أي: حين ﴿نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهر ﴿طُوًى ﴿١٦﴾﴾ عطف بيان، وهذا اسم الوادي، وهو بأسفلِ جبلِ الطور، في الجنوب الغربي لسيناء، وجعله الله مقدسًا؛ لأن الله أوحى فيه إلى موسى - كما قيل - ويحتمل أنه كان مقدسًا ومباركًا قبل ذلك، ولهذا اختاره الله لتكليم موسى عليه، وتكليفه بالرسالة إلى فرعون، ولعل ذلك أولى؛ لأن الله خاطب موسى بقوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه]، و(طوًى) بالتنوين، مصروفًا على أنه اسم الوادي، فهو مذكرٌ سُمي به مذكر.

هذا على قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وقرأه الباقون بلا تنوين ممنوعًا من الصرف للعلمية والتأنيث، على تأويلِ الوادي بالبُقعة.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ هذا تفسير لقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ﴾ أي: ناداه فقال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بمصر، ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: جاوز الحد في كفره بربه، وفي تكبُّره على الخلق واستعباده بني إسرائيل، ﴿فَقُلْ﴾ يا موسى له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ الجار والمجرور في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هل لك سبيلٌ أو ميلٌ ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾، و(تزكى) أصلها: تتزكى، حذفت إحدى التاءين تخفيفًا؛ أي: تتطهر من دنس الكفر والطغيان، وتتحلى بزينة الإيمان ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: أدُلُّك إلى معرفته وعبادته ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: تخافه وتتقيه، و(الفاء) للتفريع؛ لأن الخشية لا تكون إلا مع العلم، وهي مِلاك الأمر، ومَنْ خَشِيَ الله أتى منه كُلُّ خير.

وتقديم التزكية على الهداية من باب التخلية قبل التحلية.

وقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أمرٌ مِن الله لموسى بالتَّلطف في دعوة فرعون، بجعل الخطاب بصيغة الاستفهام والعرض لا الأمر، كما يقول الرجل لضيفه: هل لك في كذا، هل لك أن تنزل عندنا، وهذا من القول اللين الذي أمر الله به موسى وهارون عليهما السلام في قوله سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فلم يخرج الكلام من موسى بصيغة الأمر، ولم يصرح ابتداءً بما هو فيه ـ أي فرعون ـ من الكفر والطغيان، وهذا من أحسن طرق الدعوة، حتى إذا ظهر عناد فرعون أغلظ له موسى في القول، كما قال تعالى عنه: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ الفاء عاطفة على محذوف معلوم من الآيات الأخرى، والمعنى: فذهب إليه فدعاه، فطلب منه آية، فأراه الآية الكبرى، أي: كبرى آيات موسى، وهي العصا، وهذا من إيجاز الحذف، وهو كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف] أي: فأرسلوه، فجاءه، فقال: يا يوسف إلخ.

وسماها الله آية؛ لأنها علامة دالة على صدق نبوة موسى، كما سماها برهانًا في قوله سبحانه: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: فكذب فرعون موسى، وقال: إنه ساحر، وعصاه فيما دعاه إليه، وعصى أمر ربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: ترك مجلسه ساعيًا في جمع جنوده لمعارضة الآية، أو فارًّا مرعوبًا مِن الثُّعبان العظيم.

وأتى بـ (ثُمَّ)؛ لأن معارضة الآية وتدبير المكايد يقتضي زمنًا، خلافًا للتكذيب فقد وقع مباشرة، ولذلك عطفه بـ(الفاء).

ويحتمل أنْ يراد بالإدبار معناه المعنوي؛ أي تولى عن الإيمان، لأنه قال قبل ذلك: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وبعده: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَحَشَرَ﴾؛ أي: وجمع السحرة لمغالبة موسى، وجمع أتباعه وجنوده لشهود الموقف بهم، كما قال سبحانه: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه]، وقال: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء].

قوله: ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: في الجُموع قائلًا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: لا ربَّ لكم فوقي، والفاء في ﴿فَقَالَ﴾ هي التفسيرية؛ لأن في قوله: ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ إبهامًا وإجمالًا، وما بعده تفصيل وتفسير له.

ولما جاء فرعون بهذا الكفر العظيم والاستكبار أخذه الله بالعذاب، فقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ (النَّكال) بمعنى التنكيل، وهو التعذيب، كالسلام بمعنى التسليم، وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ مِن معنى الفعل (أَخذ)، مُبينٌ للنوع، أي نكَّله الله نكالَ الآخرة والأولى؛ أي: عقوبة الدنيا والآخرة.

وإضافة النكال إلى الدنيا والآخرة من إضافة المصدر إلى زمنه، ونكال الدنيا بالغرق والآخرة بالحرق، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]، وتقديم الآخرة على الدنيا مراعاةً لرؤوس الآي.

وقيل: المراد بـ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ و﴿ٱلۡأُولَىٰٓ﴾: كلمتا فرعون؛ و﴿ٱلۡأُولَىٰٓ﴾: قوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَـٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾، فالآخرةُ والأولى صفتان لمحذوف، أي: الكلمة الآخرة والكلمة الأولى.

وإضافةُ النَّكال إلى ما بعده من إضافة المسبَّب إلى سببه، فإنَّ كلَّ واحدة من الكلمتين سبب لما أُضيف إليه مِن النكال، والمعنى على هذا: عذَّبه الله عذابًا بالغًا يَعْتبر به مَنْ بعده، بسبب كلمتيه القبيحتين الآخرة والأولى.

والقول الأول هو الصحيح، ويشهد له القرآن حيث جاء ذكر الآخرة والأولى مرادًا بهما الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل]، وقوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في قصة فرعون وطغيانه وإهلاكه ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: لموعظةً بليغة لمن يخاف الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [فاطر: ١٨].

الفوائد والأحكام:

١ ـ عظم شأن قصة موسى مع فرعون، فقد ثُنِّيت في القرآن أكثر من غيرها.

٢ ـ التشابه بين الرسولين: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وذلك من وجوه:

الأول: صبرهما على أذى الخلق، ولذا كانا مِن أولي العزم.

الثاني: التشابه بين الشريعتين والكتابين، التوراة والقرآن، ولذا يقرن الله بينهما في الذكر في مواضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩١ ـ ٩٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام].

الثالث: كثرة أتباعهما، كما في حديث عرْض الأمم على النبي ﷺ.

الرابع: ما جاء في قصة المعراج من مشورة موسى عليه الصلاة السلام للنبي ﷺ بطلب التخفيف في فرض الصلوات.

٣ ـ صفة إرسال موسى إلى فرعون، وما تضمنه ذلك من أمور عظيمة، منها النار التي أُرِيَها موسى في الوادي المقدس، ومنها نداء الله وتكليمه، ومنها إعطاؤه الآيتين العظيمتين؛ العصا واليد. وقد أُجْمل ذلك في هذا الموضع وفُصِّل في: (طه) و(النمل) و(القصص).

٤ ـ تنويهُ اللهِ بخبر إرسال موسى؛ يُنبئ عن ذلك سَوْق الخبر بصيغة الاستفهام: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

٥ ـ تشريف موسى عليه السلام أنْ كلَّمه الله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

٦ ـ فضل ذلك الوادي الذي كلَّم الله موسى فيه، وهذا الفضل لا يستلزم تخصيصَهُ بشيءٍ من العبادات، ولا تحريَ العبادة فيه، ولا شدَّ الرِّحال إليه.

٧ ـ أن الواديَ المقدَّسَ اسمُه: طُوى.

٨ ـ أن إرسال موسى كان بتكليم الله له بلا واسطة، كما في هذه

السورة، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء].

٩ ـ إثبات كلام الله.

١٠ ـ إثبات ربوبيته الخاصة لأنبيائه وأوليائه، لقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

١١ ـ أن المقتضيَ لإرسال موسى عليه السلام: طغيانُ فرعون، وظلمُ قومه.

١٢ ـ أن الغاية من إرسال موسى إلى فرعون دعوتُهُ إلى الإيمان بالله وأن يخشاه، وفي ذلك تزكية النفس ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

١٣ ـ اللين والرِّفق في الدعوة إلى الله، ولو كان المدعوُّ مِن شرِّ الطُّغاة؛ لقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

١٤ ـ أن معرفة الله تورث خشيته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

١٥ ـ أن الهداية إلى الله ومعرفتَهُ إنما تتحقق بما أوحاه الله إلى رسله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ]، ووجه ذلك في هذه السورة إضافة الهدى إلى موسى عليه السلام، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

١٦ ـ أنَّ مِن الهداية ما هو مِن مقدور الرُّسل، وهي هداية الدلالة والإرشاد، لقوله تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، بخلاف هداية التوفيق، فإنه لا يقدر عليها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

١٧ ـ ضرورة العباد إلى معرفة ربهم الذي خلقهم، وأسبغ عليهم نعمه.

١٨ ـ إثبات فعل العبد، لقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾، ففيه:

١٩ ـ الردُّ على الجبرية.

٢٠ ـ أن الإيمان بالله وخشيتَهُ سببٌ لزكاة النفس.

٢١ ـ تأييد الله لرسله بالآيات التي تدل على صدقهم.

٢٢ ـ احتجاج الرسل بالآيات على المكذبين.

٢٣ ـ أن آياتِ الرُّسل بعضُها أكبرُ مِن بعض، وأظهر في الدلالة، لقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾، والمراد بها ـ والله أعلم ـ العصا، التي تنقلب بإذن الله ثعبانًا عظيمًا، ثم تعود كما كانت، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: ٦٩]، وقال سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾ [الشعراء].

٢٤ ـ أن فرعون لم ينتفع بما رأى من الآية الكبرى، بل كذب وعصى. وكان تكذيبه جُحودًا، مع استيقانه بصدق موسى؛ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

٢٥ ـ أن الكافر يعاقب على ما يأتي مِن معاصي الله، لقوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾.

٢٦ ـ أن فرعون لم يزدد مع ما رأى من الآيات إلا طغيانًا واستكبارًا، لقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾.

٢٧ ـ استخفافه بقومه، وسفاهتُهم إذْ أطاعوه وصدقوه.

٢٨ ـ سوء عاقبة التكذيب والعصيان والاستكبار.

٢٩ ـ أخْذُ الله لفرعون بالعقاب العاجل والآجل ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾؛ الدنيا والآخرة، **وقيل**: بكلمتيه، وهما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

٣٠ ـ أن في أخذ الله لفرعون عبرةً للمعتبرين، وهم الذين يخشون الله، ويخافون عذابه.

٣١ ـ وفي جملة القصة تسليةٌ للنبي ﷺ وتهدئةٌ لقلبه، وفيها أيضًا:

٣٢ ـ تهديد لمن كفر بالنبي عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل].

***

ولما أخبر عن فرعون وبيَّن سوء عاقبته؛ وجه الخطاب إلى منكري البعث من كفار مكة وغيرهم، مبينًا يُسْر البعث عليه ﷻ، مستدلًا بخلق السموات والأرض، فقال سبحانه:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات].

التفسير:

قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أي: أصعب خلقًا في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، والاستفهام للتقرير والتوبيخ، أي: بلِ السَّماء أشدُّ خلقًا منكم، فمن قدِر على الأشد فكيف يُعْجزه الأيسر، وهو بعْثُكم وحشركم؟! قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَشَدُّ﴾ خبره، ﴿خَلْقًا﴾ منصوب على التمييز، و﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ عطف على ﴿ءَأَنتُمْ﴾ وحُذف خبره لِدَلالة خبر ﴿ءَأَنتُمْ﴾

عليه؛ أي: أم السماء أشدُّ خلقًا، ويحسُن الوقوف على ﴿ٱلسَّمَآءُۚ﴾ لتمام الكلام، ثم يستأنف ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، ونظيره قوله تعالى في الزخرف: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: السماء، ثم فسر هذا البناء بقوله: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾؛ أي: رفعها في الهواء بغير عمد، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢]، وأخبر سبحانه أنه بناها بقوة، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات]. وقوله: ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: جعلها مستوية، معتدلة الأجزاء، وأحكم خلقها، فلا فطور فيها ولا تفاوت.

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾؛ أي: جعله مظلمًا، ﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: أبرز نهارها، وعبَّر بالضحى؛ لأنه أكمل أجزاء النهار، وفيه يتجلى سلطان الشمس، ولهذا أقسم الله به، قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ [الضحى]. وأضاف الليل والضحى إلى السماء؛ لأن الليل والنهار يبدوان من جهة السماء.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منصوب على الاشتغال، ﴿دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: بسطها وهيَّأها للسُّكنى، وقوله: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ يُشعر أن خلق الأرض كان بعد السماء، وبهذا يكون بين هذه الآية وآية فصلت تعارضٌ في الظاهر؛ فإنه تعالى بعد ذِكْر خلْقِه الأرض في أربعة أيام قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]، والجمع بين الآيتين أن الله خلق الأرض أولًا غير مدحوة، ثم خلق السماء ثانيًا، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

قوله: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا﴾؛ أي: من الأرض ﴿مَآءَهَا﴾؛ أي: بتفجير

عيونها وإجراء أنهارها، ﴿وَمَرْعَىٰهَا ٣١﴾؛ أي: النبات والكلأ مما يأكله الناس والأنعام.

وفي الآية إيجاز بديع، فهي من جوامع الكلم؛ إذِ اشتملت على كل ما يتمتع به الناس والأنعام.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ٣٢﴾؛ أي: ثبتها وثقل بها الأرض؛ لئلا تميد بأهلها ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٣﴾؛ أي: فعلنا ذلك كلَّه؛ لأجل أن تتمتعوا به أنتم وأنعامكم، جمع نَعَم، وهي: الإبل، والبقر، والغنم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ توبيخ المكذبين بالبعث.

٢ ـ الاحتجاج عليهم بخلق السماوات والأرض.

٣ ـ أن خلق السماوات والأرض أشدُّ من خلقهم وأعظم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

٤ ـ إثبات قياس الأولى؛ ووجهُهُ: أنَّ القادر على الأعظم والأشد هو على ما دونه أقدر، وذلك باعتبار نظر العقل المجرد، وإلا فنسبة الأشياء إلى قدرة الله واحدة. فهو على كل شيء قدير، وليس هو على شيء أقدرَ منه على شيء آخر.

٥ ـ أنه تعالى خالق السماوات والأرض والليل والنهار.

٦ ـ إضافة فعل البناء إلى الله، وهو رفع الشيء فوق الشيء، ولهذا جاء البناء متعلقًا بالسماء، وسمَّى الله السماء بناء.

٧ ـ أن الليل والنهار من الآيات السماوية؛ لأن آيتيهما الشمس والقمر.

٨ ـ أن الله هو الذي جعل الليل ظلامًا والنهار ضياءً، ويذهب بهذا ويأتي بذاك.

٩ ـ أن الله بسط الأرض وأودع فيها منافعها، وبارك فيها.

١٠ ـ أن دحو الأرض بعد خلق السماء.

١١ ـ أن من بركات الأرض ما يخرجه الله للعباد من الماء والمرعى لهم ولدوابهم، مما للعباد فيه تسبب أو لم يكن.

١٢ ـ أن من آيات الله العظيمة الجبال التي خلقها الله وأرساها لتستقر بها الأرض.

١٣ ـ أن الحكمة من دحو الأرض وإرساء الجبال، أن يكون في ذلك متاع للناس ولأنعامهم.

١٤ ـ أن الناس شركاء في الماء والكلأ؛ إلا ما يحوزه الإنسان في بيته ووعائه.

١٥ ـ الإشارة إلى إحياء الأرض بعد موتها، وهو من أدلة البعث، وذلك في قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾.

ولما ذكَّر الله عباده بمخلوقاته العظيمة الدالة على كمال قدرته، وما امتن به عليهم مِن النِّعم = شرع في بيان أحوال معادهم الحتمي؛ فقال سبحانه:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات].

التفسير:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾﴾؛أي: الدَّاهية التي تطُمُّ، أي: تعلو على الدواهي وتغلبها، وهي يوم القيامة، أو الساعة، كما قال سبحانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر]، ووصفها بالكبرى تعظيمًا لها، أي: لا مثيل لها. ووصفت القيامة أيضًا بالواقعة، والصاخة، والقارعة، وتعدد الأوصاف يزيد في عظمة الموصوف، وجواب (إذا) محذوف تقديره: وقع ما لا يوصف من الأهوال.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾؛ أي: جميع الإنسان؛ فـ (أل) جنسية للاستغراق الحقيقي، ﴿مَا سَعَى ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: سعيَهُ وعملَهُ مِن خير وشر في الدنيا، والمقصود بتذكُّرِه: أن يُعرض عليه مدوَّنًا في صحيفة أعماله، والمقصود أثر ذلك وهو الجزاء، كما قال سبحانه: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾؛ أي: أُظهرت جهنم ﴿لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾﴾ لكُلِّ مبصِر؛ مؤمنًا كان أو كافرًا، فيرونها عيانًا، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**يُؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زِمام، مَعَ كل زمامٍ سبعون ألف مَلَك يَجُرُّونها**»[1]، فيراها الجميع، ثم يجوزها المؤمنون بمرورهم عليها، ويثوي فيها الكافرون، وعلى ذلك؛ فلا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء]، فإبرازها للكافرين لأنها مستقرهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: جاوز الحد في كفره وتكذيبه، و(أمَّا) حرف شرط وتفصيل، وبدأ بالكافر لأنه الأكثر، ولأن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢)؛ من حديث شقيق بن عبد الله رضي الله عنه.

الكلام مع منكري البعث، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: اختارها وفضلها على الآخرة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي مأواه، أي: مستقرُّهُ ومسكنُه، لا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ المَقام: مصدر ميمي، بمعنى القيام، والمراد قيام العبد بين يدي الله للحساب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، وكما يشير إليه قوله ﷺ: «**ما منكم مِنْ أحدٍ إلا سيكلِّمه ربُّه ليس بينه وبينه تُرجمان**»[1].

وقيل - وهو أظهر -: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: قيامَ الله على العباد في الدنيا والآخرة بالاطلاع على أعمالهم وإحصائها، وحسابهم عليها ومجازاتهم بها، ويشهد لهذا المعنى اسمُه تعالى (القيوم) في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، ويؤيد هذا التفسير الثاني أمران:

أحدهما: أن الأكثر في اللغة إضافة المصدر إلى فاعله.

الثاني: اطراد إضافة المقام إلى الله في القرآن، ومعلومٌ أنه أظهر في اقتضاء الخوف؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]، وهذه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

والمفسرون منهم من يذكر القولين، كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فإنه ذكر القولين، واستشهد لكل منهما من القرآن[2]، ومنهم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٠٥)، ومسلم (١٠١٦)؛ من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) في تفسيره «أضواء البيان»، في حديثه على آية الرحمن.

من اقتصر على القول الثاني، كالشيخ السعدي رحمه الله[١]، واقتصاره عليه ترجيحٌ له.

وذكر ابن القيم القولين، ورجَّح القول الأول بقوة[٢]، وذكر أن القول الثاني يتضمن معنى القول الأول، وهو التخويف من قيام العبد بين يدي الله في الآخرة، ومع ذلك لم يعدل عن ترجيحه للقول الأول، ومعنى هذا: أن قيام الله في الدنيا والآخرة على العباد يوجب الخوف من مقامه في الدنيا والآخرة، وهو وجه ثالث يرجَّح به القول الثاني.

وعلى هذا فكلٌ من القولين صحيح، ولا يمتنع أن يكون كلٌ من القولين مرادًا. والله أعلم.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: زجرها عن الأهواء الفاسدة والشهوات، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: مأواه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء القيامة (الطَّامَّة)، وسُميت بذلك؛ لأنها طمَّت على كُلِّ شدة، وعلت عليها، واضمحلَّت في عظيم شدتها الشدائد، ولهذا وصفها بالكبرى.

٢ ـ التخويف من ذلك اليوم، والحث على الاستعداد له.

٣ ـ أن يوم القيامة يوم تَذَكُّرِ الإنسان لسعيه، تذكُّرًا لا يجدي.

٤ ـ إبراز جهنم لأهل الموقف.

٥ ـ أن من أسماء النار الجحيم.

٦ ـ إثبات الجنة والنار.

---

(١) في تفسيره «تيسير الكريم الرحمٰن»، عند كلامه على آيتي الرحمٰن والنازعات.

(٢) في كتابه «طريق الهجرتين»، (ص: ٤٢٥) المطبعة السلفية.

٧ ـ أن الطغيان وإيثار الدنيا سبب لدخول النار.

٨ ـ أن العلو في الأرض وإيثارَ الدنيا هما سببُ الشَّقاء الدائم.

٩ ـ أن الخوف مِنَ المقام بين يدي الله ونهيَ النفس عن الهوى = جِماعُ أسباب دخول الجنة.

١٠ ـ أن اتباع الهوى جِماعُ الشر.

١١ ـ أن خوف الله جِماعُ الخير.

١٢ ـ أن عدم الخوف من الله واتِّباعَ الهوى مَنشأُ الطغيان وإيثارِ الدنيا، وأن الخوف من الله أعظم مانع من ذلك.

***

كان المشركون يسألون النبي ﷺ عن وقت القيامة على سبيل الاستهزاء، فقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾؛ أي: متى وقت إرسائها وقيامها؟! وفي اللفظ استعارة، شُبِّهت الساعة بسفينة، بجامع المجيء وبلوغ المنتهى في كلٍّ منهما، ثم حُذف المشبَّه به، ورُمز له ببعض خصائصه، وهو المُرسى.

وإيثار المضارع ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ للدلالة على تكرر السؤال منهم، وسُمِّيت القيامةُ ساعة؛ لأنها تفجأ الناس بغتة، أو لأنها تقع في ساعة من الزمان، وأقلُّ ما يصْدُق عليه اسم الساعة اللحظةُ ونحوها، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر].

قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣﴾؛ ﴿فِيمَ﴾ أصلها: (في) وَ (ما) الاستفهامية حُذفت ألفها لدخول الجارّ عليها، أي: في أيِّ شيء أنت مِن أنْ تذكر لهم وقتها، فهو استفهام بمعنى النفي، أي: لا علم لك بوقتها، فلم يسألونك؟! كما قال تعالى في الأعراف: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾؛ أي: عالمٌ بها ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾؛ أي: مُنتهى علمِها إلى الله وحده، فلا أحد يعلمها سواه سبحانه، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥﴾؛ أي: مُحذِّر مَن يخافها، ولم تبعث للإعلام بوقتها، وإنما بعثت للإنذار، وخصَّ الإنذار بمَن يخشاها؛ لأنهم المنتفعون بالنذارة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: ١١].

﴿كَأَنَّهُمۡ﴾؛ أي: الكفار ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾؛ أي: الساعة، ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً﴾ وهي آخر النهار، ووقتها من الزوال إلى غروب الشمس، ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾؛ أي: ضحى تلك العشية، والضحى أول النهار، وهو من ارتفاع الشمس إلى الزوال، والمعنى أنهم إذا رأوا الساعة وأهوالها ظنوا أنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا بعض يوم، فلم يستكملوا يومًا، ولم يجمعوا بين طرفيه، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأضاف الضحى إلى العشية لما بينهما من الملابسة؛ فهما في يوم واحد.

الفوائد والأحكام:

١ ـ مناسبة آخر السورة لأولها، فإن أولها وآخرها في شأن القيامة.

٢ ـ أن من أسماء القيامة: الساعة، وهو من التعبير بالزمن عن الحدث الواقع فيه، وهو القيامة.

٣ ـ جواز عود الضمير على معلومٍ غيرِ مذكور، فالسائلون عنها هم الكفار.

٤ ـ تشبيه زمن قيام الساعة بمُرسى السفينة.

٥ ـ نفي علم موعد الساعة عن النبي ﷺ، فهو لا يذكرها في نفسه، ولا يذكرها لغيره.

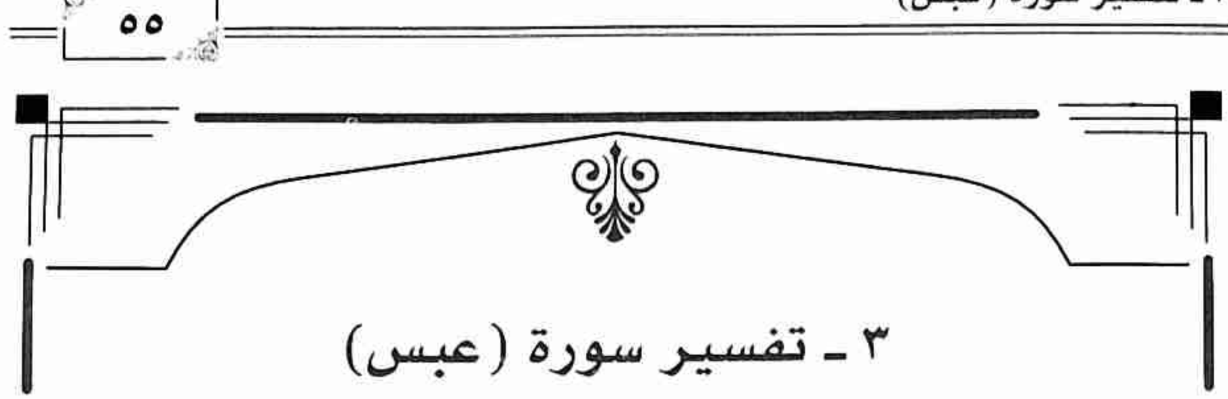
٦ ـ تفويض علم قيام الساعة إلى الله الذي إليه تصير الأمور، وإليه المنتهى.

٧ ـ أن المنتفعين بالذكرى والنذارة هم أهل الخشية.

٨ ـ استقصار الكفار يومَ القيامة لمدة إقامتهم في الدنيا.

٩ ـ جواز التقديم والتأخير في الكلام رعاية لحسن الكلام، لقوله: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَنهَا ﴿٤٦﴾﴾.





٣ ـ تفسير سورة (عبس)

هذه السُّورَةُ مكِّيَّة، وسُمِّيت بأوَّلِ كلمة فيها، ولها سببُ نزولٍ لا خلاف فيه بين المفسرين، وهو أنَّ عبدَ الله بْنَ أمِّ مكتوم الأعمى جاء إلى النبيِّ ﷺ، وكان ممن أسلم قديمًا، فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند النبي ﷺ رجل من عظماء المشركين يدعوه إلى الإسلام، فجعل رسول الله يُعرِض عنه ويُقْبِل على الآخر طمَعًا في إسلامه، ويقول: «**أترى بما أقُول بأْسًا**»، فيقول: لا، فنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [سورة عبس][1].

الآيات:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس].

التفسير:

﴿عَبَسَ﴾ العبوس: تقطيب الوجه، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾: أعرض بوجهه؛ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾؛ أي: كان عُبوسُهُ وإعراضُهُ لأجل أنْ جاءه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣١)، وابن جرير (٢٤/ ١٠٢)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وصححه الحاكم (٢/ ٥١٤)، وابن حبان (٢/ ٢٩٤)، وصحح إسناده الألباني. وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه رواه أبو يعلى في مسنده (٣١٢٤).

الأعمى، وقَطَعَ عليه ما هو آخذٌ به من دعوة أكابر قريش، فالجملة في موضع المفعول لأجله، وفي ذِكْرِ ابن أم مكتوم بوصف الأعمى دلالة على أنَّه مِنْ ضَعَفَةِ المؤمنين، وعرَّفه بـ(أل) لِتَعْيينِه، وفي قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ عتابٌ مِنَ الله لنبيِّهِ، جاء بصيغة الخبر بلفظ الغَيْبَة إكرامًا للنبي ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أي: وما يُعْلِمك بحال هذا الأعمى، ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ أصله يتزكى، أُدْغمت التاء في الزاي؛ أي: يتطهر، أي: يزداد طُهرًا وزكاء، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: يتَّعِظ بما يسمع منك، ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾؛ أي: الموعظة، أي: إنْ لم يقع منه تزكٍّ حصل له الاتعاظ، ونصب (تنفعه) لوقوعه في جواب التَّرجي، وهذا في قراءة عاصم وحده، وقرأ الباقون برفع (تنفعُه) عطفًا على ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَة إِلَى الخطاب، وفيه إيناس للنبي عليه الصلاة والسلام، وتلطف في العتاب.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾؛ أي: بماله وجاهه، ورأى نفسه في غنى عن الهداية ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أصلها: تتصدى، حُذفت إحدى التاءين تخفيفًا؛ أي: تَتَعَرَّضُ له، وتُقْبِل عليه، وتُصْغِي إلى كلامه؛ لعله يهتدي، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾: أيُّ شيءٍ عليك في ألَّا يتطهر مِنَ الكفر ويُسْلِم، فهو استفهامٌ بمعنى النَّفْي؛ أي: ليس عليك شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾؛ أي: مسرعًا في طلب الهداية والخير، وهو الأعمى، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾؛ أي: يخاف الله ويتقيه، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾؛ أي: تتغافل عنه وتتشاغل، أصلها: تتلَهَّى، مِنْ لهِيَ عَنِ الشيء - كـ (رَضِيَ) - إذا تشاغل عنه وتركه، وليس مِنَ اللَّهْو.

وفي الآيات مقابلة بين قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾،

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾، وفي هذا تأكيدٌ للعتاب ببيان أنَّ الثاني أولى بالتصدي له والإقبال عليه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ عتاب الله لنبيه عليه الصلاة والسلام على معاملته للأعمى.

٢ ـ أنَّ الذي قُوْبل به الأعمى عبوسٌ وإعراض.

٣ ـ أنَّ وقوع ذلك مِنَ النبي ﷺ خطأٌ منه، وهو إعراضه عن ابْنِ أمِّ مكتوم، وهو أعمى ومن المستضعفين، وفي مقابل هذا إقباله ﷺ على بعض الكبراء والأغنياء من الكفار، وتصديه لدعوتهم ليهتدوا هُم وأتباعهم.

٤ ـ عَتبُ الله علىٰ نبيِّهِ ﷺ؛ لتصديه لمن استغنى من الكبراء، وتلهِّيْهِ عن الذي جاء إليه راغبًا في العلم، متحليًا بخشية الله.

٥ ـ وصف حال النبي ﷺ مع الأعمى بضمير الغَيْبَة؛ إكرامًا له عليه الصلاة والسلام؛ حيثُ قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾.

٦ ـ فضيلةُ عبدِ الله ابْنِ أُمِّ مكتوم؛ لنزول الآيات في شأنه، ووصفِهِ بالتَّزكي والتَّذكُّر والخشية.

٧ ـ جوازُ ذِكْرِ الإنسان بما فيه من العيب إذا اقتضى المقامُ ذلك؛ كالتعريف به.

٨ ـ أنَّ الضعيف والفقير أَحْرَى بالتزكي والتذكر والانتفاع بالذكرى.

٩ ـ أنَّ ما جاء به الرسولُ ﷺ من الهدى ودين الحق فيه تزكية النفوس، وتذكير بما ينفع.

١٠ ـ أنَّ التذكر سببٌ للانتفاع بالذكرى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات].

١١ ـ أن المناط في الفضل عند الله خشيةُ الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

١٢ ـ إبطالُ مِعْيارِ التَّفاضل في عُرف النَّاس بالْغِنَى.

١٣ ـ أنَّ الغنى ـ في الغالب ـ عائقٌ مِنْ عوائق الاستجابة لدعوة الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم.

١٤ ـ حرص النبيِّ ﷺ على هداية الخلق.

١٥ ـ اجتهاده ﷺ في طريقة الدعوة.

١٦ ـ أن النبي ﷺ ليس بمعصوم من الخطأ، ولكنه لا يُقَرُّ على خطأ.

١٧ ـ أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لذلك لا يعلم أحوال المدعوين، وما يؤول إليه أمرهم.

١٨ ـ أنَّ الرسول ﷺ ليس عليه شيء مِنْ حساب مَنْ أعرض عن دعوته، ولم يقبل تزكية نفسه.

١٩ ـ أن الضعفاء المؤمنين أحق بالإقبال عليهم من الكفار المستغنين المستكبرين.

٢٠ ـ أنَّ حُسْن القصْدِ لا يُسَوِّغ العمل.

٢١ ـ في الآيات شاهد للقاعدة الأصولية: لا يُترك أمرٌ معلومٌ أو هو قريب لأمر محتمل.

٢٢ ـ الردُّ على مَن يقول بعصمة الرسول ﷺ من الصغائر.

ولما ذكر ما وقع مِنَ النبي ﷺ أعقبه ببيان أنَّ ما جاء به مِنْ آي القرآن تذكرة لكل أحد من أغنياء الناس وفقرائهم وكبرائهم وضعفائهم، فقال سبحانه:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس].

التفسير:

﴿كَلَّآ﴾؛ أي: حقًّا، ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: آيات القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾؛ أي: مُذكِّرة وواعظة، وتنكير ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ للتعظيم، وهذا من التعبير عن اسم الفاعل باسم المصدر؛ لكمال وصف الآيات، أي إنها بلغت الغاية في التذكير، فهذه الآيات القرآنية تُذكر الإنسان وتدله على ما يعود عليه بالخير في دينه ودنياه، ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: ذكر الله، والمعنى: فمن شاء أن يذكر الله بقلبه ولسانه ذكره واتعظ بآيات القرآن، وفي الكلام محذوف؛ أي: ومن شاء لم يذكره، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل].

وقوله: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ خبرٌ ثان، **وقيل**: صفة لـ ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾، والقولان متلازمان، وجملة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ مُعْترِضة، والاعتراض كما يكون بـ (الواو) ـ وهو الأكثر ـ يكونُ بـ (الفاء) أيضًا. والاعتراض هنا لإفادة عموم التذكير، وبيان أن سبيل الحق واضح، فمن سلكه فاز، ومن أعرض فقد قامت عليه الحجة.

﴿فِى صُحُفٍ﴾ جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيه، والمراد بها الصحف التي بأيدي الملائكة، وهي المستنسخة من اللوح المحفوظ، والمعنى أنَّ هذه الآيات مثبتَةٌ في صحفٍ ﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: مُعظَّمة عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾؛ أي: رفيعة القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ من الدَّنَس والزيادة والنقصان.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: الملائكة، وهم المذكورون في قوله

تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة]، والسفرة جمع سافر، وهو الكاتب، وسفرة كـ (كَتَبَة)، لفظًا ومعنى.

ويحتمل أنَّ ﴿سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ جمعُ سافِر؛ بمعنى: سفير، وهو المُرْسَل، فالملائكة سُفراءُ بين الله وأنبيائه، ولا مانع مِنْ حمل اللفظ على المعنيين.

﴿كِرَامٍ﴾؛ أي: كرام في أفعالهم وأخلاقهم، وكرامٍ في خِلقتهم، فأفعالُهم وأخلاقُهُم وخِلْقَتُهُم موصوفةٌ كلُّها بالحُسن، ﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أتقياءَ كَمَلَة، جمع بَارٍّ، كـ (كاتِب) و(كَتَبَة).

وذَكَرَ الراغبُ أنَّ (بررة): «خُصَّ بها الملائكة في القرآن مِنْ حيث إنَّه أبلغ مِنْ (أبرار)؛ فإنه جمع (بَرّ)، و(أبرار) جمع (بارّ)، و(بَرّ) أبلغ من (بارّ)، كما أنَّ عَدْلًا أبلغ مِنْ عادل»[1].

وفي هذا القول نظر؛ فإن البررة لم يرد في القرآن إلا في هذه السورة، فلا يصح أن يؤخذ من ذلك قاعدة في ألفاظ القرآن، والذي يظهر أنَّ مجيء بررة على هذا الجمع لمناسبة رؤوس الآي، ألا ترى أن جمع (كافر) على (كفرة) لم يرد في القرآن إلا في هذه السورة لتناسب الفواصل، وأيضًا فإن (بررة) يتعين أن يكون جمعًا لـ (بار)، كما تقدم؛ وأما (بَرّ) فيجمع على (أبرار)؛ كـ (رب) و(أرباب)، وقيل: (بَرّ) يجمع على (بررة)، و(بارّ) يجمع على (أبرار) على غير قياس.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الآيات السابقة فيها تَذْكِرَةٌ بمقاصد الدَّعوة وسياسة الدعوة.

٢ ـ إثبات مشيئة العبد، والرَّدُّ على الجبرية.

---

(١) المفردات (ص: ١١٥).

٣ ـ أنَّ الغاية مِن التذكرة ذكرُ العبد لربه؛ بمعرفته، والإيمان به، وطاعته، وذكرُ ما أنزله مِن الكتاب والحكمة؛ بمعرفته واتباعه.

٤ ـ أنَّ القرآن مكتوبٌ في صُحُف بأيدي الملائكة.

٥ ـ أنَّ للملائكة أيْدِيا.

٦ ـ عِظَمُ شأن القرآن وفضلُه.

٧ ـ فضل هذه الصحف؛ حيث وصفت بالتكريم والرِّفْعة والتطهير.

٨ ـ أنَّ هذه الصُّحُفَ معظَّمةٌ عند الله، رفيعةُ القَدْر، مُطهَّرة عن كل سوء وعيب.

٩ ـ الإرشاد إلى فعل ذلك في الصُّحُف التي في أيدي المسلمين، وهي المصاحف، تكريمًا وتعظيمًا وتطهيرًا.

١٠ ـ فضل الملائكة الذين في أيديهم الصحف التي فيها القرآن.

١١ ـ ثناء الله على أولئك الملائكة بالصفات الثلاث: السِّفارة، والكرم، والبر.

١٢ ـ أنَّ مِن صفات الملائكة السِّفارة بين الله ورسله.

١٣ ـ أنَّ مِن صفاتهم الكرم، وهو الحُسن في الصُّورة والخُلُق.

١٤ ـ أنَّ مِن صفاتهم البِّر؛ وهو كل عمل صالح، عليهم سلام الله ورحمته وبركاته.

١٥ ـ ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السَّداد. قاله ابن كثير.

***

ولما وصف الله الكافر بالإعراض عن هدى الله وآياته، مستغنيًا بأهله وماله، وأثنى على آيات القرآن بأنها واعظة ومذكرة بما فيها من

التذكير ومالها من المنزلة، وأثنى على الصحف التي تتضمنها، والملائكة التي تحملها، ومع ذلك يكفرُ بها الإنسان الجاهل المتَّبع لهواه = أَتْبَعَ ذلك بالدعاء على هذا الكافر متعجبًا مِن كفره، فقال سبحانه:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس].

التفسير:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: لُعن وأُهْلك وعُذِّب، واللَّعن: الطَّرد والإبعاد عن رحمة الله، وعبَّر عن ذلك بما يدل على القتل على عادة العرب، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ جنسٌ يعُمُّ كل كافر، وهذا ذمٌّ بالغٌ له، وذلك لشدة كفره، ولهذا قال: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: ما أشدَّ كُفْرَه، تعجَّبَ مِنْ شدة كفره، مَعَ وضوح أدلة التوحيد وكثرة إحسان الله إليه، وهذا كالتعليل للدعاء عليه.

ثم ذكر سبحانه ما يدلُّ على ربوبيته وقدرته على البعث الذي كذَّب به الإنسان الكافر، فقال سبحانه: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: خلقه الله، وهذا استفهام تقرير وتحقير، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات]، والمراد من ذلك تذكير الإنسان بمبدئه؛ للاستدلال به على المعاد، ونظائر ذلك في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ [يس: ٧٧].

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ أي: مِن المني، وأصل النطفة هي الماءُ القليل، وهذا أول أطوار خلق الإنسان، وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ هو جواب الاستفهام، وأعاد الفعل في الجواب لبناء ما بعده عليه ﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾؛ أي:

قدَّره أطوارًا؛ نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً، كما فُصِّل ذلك في القرآن.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ منصوب على الاشتغال، ﴿يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: سهَّل السبيل للإنسان، بأن بيَّن له طريق الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، ولم يقل: ثم سبيله يسره، بإضافة السبيل إليه، بل عرَّفه بالألف واللام؛ لأنه غير مختص به، بل هو لعموم المكلفين من الجن والإنس.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: جعله ذا قبر، بأن أَلْهَم ابْنَ آدم الدفن، وصان أجسادهم عن أن تلقى على الأرض فتأكلها السباع والطير، يقال: أقبر الميت؛ إذا أمر غيره أن يقبره، وقبره؛ إذا دفنه بيده، وفي مجيء الفاء في قوله: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ إشارة إلى المبادرة بتجهيز الميت، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ الله إنشاره ﴿أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: أخرجه مِن قبره حيًا للحساب والجزاء، وعبَّر بـ (ثُمّ) في المواضع الثلاثة للدلالة على التراخي فيما بين هذه المعطوفات.

وهذه الآيات تضمنت الأحوال التي يتنقل فيها الإنسان بعد وجوده، وهي موت فحياة فموت فحياة، كما قال تعالى عن الكفار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿كَلَّا﴾؛ أي: حقًا ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ أي: لم يُؤدِّ الإنسان على تطاول عمره ما أمره الله به من الإيمان والطاعة، والمراد به عموم الإنسان.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الكفر بالله واليوم والآخر مجلبةٌ لِلَعْن الله ولَعْن اللاعِنِيْن؛ لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾؛ أي: لُعن.

٢ ـ ذِكْرُ اللفظ العام مرادًا به الخاص، وهو الإنسان الكافر.

٣ ـ الانتقال من ذكر الخاص إلى العام في قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾.

٤ ـ إثباتُ العَجَبِ لله تعالى، كما تفيده صيغة التَّعجب: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ١٧﴾.

٥ ـ أنَّ مِنْ أَظْهَرِ الكُفْر جَحْدَ المعاد مع العِلْم بالمبدأ.

٦ ـ أنَّ مِنْ أدلة قدرة الله على البعث بَدْءَ خَلْقِ الإنسان مِن نطفة، وهي القطرة مِنَ المنيّ.

٧ ـ تحقير ما خُلق منه الإنسان؛ لقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٢٠﴾ [المرسلات].

٨ ـ أنَّ الإنسان لم يخلق من عدم، بل من نطفة، كما خُلِق الإنسان الأول مِنْ تراب، فبهذا يعلم خطأ قول بعض الناس: خُلق الإنسان مِن عدم، فالصواب أنه خُلق من تراب، وخُلق بعد عدم.

٩ ـ أنَّ الله قدَّر خَلْق الإنسان أطوارًا وصُورًا.

١٠ ـ تيسيرُ الله كلَّ إنسان لما خُلق له مِن سبيل الخير أو الشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان].

١١ ـ أن الله هو الذي يحيي ويميت، ويبعث الأموات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ٦٦﴾ [الحج].

١٢ ـ أنَّ دفن الميت سُنّة كونية وشرعية.

١٣ ـ إكرامُ الله للإنسان بقبره بعد موته.

١٤ ـ الإشارة إلى الإسراع بتجهيز الميت، والمبادرة إلى دفنه؛ كما يدل عليه العطف بـ(الفاء) في قوله: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾.

١٥ ـ إثباتُ المشيئة لله تعالى.

١٦ ـ زجرُ الكافر بالبعث عن كفره مع علمه بمبدئه.

١٧ ـ أن الكافر بالبعث لم يُؤد حقَّ الله عليه، وما أمره به من الإيمان والتوحيد، وذلك باعتبار ما في الآية من خصوص الإنسان الكافر.

١٨ ـ أنه ليس من إنسانٍ قد أدَّى كلَّ حقٍّ الله عليه، وفَعَلَ كلَّ ما أمره الله به، فلا يسلمُ أحدٌ مِن ذنبٍ أو خطأ، وذلك لما في الآية من عموم الإنسان.

***

ولمَّا ذكر الله تعالى شيئًا مِن دلائل قدرته، وبديع صُنعه في خلق الإنسان وتنقله في الأطوار المختلفة؛ ليَدُلَّ بذلك على إمكان البعث = ذكر بعد ذلك دليلًا آخر؛ وهو ما خُلق للإنسان مِن النِّعم في طعامه وطعام أنعامه، بإنزال الماء وشقِّ الأرض، فالدليل الأول من آيات الله في الأنفس، والثاني من آياته في الآفاق، فقال سبحانه:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس].

التفسير:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهو الكافر المذكور في قوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، فـ (أل) فيه للعهد الذكري، ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾؛ أي: فلينظر بعينه إلى

طعامه نظرَ تفكُّرٍ واستدلال، كيف خلقه الله، وجعله سببًا لحياته، وكيف وصل إليه.

ثم فصَّل؛ فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ من السَّحاب. قرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح همزة (أَنّ)، على أنه بدل اشتمال مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ يتضمن بيانَ سببِ الطَّعام وأنواعه وأطواره وحِكْمَة وجوده، فالمعنى: فلْينظر إلى ذلك كُلِّه، مِنْ صبِّ الماء وشقِّ الأرض إلخ.

وقرأ الجمهور بكسر الهمزة، على الاستئناف المبيِّنِ لكيفية إحداث الطعام بأنواعه.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ الهامدة قبل صبِّ الماء، شققناها بالنبات مع أنه غاية الضعف، وأضاف الباري الشَّقَّ إلى نفسه؛ لأن ذلك كان بمشيئته وتقديره وتدبيره، فهو إسناد حقيقي، ودلَّت (ثُمّ) على التراخي بين الصب والشق، و﴿صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ و﴿شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ مَصْدران مُؤكِّدان، وما فيهما من التنكير يفيد التفخيم والتعجيب.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾: كالبُرّ، والرز، والذرة، والشعير، وسائرِ ما يُدَّخر ويُحْصد، وتقديم الحبوب ـ والله أعلم ـ لأنها أهم مما سواها، ويدل لذلك أنها الأصل في قوت الإنسان.

﴿وَعِنَبًا﴾ معروف، وعطْفُه على الحبِّ وتقديمُهُ على ما بعده يدل على فضله على الفواكه، ﴿وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ وهو القَتّ؛ أي: البرسيم؛ لأنه يُقضب مرة بعد أخرى، أي يُقطع، و(القضب) مصدر بمعنى المفعول.

﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو مأكول، ويُعصر منه الزيت للادِّهان والائتِدام والاستصباح، قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون]، ﴿وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾ جمع نخلة، معروف، وإنما ذكر الله

النخل دون ثمرته، لحصول الانتفاع بجميع أجزاء شجرته، ولذا مثَّلَ النبي ﷺ المؤمن بالنخلة.

﴿وَحَدَآئِقَ﴾؛ أي: بساتين، جمع حديقة، ﴿غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ جمع غَلْباء؛ كحُمْر وحمراء، والحديقة الغَلْباء هي: الضخمة الأشجار الملتفة الأغصان، ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ وهي كل ما يُتفكَّهُ به من الثمار، وعطْفُهُ على الحدائق مِن عطف الخاص على العام، ﴿وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ وهو: علف البهائم والأنعام.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: فعلنا ذلك كلَّه لأجل أنْ تتمتعوا به أنتم وأنعامكم، جمع نَعَم، وهي: الإبل والبقر والغنم، وما جاء عن الصِّدِّيق وعمَرَ رضي الله عنهما أنه خفي عليهما معنى الأبّ، فلعله ليس من لغة قريش، والله أعلم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذِكْرُ الدليل بعد الحُكْم، وهو دليل البعث بعد الخبر عنه في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾.

٢ ـ الإرشاد إلى النظر بالعين إلى الطعام الذي خلقه الله للإنسان؛ قوامًا لبدنه وحياته، مع نظر العقل تدبرًا وتفكرًا.

٣ ـ التفصيل بعد الإجمال بذكر أسباب الطعام مما يكون بفعل الله، مما كان للإنسان فيه تسبب، أو لم يكن.

٤ ـ أن من أدلة البعث وقدرة الله عليه إحياءَ الأرض؛ بصب الماء عليها، وشقِّها بالنبات.

٥ ـ الامتنان مِن الله على عباده بما يُخرجه لهم من الأرض، من أنواع الحبوب والثمار؛ قوتًا وفاكهة، وما يخرجه مِن أنواع النبات طعامًا لدوابهم؛ كالقَضْب والأَب.

٦ ـ أنَّ ما تأكله الأنعام آيلٌ طعامًا للإنسان، وهو اللُّحوم والألبان.

٧ ـ أنَّ كلَّ ما ذكره الله من أنواع النبات هو من طعام الإنسان المذكور في أول الآيات؛ إمَّا مباشرة كالتمر والعنب، أو بالواسطة كلحوم الحيوان التي ترعى النبات.

٨ ـ أن ما ذكره الله في هذه الآيات من أنواع النبات شاملٌ لأنواع ما يحتاج إليه الإنسان في غذائه؛ من قوت وفاكهة وأُدُم وشراب ولحم؛ لقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

٩ ـ فضل العنب على سائر الفواكه.

١٠ ـ فضل الزيتون على سائر الأُدُم.

١١ ـ فضل التمر والرُّطب على سائر الثمار.

١٢ ـ اهتمام الإنسان بعلف بهائمه، ولهذا امتن الله بخلقه ذلك.

١٣ ـ أنَّ منافع الدنيا متاع، وكلُّ متاع زائل.

١٤ ـ أنَّ من نعم الله التي يمتن بها على الإنسان خلقَ المناظر البهيجة، التي تَلَذُّها العيون، وتنفتح لها النفوس، كما يُشعر بهذا قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠﴾ وهي البساتين ذات الأشجار العظيمة والظليلة.

١٥ ـ إثباتُ كمال قدرته سبحانه، وسعةِ رحمته؛ لإنزاله الغيث، وإخراجه الزروع والأشجار والثمار؛ رزقًا للعباد.

١٦ ـ أن الغاية من نظر الإنسان إلى طعامه ومصادر طعامه = معرفةُ قدرة ربه ورحمته.

١٧ ـ وجوبُ شُكْر الله على نِعَمه، ووجوبُ الإيمان بالبعث، والردُّ على المكذبين به.

١٨ ـ التمهيد بذكر دليلين من أدلة البعث قبل ذكر يوم القيامة (وهي

الصاخة)؛ وهما: خَلْقُ الإنسان من نطفة، وإحياءُ الأرض بصب الماء عليها وشقِّها.

ولما ذكر الله أدلة البعث والمعاد وقرَّر إمكانه ذَكَر بعْدُ ما يكون مِن الأهوال والأحوال يومئذ؛ فقال سبحانه:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

التفسير:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: القيامة، والمراد الصيحة التي يكون بها قيام الناس من القبور، وهي النفخة الثانية، و(الصَّاخَّة) اسم فاعل، وسُمِّيت القيامة بذلك؛ لأنها تصُخُّ الآذان؛ أي: تكاد تصيبها بالصمم لشدتها، والفاء في قوله: ﴿فَإِذَا﴾ هي الفصيحة؛ أي: إذا علم ما تقدم؛ فإذا جاءت الصاخة، وجواب (إذا) محذوف يدل عليه قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾، والتقدير: فإذا جاءت الصاخة وقع من الأهوال ما يُذهل كلَّ قريب عن قريبه.

ثم وصف الهول بذكر آثاره؛ فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدل كل مِنْ (إذا)، ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾؛ أي: يهرب ﴿مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ فيفر مِن هؤلاء جميعًا، وهم أحبابه وقراباته، ورتبهم على سبيل التَّرقِّي مِن الأبعد إلى الأقرب والأحب؛ فإنه بدأ بالأخ لأنه شقيقه، ثم بالأبوين لأنهما أقرب إليه من

الأخ، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم ألصق بالصلب وأعلق بالنفس، كأنه قيل: يفر من أخيه، وكيف لا يفر منه؟! وهو يفر من أبويه، وكيف لا يفر منهما؟! وهو يفر ممن هو أحب إليه منهما، وهم الحليلة والبنون؟!

ثم ذكر سبب الفرار؛ فقال سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: إذْ يفرُّ كل قريب مِن قريبه وصاحبٍ مِن صاحبه، ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: حالٌ عظيمٌ فادحٌ يَشْغلُه عن غيره، والتعبير عن الشُّغْل بالغنى؛ لأن الغنى يصرف صاحبه عن الالتفات إلى غيره، فكل إنسان مشغول بنفسه في ذلك اليوم، ويسعى في خلاصها، وتأمل قول الأنبياء هناك: «**نفسي نفسي**»، روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**تُحْشرون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا**» فقالت امرأة: أيبصر ـ أوْ: يرى ـ بعْضُنا عورة بعض؟ قال: **يا فلانة** ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾[1].

ثم بيَّن مآلَ المكلَّفين وانقسامَهُم إلى سعداءَ وأشقياء، وميَّزَ الفريقين بما يبدو على وجوههم، فقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذْ ينشغل كلُّ إنسان بنفسه عن غيره ﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: مضيئة مشرقة مِن نور الإيمان والعمل الصالح، ﴿ضَاحِكَةٌ﴾؛ أي: فرحة لما رأت مِن كرامة الله لها ورضوانه ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: مُتمكِّنٌ منها البِشْرُ والسُّرور، والوجْهُ مرآة القلب.

وبدأ بالمؤمنين لفضلهم، ثم ذكر ما يقابلهم: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: مُغبرة، يعلوها مثلُ الغبار، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: تغشاها ظلمة، ولا ترى أوحش من الوجه إذا اجتمع فيه السواد والغبار، وقد جمع الله لهم ذلك لمَّا جمعوا بين سوء المعتقد وخبث العمل، كما

---

(١) جامع الترمذي (٣٣٣٢)، وقال: «حسن صحيح»، وأصله في مسلم (٢٨٥٩) دون ذكر الآية، وفيه التصريح بالسائلة، وأنها عائشة رضي الله عنها.

قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البُعداء المخصوصون بهذا الوصف ﴿هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ الجامعون بين الكفر في قلوبهم والفجور في أعمالهم، نعوذ بالله من ذلك.

وفيما ذُكر مِن صفة وجوه الفريقين نوعُ مقابلة؛ لأن الإسفار والاستبشار في وجوه المؤمنين يقابل ما في وجوه الكفرة من الغبرة والقترة. وقيل: إن في الآيات احتباكًا؛ فإن ذكر الإسفار والاستبشار في المؤمنين يدل على الحزن والخوف في الكافرين، وذِكْر الغبَرة والسواد في الكافرين يَدل على البياضِ والإشراقِ في وجوه المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ التعقيب بذكر بعض مشاهد القيامة بعد ذكر أدلة وقوعها.

٢ ـ أن من أسماء القيامة الصَّاخَّة، وأسماءُ القيامة؛ كالواقعة والحاقة والغاشية والآزفة، هي أسماءٌ تدلُّ على صفاتٍ وأحوالٍ مِن أحوال القيامة، فكل اسم من تلك الأسماء له معنى، وسُميت القيامة بـ (الصَّاخة)؛ لأنها تصُخُّ الأسماع، بما فيها من الأصوات الهائلة والمفزعة، ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل].

٣ ـ أن المُنْكِر للبعث يَظْهرُ له يومَهَا كَذِبُه؛ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ۝٣٩﴾ [النحل].

٤ ـ انقطاعُ الصِّلات والأنسابِ التي كانت بين النَّاس في الدُّنيا ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون].

٥ ـ فرار أقرب القرابات بعضهم من بعض؛ فرارُ الأخ من أخيه، والابْن من أمِّه وأبيه، والزَّوجِ مِن زوجِه، والأبِ من بنيه.

٦ ـ أنه لا ينفع أحدًا في هذا اليوم ولا ينجيه من عذاب الله إلا عَمَلُه برحمة الله.

٧ ـ انشغال كلِّ أحد في ذلك اليوم بشأن نفسه عن غيره، ولو كان أقربَ قريب.

٨ ـ تشبيه حال المنشغل بنفسه عن سؤال غيره بالمستغني عنه.

٩ ـ تمايز السُّعداء والأشقياء بمظاهرهم يوم القيامة.

١٠ ـ أن السعداءَ وجوهُهُم مُبيضَّةٌ يعلوها النور والسرور والبشر.

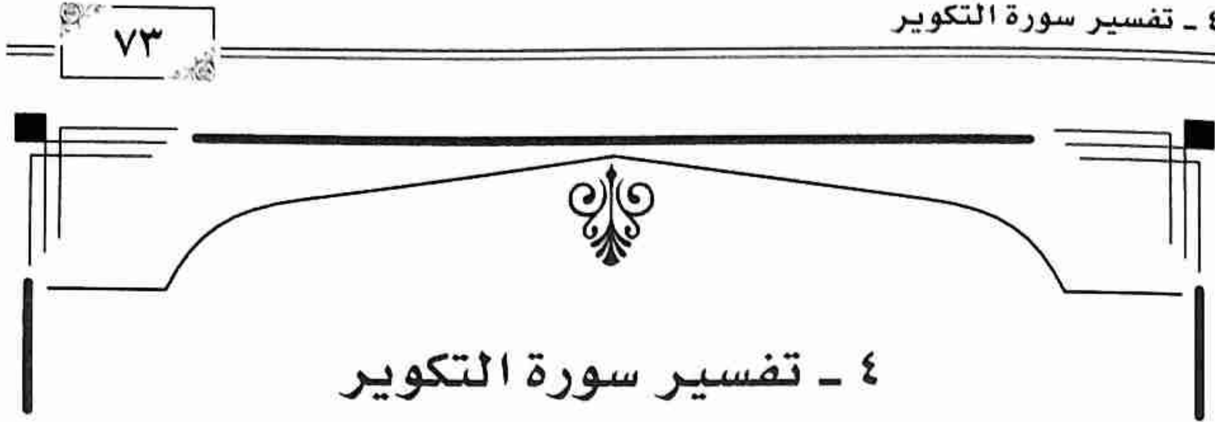
١١ ـ أنَّ الأشقياءَ وجوهُهُم مسودة تعلوها غبرة وظلمة.

١٢ ـ أنَّ سببَ ذلك كفرُهُم بالله ورسله، وفجورُهُم باقتراف سيِّئِ الأعمال.

١٣ ـ أنَّ سببَ السّعادةِ الإيمانُ والعملُ الصالح، كما تقتضيه المقابلة بين وجوه السعداء والأشقياء.

١٤ ـ تركُ التَّعرضِ في الآيات لعُصاة الموحِّدين؛ لأنهم مُخلِّطون، وفي ذلك إِطْماعٌ لهم وترهيب، وهم تحت مشيئة الله؛ إنْ شاء عذَّبهم، وإن شاء غَفر لهم، وليس في هذا التَّرك حُجَّةٌ للمُرجئة ولا للخوارج، وقد دلَّ القرآنُ والسُّنة على أنهم فريقٌ ثالث، خلَطوا عملًا صالحًا وآخرَ سيِّئا، فقام بهم مُقْتضي الثَّوَاب ومُقتضي العقاب.





٤ ـ تفسير سورة التكوير

هذه السورة نصفُها في وصف أحداث القيامة وخرابِ العالم، ونصفها الآخَرُ في أمر الرسالة وثبوتِ صدق الوحي؛ فأمّا ما يتعلق بالقيامة فهو أربعَ عشرة آية، وقد ثبت مِنْ حديث ابن عمر أنَّ النبي ﷺ قال: «**من سَرَّه أنْ ينظر إلى يوم القيامة كأنه رَأْيُ عينٍ فلْيقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**»[١].

الآيات:

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير].

التفسير:

قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾؛ أي: لُفَّت وجُمع بعضها إلى بعض، حتى ذهب ضوءُها، كما تُكوَّر العِمامة على الرأس، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾؛ أي: انقضَّت وتساقطت من السماء، فذهب نورها، كما

(١) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وقال: «حسن غريب»، وقال ابن حجر «فتح الباري» (٨/ ٦٩٥): «حديثٌ جَيِّد»، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ [المرسلات].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ عن أماكنها فكانت سرابًا، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ وهي النُّوق الحوامل التي مرَّ على حملها عشرةُ أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السَّنَة، جمع عُشَراء؛ مثل: نِفاس جمع نُفَساء، ولا نظير لهما في اللغة، ﴿عُطِّلَتْ ۝٤﴾؛ أي: تركت بلا راعٍ، وأَهْملها أهلُهَا، وخُصت العشار بالذكر؛ لأنها أنفس الأموال عند العرب، فلا تعطل إلا من شدة الهول.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ جمع وحش، وهو غير المستأنس مِن حيوان البرِّ، والمراد جميع الدواب، ﴿حُشِرَتْ ۝٥﴾؛ أي: جمعت ثم أميتت، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾؛ أي: أُوقدت فصارت نارًا، مِن قولهم: سجَرتُ التنور، وسجَّرتُه؛ إذا أحميتَه، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر]، وهذه الأحداث تكون قبل البعث.

ثم ذَكَر ما يكون بعد البعث، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾؛ أي: قُرن كلُّ نظير بنظيره، فيُضَم الصّالحُ إلى الصالح، والفاسقُ إلى الفاسق، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ [الواقعة]، وقال سبحانه: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢﴾ [الصافات].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾؛ أي: الطفلة المدفونة حيَّة، وكان أحياء من العرب في الجاهلية يقتلون البنات بدفنهن في التراب خوف الفقر أو العار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾، أي: تُسأل الموؤدة: لم قُتلتِ ودُفنتِ حيَّة؟ فلا ذنب لها في الحقيقة، ولكن في ذلك السؤال توبيخٌ لقاتلها وتقريع، فإنَّ المجنيَّ

عليه إذا سئل بحضور الجاني عنْ سبب الجناية كان ذلك أدعى لتبكيته، وأكملَ في افتضاحه. وقريبٌ من هذا سؤال عيسى عليه السلام عمَّن عبدوه لتبكيتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ هي صحائف الأعمال، تنشر عند الحساب، أي: تفتح وتبسط لتقرأ بعد أن كانت مطوية بموت صاحبها، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾؛ أي: قُلعت وأزيلت كما يكشط الجلد عن الذبيحة.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: أوقدت إيقادًا شديدًا، والتشديد في ﴿سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ للمبالغة، ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: قُرِّبت لأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الشعراء]، ولم يذكر بروز الجحيم في مقابل إزلاف الجنة، بل ذكر بدله التسعير وهو أشد تهويلًا من ذلك، وتكرار (إذا) في الآيات لتأكيد التهويل.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: علمت كل نفس ما أحضرت في صحائفها من عمل، خيرًا كان أو شرًّا، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، و﴿نَفْسٌ﴾ نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ هو جواب ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ وما بعدها؛ أي إذا حصل هذا كلُّهُ حصل هذا، فالمراد زمنٌ واحد ممتد يَسَعُ هذه المذكورات، وليس المراد: علمت ما أحضرت إذا كورت الشمس، وتَعْلَمْه إذا انكدرت النجوم، إلخ، بل المراد إذا تم ذلك كله عَلِمَت.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أحداث القيامة تشمل العالم العلوي والسفلي.

٢ ـ من هذه الأحداث تكوير الشمس، أي: جمع بعضها إلى بعض وذهاب ضوئها.

٣ ـ انكدار النجوم بتساقطها وتغيرها وطمس ضوئها.

٤ ـ تسيير الجبال عن أماكنها بعد رسوها وثباتها.

٥ ـ ترك نفائس المال لعظم الهول، ومنها العشار، وهي الإبل الحوامل التي أوشك وضعها للحمل.

٦ ـ حشر الوحوش، وهي البهائم، أي: جمعها لموتها.

٧ ـ تسجير البحار، أي: إيقادها نارًا، وهذا أولى ما فسِّرت به.

٨ ـ قرن النفوس كلٌّ مع شكله.

٩ ـ سؤال الموؤدة عن سبب قتلها؛ توبيخا لقاتلها.

١٠ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾؛ لأن في ذلك توبيخًا لوائدها، فقوله: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ استفهامٌ معناه نفيُ أنْ يكون لقَتْلها سببٌ مِن جهتها، مما يدل على أن قتلها محضُ الظلم والعدوان والجهل.

ولا دلالة في الآية على حُكْم الموؤودة: أهي في الجنة أم في النار، خلافًا لمن فهم مِنَ الآية أنَّ أطفال المشركين في الجنة.

١١ ـ تحريم وأد البنات، والتنفير عنه، ووعيد فاعله.

١٢ ـ نشر صحائف الأعمال ليقرأ كلٌّ ما فيها مما أُحصي عليه.

١٣ ـ كشط السماء، وهو زوالها بعد أن صارت واهية ومتلونة.

١٤ ـ الرد على الفلاسفة في زعمهم دوام هذا العالم، وأن الأفلاك ـ وهي السماوات ـ لا تقبل الانشقاق والزوال.

١٥ ـ تسعير النار، وهو إيقادها تهيئة لأهلها، وفي هذا وعيد لهم.

١٦ ـ تقريب الجنة حتى يراها أهلها، وفي هذا وعد وبشارة لهم.

١٧ ـ عِلْم الإنسان في ذلك اليوم بما أُحْضر له من عمله.

١٨ ـ إحصاء أعمال العباد، ثم وقفهم عليها.

١٩ ـ أن من هذه الأحداث ما يكون قبل البعث، ومنها ما يكون بعد البعث.

٢٠ ـ أنَّ هذه الأحداثَ العظام بفعل الله تعالى. وبناءُ هذه الأفعال للمفعول للعلم بالفاعل، وليتحقق نظم الكلام.

***

ولما كان الحديث في أول السورة عن المعاد وما سيكون من الأحداث يوم القيامة، وكان طريق العلم بذلك هو الوحي = أقسم الله على أن القرآن قول رسول كريم أمين من الملائكة، نزل به ليبلغه إلى رسول كريم من الناس، فقال سبحانه:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير].

۞ التفسير:

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ الفاء للتفريع، حيث فُرِّع على ما تقدم إثباتُ إنزال القرآن من الله الذي هو طريق الإخبار بذلك كله، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾؛ أي: أقسم، و﴿لَا﴾ زائدة لتأكيد القسم، على طريقة العرب في ذلك، قال امرؤ القيس:

فلا ـ وأبيكِ ـ ابنةَ العامريِّ لايدَّعي القومُ أنِّي أفِرّ[1]

أي: وأبيكِ.

وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾ الخُنَّس: جمع خانس، كراكع ورُكَّع، أي: النجوم التي تَخنِس بالنهار، أي يختفي ضوءُها لضوء الشمس، ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي النجوم، ﴿ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ جمع كانس، أي التي تكنِس؛ أي: تستتر في مغيبها، كما يأوي الظبي إلى كِناسه، وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، ففي الكلام مجاز تشبيهي.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾؛ أي: أدبر، وهذا قول أكثر المفسرين، وقيل: ﴿عَسۡعَسَ ۝١٧﴾: أقبل؛ لأن اللفظ من قبيل المشتَرك، ورُجح الثاني لمطابقته ما بعده، وهو قوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾، ولا يبعد أن يكون المعنيان مقصودين، لعدم تعارضهما، ولكلٍ منهما شاهد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر]، فيكون الله مقسمًا بالليل مقبلًا ومدبرًا.

وقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾؛ أي: إذا طلع وانتشر ضوءُه، وأصل التنفس خروج النَّفَس من جوف الحيوان، شبه طلوعَ النور من

---

(١) ديوانه (١٥٤).

المشرق قليلًا قليلًا بخروج النَّفَس من الجوف شيئًا فشيئًا، ثم اسْتُعير اللفظ الدَّال على المشبه به للمشبه.

وإقسامه تعالى بهذه المخلوقات العظيمة؛ لما فيها من الدلالة على بديع حكمته تعالى وعظيم قدرته، وعِظَمُ المقسم به يدل على عِظَمِ المقسم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ـ وهو معلوم من السياق، وإن لم يجر له ذكر ـ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ هو جبريل عليه السلام، وأضاف القول إليه؛ لأنه الذي نزل بالقرآن، فإضافة القول إليه إضافة تبليغ، ووصفه بالرسول لإفادة ذلك، ﴿كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: كريم عند ربه، وكريم في خُلُقه وفي خَلْقه، فهو حسَنُ الأخلاق بهيُّ الطلعة، كما قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [النجم]، أي: ذو منظرٍ حسَن، في أحد التفسيرين.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ عظيمةٍ على كل ما يُؤمر به، وقد وصفه الله في سورة النجم بأنه شديد القوى، ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: ذي منزلة عالية وشرف عند الله عز وجل، و(مَكِين) صفة مشبهة مِن مَكُن فلانٌ يمكُن فهو مكين، من باب كرُم، و(ذو العرش) هو الله عز وجل؛ أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات وأوسعُها، موصوفٌ بالمجد والكرم والعظمة، وهو فوق السماوات؛ كالقبة، والله فوق العرش، والعندية عندية مكان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٦].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: مطاع هناك في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة، ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ على الوحي؛ فلا يخون ولا يكتم شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء].

ولما وصف الله الرسول مِن الملائكة جبريلَ عليه السلام بهذه الأوصاف

الجليلة نـزَّه الرسول من البشر عما وصفه به المشركون، فقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾؛ أي: محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا عطف على جواب القسم، أي: أقسم بالأشياء المذكورة إنَّ صاحبكم ليس ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ كما تفترون، وفي إضافة الصحبة إليهم تكذيب لهم، فهو إشارة إلى أنهم أدرى الناس برجاحة عقله وأمانته ومحاسن شمائله؛ إذْ أقام بينهم في مكة أربعين سنة قبل النبوة، وكانوا يلقبونه الأمين.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لقد رأى صاحبُكم محمدٌ جبريلَ على الصورة التي خلق عليها، وله سِتُّمِئةِ جناح، سادًّا عُظْمَ خَلْقه ما بين السماء إلى الأرض ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: بأفق السماء الأعلى البيِّن الواضح، وذُكر أنه من جهة المشرق.

﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: على الوحي الذي جاءه من الله ﴿بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ بالضاد المعجمة، أي: ليس ببخيل؛ مِن الضِّن ـ بالكسر ـ بمعنى البخل، فلا يبخل عليه الصلاة والسلام بما عنده من الوحي، ولا يُقصِّر في التبليغ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب **(بظنين)** مِن الظِّنَّة؛ بالظاء المشالة، أي: ليس بمتهم على الوحي، فلا ينقص منه ولا يزيد فيه، واختلاف معنى الكلمة في القرآن باختلاف بعض حروفها في القراءات معدودٌ من بلاغة القرآن، حتى تكون الآية على القراءتين بمنزلة آيتين.

﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: القرآن، ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: ليس بقول شيطان مرجوم مبعد عن الرحمة، بل هو كلام رب العالمين، وفي هذا رد لقولهم: إنه سحر وكهانة.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أيْ: فأيَّ طريق تسلكون بعد هذا القرآن؟! وفي

الاستفهام استضلال لهم وتوبيخ، ﴿إِنْ هُوَ﴾؛ أي: القرآن، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٢٧﴾؛ أي: تذكير لهم وواعظ يعظهم بكل ما ينفعهم من أمور الدنيا والآخرة، وهو من التعبير بالمصدر عن اسم الفاعل، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ هذا بدلُ بعضٍ مِنْ كُلّ، فهو تخصيصٌ بعد تعميم، أي: إنما يتعظ بالقرآن من أراد الاستقامة على الإيمان والعمل الصالح، وفي هذا حثٌّ على طلب أسباب الهداية، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامةَ والإيمانَ، ولا تقدرون على ذلك ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾؛ أي: إلا بمشيئة الله تعالى، الذي هو ربُّ كلِّ شيء ومليكُه، فله الملك والتدبير لأمر العبيد، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وهو الحكيم العليم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من صفاته تعالى الفعلية الإقسام.

٢ ـ أن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله.

٣ ـ إقسام الله بالخُنَّس، وهي النُّجوم إذا اختفت بالنهار، لدلالة ذلك على قدرته سبحانه.

٤ ـ أن النجوم تجري، أي تدور وتنتقل من الشرق إلى الغرب، وذلك من دلائل قدرته سبحانه، وقيل لها كُنَّس؛ لأنها إذا غربت تغيب عن الأنظار، فكأنها دخلت في كِناس لها، كالظبي إذا أوى إلى كِناسه.

٥ ـ إقسام الله بالليل إذا عسعس؛ أي: أقبل، وقيل: أدبر. وكُلٌّ منهما آيةٌ على قدرته سبحانه، ونعمةٌ منه على عباده.

٦ ـ إقسام الله بالصبح إذا انشق في ظلام الليل يبشر بالنهار.

٧ ـ أن الليل والنهار والإصباح والإمساء من آيات الله ونعمه العظيمة.

٨ ـ أن الغاية من هذه الأقسام تصديق الوحي الذي جاء به الرسول من الملائكة، وهو جبريل عليه السلام.

٩ ـ أن الذي جاء بالقرآن ونزل به على الرسول ﷺ هو جبريل عليه السلام.

١٠ ـ جواز إضافة القرآن إلى الرسول من الملائكة، وهي إضافة تبليغ لا إضافة ابتداء، والكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

١١ ـ أن جبريل هو الرسول الموكل بالوحي، والله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس.

١٢ ـ عظم منزلة جبريل عليه السلام بين الملائكة، فهو أفضلهم.

١٣ ـ علو قدر جبريل عند الله، لقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

١٤ ـ أن جبريل عليه السلام يأمر الملائكة بما أمره الله به فتطيعه الملائكة.

١٥ ـ ثناء الله على جبريل بسبع صفات؛ وهي: الرسالة، والكرم، والقوة، والقرب من الله، والمنزلة العالية، والطاعة، والأمانة. والكرم هو حُسن الصورة وحسن الخُلُق، والقوة ضد الضعف، وقد وصف جبريل في سورة النجم بأنه شديد القوى.

ومع هذه الصفات الجليلة لجبريل عليه السلام فليس في الآيات دليل على تفضيل جبريل على النبي محمد ﷺ، كما زعمه بعضهم، اعتمادًا على الاقتصار في صفة النبي ﷺ على الصفات السلبية الثلاث: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم

بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، وذلك لأمور:

١ ـ أن ما وُصف به جبريل عليه السلام وصف به محمد ﷺ؛ من الرسالة والكرم والطاعة والأمانة وعلو المنزلة عند الله.

٢ ـ أن نفي تلك الصفات جاء ردًا على المشركين الذين وصفوا الرسول بالجنون، وبأنَّ الذي يأتيه شيطان، وأنه ليس على يقين بما جاء به.

٣ ـ أن ما وُصف به جبريل من تلك الصفات العظيمة تأكيد لصدقه ﷺ، وأنه لم يتلق الوحي من شيطان بل من أفضل الملائكة، فتضمنت الآيات تقرير الحق ونفي الباطل.

١٦ ـ الرد على غلاة الرافضة الذين يزعمون أن جبريل خان، فحول الرسالة عن علي رضي الله عنه إلى محمد ﷺ.

١٧ ـ عِظم شأن المقسم عليه، وهو القرآن؛ لإقسام الله بعظيم آياته الظاهرة من إدبار الليل وبزوغ الفجر، وفي هذا ـ والله أعلم ـ إشارة إلى أن نزول القرآن بما فيه من الضياء كالفجر، وبه يدبر ليل الجهل، وأما إقسامه تعالى بالخُنَّس، وهي النجوم، فمناسبته أنها التي يُهتدى بها، وتُرجم بها الشياطين، والمعنيان متحققان في القرآن.

١٨ ـ فضل القرآن وعِظمُ شأنه، يدل لهذا ثناء الله على جبريل ـ وهو الموكل بتنزيل القرآن ـ؛ فإنه لا يُوكَّلُ العظيم إلا بعظيم.

١٩ ـ تنزيه الرسول ﷺ عمَّا رماه به المشركون من الجنون.

٢٠ ـ تعيين الرسول ﷺ في هذا التنزيه، في قوله: ﴿صَاحِبُكُم﴾.

٢١ ـ رؤية النبي ﷺ لجبريل على هيئته التي خُلق عليها، له ستُّمئة جناح قد سد الأفق، وهذه إحدى المرتين اللتين رآه فيها. والأخرى في

السماء ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم].

٢٢ ـ تلقي النبيِّ ﷺ الوحْيَ عن جبريل عليه السلام.

٢٣ ـ تنزيه الرسولِ ﷺ عنِ البخل بعلم الغيب الذي جاءه؛ لقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤﴾، على قراءتها بالضاد المعجمة.

٢٤ ـ أنه على يقين مما جاء به من العلم لا يظن ظنًا، لقوله: (بِظَنِيْن) على قراءتها بالظاء المشالة.

٢٥ ـ تنزيه القرآن عن تنزل الشيطان به، وأن يكون من قوله.

٢٦ ـ أن الشيطان مبعَد عن رحمة الله وهداه، وهو معنى رجيم؛ أي: مرجوم.

٢٧ ـ أن كلَّ ما قاله المشركون في القرآن والرسول باطل، فلا مذهبٌ من مذاهبهم يصح؛ لأنها عدول عن الصواب، وهو الإيمان بالقرآن؛ لقوله: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦﴾، والاستفهام للتوبيخ.

٢٨ ـ تقرير القول الحق في القرآن بأنه تذكير للعالمين.

٢٩ ـ عموم رسالة محمد ﷺ.

٣٠ ـ أن المنتفعين بالقرآن هم أهل الاستقامة.

٣١ ـ إثبات مشيئة العبد في الخير والإيمان، وكذلك الشر والكفر، والرد على الجبرية.

٣٢ ـ توقف مشيئة العبد على مشيئة الله، والردّ على القدرية.

٣٣ ـ إثبات عموم ربوبيته تعالى، فلا خروج لشيء عنها.





٥ ـ تفسير سورة الانفطار

هذه السورة مكية، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأيُ عينٍ فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**»[١]، وسورة الانفطار متمحضة لشأن القيامة، وتقريرِ عقيدة البعث والجزاء، فإن المعنى إذا تكرر واختلفت صور عرضه ازداد رسوخًا في القلب، وحضورًا في الذهن.

وآيات السورة تنقسم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو خمس آيات (١ ـ ٥) في أحداث القيامة التي تسبق الجزاء.

الثاني: وهو سبع آيات (٦ ـ ١٢) في توبيخ المكذبين بالبعث، وذكرِ الحُجة عليهم بخلق الإنسان وتصويره، وتهديدهم بإحصاء أعمالهم عليهم.

الثالث: وهو سبع آيات (١٣ ـ ١٩) في ذكر الجزاء، ومصير المؤمنين الأبرار، ومصير المكذبين الفجار، وأنه لا يملك أحد لأحد شيئًا، وأن الأمر كله لله.

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة التكوير.

الآيات:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار].

التفسير:

قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾؛ أي: انشقت، والانفطار هو الانشقاق، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق]، وانشقاقها لنزول الملائكة، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان].

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ﴾؛ أي: النجوم التي في السماء ﴿ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾؛ أي: تساقطت وتفرقت واختل نظامها، ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾؛ أي: فُجِّر بعضها في بعض، وزالت الحواجز التي بينها، فاختلط مِلْحُها بعذبها، ثم ذهب ماؤها، وأوقدت نارًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير]، هذا حاصل ما جاء عن السلف في الآيتين.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾؛ أي: قُلب ترابها؛ ليخرج من كان فيها من الموتى، وفي سورة العاديات قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩﴾ [العاديات]، أسند الفعل في سورة العاديات إلى ما في القبور، وهو مِن وضع الحالِّ موضع المحلِّ، وعليه فإسناد البعثرة إلى القبور حقيقة، كما في سورة الانفطار، وإلى ما فيها مجاز، كما في العاديات.

وإذا حصلت هذه الأمور الأربعة التي بها ذهاب الدنيا وقيام الساعة، وهي: انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور = ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾؛ أي: كلُّ نفس، وهذا جواب ﴿إِذَا﴾، ﴿مَّا

قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾؛ أي: علمتْ جميعَ ما قدمت مِن الأعمال من خير أو شر، وما أخَّرته فلم تعمله، فينعم العاملون وييأس المفرطون.

وافتتاح السورة بـ(إذا) الشرطية مكررةً مع أربعة من أحداث القيامة يشوِّق إلى معرفة الجواب؛ لأن النفوس تتطلع إلى معرفة جواب الشرط، حتى إذا أصابته استقر المعنى في النفس، مع ما يفيده تكرار (إذا) من تهويل ما دخلت عليه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أحداث القيامة تشمل العالم العلوي والسفلي.

٢ ـ أن من الأحداث الغلوية انفطار السماء، وهو انشقاقها بعد أن كانت محكمة، وهذا أحد أحوالها، وأول ما يطرأ عليها من التغير.

٣ ـ أن السماء جِرم يقبل الانشقاق، لا كالهواء.

٤ ـ أن من أحداث القيامة انتثار الكواكب، أي: اختلال نظامها، وتفرق ذواتها.

٥ ـ أن البحار تفجر يوم القيامة، ويذهب ماؤها.

٦ ـ بعثرة القبور يوم القيامة، أي: إثارتها وشقها لبعث الأموات.

٧ ـ أن هذه الأحداث ـ والله أعلم ـ تقع على هذا الترتيب؛ أولها: انفطار السموات، وآخرها: بعث الأموات من القبور.

٨ ـ أن كل نفس يوم القيامة تعلم ما قدمت وأخرت من الأعمال، وما فعلت وما تركت منها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

٩ ـ إحصاء أعمال العباد عليهم، وعرضها عليهم في كتاب.

ولما أخبر الله عن أحداث القيامة والبعث والنشور خاطب الكافر بما فيه توبيخه وتقريعه وتذكيره بنعم الله عليه في خلقه، وفي ضمن ذلك التذكير بقدرة الله على البعث، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾؛ أي: الكافر المكذب بالبعث، كما هو الغالب في السور المكية؛ أن الإنسان يقصد به الكافر، ونداؤه بهذه الصيغة ﴿يَا أَيُّهَا﴾؛ للتنبيه إلى أهمية ما يأتي، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ أيُّ شيءٍ خدعك وجرَّأك على الكفر بربك الكريم الكثير الخير؟! وهو ـ تعالى ـ الذي حقه أن يقابل بالطاعة والشكر، لا بالمعصية والكفر(١).

---

(١) رُفع لشيخنا الشيخ عبد الرحمٰن البراك سؤال عن معنى الباء في قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾، وقد أجاب شيخنا على عادته بجواب محرر، أحببت أن أتحف القراء به، وذلك لقلة مَن تعرض لهذه الباء من المفسرين بهذا التفصيل الذي ستراه.

يقول شيخنا في الجواب بعد المقدمة: «أما بعد: فالذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن تكون الباء في قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ بمعنى (عَن)، كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان]، أي: فاسأل عنه خبيرًا، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾: ما الذي غرَّك عن ربك؟، أي: ما الذي خدَعك فصرفك عن ربك، فكفرت به وكذبت بوعده، وهو الذي خلقك فسوَّاك فعدلك؟

وقد بين سبحانه أن الذي غرَّ الإنسان هو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر].

ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن تكون الباء بمعنى (مِن)؛ فقد ذكر بعض أهل العربية أن =

والخطاب وإن كان للمكذب فإنه يتناول المؤمن العاصي، كما كان السلف يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، وكان مقتضى التوبيخ ذكر العقاب، ولكنه ـ تعالى ـ ذكرَ اسمه (الكريم) زيادةً في التوبيخ، فإن العاقل يقبح منه أن يعصيَ ذا النعماء عليه ومَنْ شأنُه الكرم.

ثم ذكر سبحانه الدليل على ربوبيته وكرمه، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾؛ أي: أوجدك بعد العدم، ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾؛ أي: جعلك سويَّ الخِلقة، معتدلَ القامة، متناسب الأعضاء، فليست يدٌ أطولَ مِن أخرى، ولا عينٌ أوسع مِن أخرى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف (الدال) مِن ﴿عَدَلَكَ﴾ وقراءة الجمهور بتشديدها.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[1] المعنى: ركَّبك في أيِّ صورة

= الباء تأتي بمعنى (مِن)، وذكروه في بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، أي: منها، ولعل هذه الآية المسؤول عنها من هذا القبيل؛ فيكون المعنى: أيُّ شيء غرك من ربك ـ أيها الإنسان ـ أكَرمُه وإنعامه؟ أم حلمه وستره؟ كما يشعر به ذكر اسمه تعالى الكريم؛ فمن القبيح في العقل والدين أن يكون الإحسان سببًا للكفران بالجحد والإشراك.

فتبين مما تقدم أن الفعل (غرَّ) يتعدى إلى المفعول بنفسه، وإلى المعمول الذي بعده بالباء بمعنى (عن)، أو بمعنى (مِن)، وقد جاء في الشعر تعديتُه بمِن، كقول الكِنديِّ:

أغَـرَّكِ مـنـي أنّ حُـبّـكِ قـاتِـلـي ... وَأنّكِ مهـما تأمُري القَلبَ يَفْعَلِ

والله أعلم. وصلى الله وسلم على محمد».

(١) اختلف المفسرون والمعربون في إعراب هذه الآية وارتباطها بما قبلها، والأظهر ـ والله أعلم ـ أنها جملة مستأنفة؛ أي: ركبك الله أيها الإنسان في أي صورة شاءها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، وعلى هذا فإعرابها: الجار والمجرور (في أيِّ صورة) متعلق بالفعل (ركبك)، و(ما) صلة، =

شاءها مِن الصور المختلفة؛ من الطول والقصر واللون والذكورة والأنوثة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦]، و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا شَآءَ﴾ مزيدةٌ لتأكيد عموم الصورة.

وفي الآية: التنبيهُ إلى البعث، فمن كان قادرًا على ذلك بدءًا قدر عليه إعادة. ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾ ردعٌ للكفار وزجر، أي: لا تؤمنون بالله ولا بالبعث، بل تكذبون بالدين، أي: بالجزاء والحساب، و(بل) حرف إضراب يفيد الانتقال من موضوع إلى موضوع. ومجيء ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بصيغة المضارع يفيد تجدد التكذيب منهم وتكرره.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ الواو للحال، أي: والحال أن عليكم حافظين من الملائكة، يحفظون أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: موصوفين بالكرم من كل وجه؛ في أفعالهم وأخلاقهم وفي خِلقتهم، ﴿كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: يكتبون أعمالكم كلها، ويحصونها عليكم، فلا يزيدون فيها شيئًا ولا ينقصون منها، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يعلمون جميع أعمالكم، فلا يفوتهم مِن ذلك شيء، حتى النِّيات وأعمال القلوب يطَّلعون عليها، ومصداق ذلك ما ثبت في السُّنَّة أن العبد إذا همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها وعملها كُتبت له عشر حسنات، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومَن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة، فإنْ هو همَّ بها فعملها كُتبت سيئة واحدة[1].

= وجملة (شاء) صفة لـِ (صورة)، والتقدير: في أيِّ صورة شاءها سبحانه. فيكون معنى الكلام: ركبك الله فيما شاء من الصور، فالتعديل مشترك بين أجناس الإنسان وأفراده، والصور مختلفة، والله أعلم.

(١) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٠٧).

الفوائد والأحكام:

١ ـ توبيخ الله للإنسان المكذب بالبعث والجزاء على اغتراره بحلم الله وإمهاله.

٢ ـ تغليظ التوبيخ بتوجيه الخطاب للإنسان الكافر، وبذكر ربوبيته سبحانه وكرمه، وبدء خلقه للإنسان، وإحسان خلقه.

٣ ـ أن الكافر بالله مغرور من الشيطان ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد].

٤ ـ إثبات ربوبيته سبحانه العامة.

٥ ـ أن من أسمائه تعالى الكريم، ومن صفاته الكرم بكل معانيه.

٦ ـ أن الله هو الخالق البارئ المصور للإنسان في رحم أمه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦].

٧ ـ أن مِن نِعم الله على الإنسان اعتدال قامته، وهو ما تفيده القراءتان في ﴿فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ بتشديد الدال وتخفيفها.

٨ ـ إثبات مشيئة الله.

٩ ـ أن مَرَدَّ الاختلاف في الصور في بني الإنسان إلى مشيئة الله.

١٠ ـ أن الله تعالى هو المركِّب لخلق الإنسان، والمصور لصورته.

١١ ـ زجر المكذبين بالدين (وهو الجزاء).

١٢ ـ توكيل الله لبعض ملائكته في إحصاء عمل المكلفين.

١٣ ـ أن من أصناف الملائكة: الموكلين بحفظ أعمال العباد.

١٤ ـ فضل هؤلاء الملائكة، وثناء الله عليهم بحفظ ما وُكِّلوا به.

١٥ ـ ثناء الله على الملائكة بالكرم.

١٦ ـ أن حفظ الملائكة لأعمال المكلفين يكون بكتابتها.

١٧ ـ أن حفظ الملائكة لأعمال المكلفين صادر عن علم؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾.

١٨ ـ علم الملائكة للكتابة، وقدرتهم عليها.

١٩ ـ فضل العلم بالكتابة.

٢٠ ـ علم الملائكة الموكلين بالعباد بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة؛ حتى أعمال القلوب مِن الإرادات والعزمات، والهمِّ بالحسنات أو السيئات.

٢١ ـ إثبات أفعال العباد، والردُّ على الجبرية؛ لقوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾.

***

ولما وصف تعالى الكرام الكاتبين لأعمال العباد ذكرَ أحوال العاملين، وما أعدَّ لهم من الجزاء خيرًا أو شرًّا، على اختلاف أحوالهم، وذلك عاقبةُ ما حفظته الملائكة وكتبوه، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار].

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بَـرٍّ؛ وهم المؤمنون المتقون، الذي عملوا بطاعة الله واجتنبوا معصيته، ﴿لَفِى نَعِيمٍ ١٣﴾؛ أي: في الجنة، يتنعمون فيها بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، والتأكيد بـ (إنَّ) واللام؛ لأنه مقام وعد.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ وهم الكفار المجرمون المكذبون بيوم الدين ﴿لَفِى

جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: في جهنم، وأصل الجحيم النار العظيمة المستحكمة، يقال: «جحَمتِ النَّار» تجْحَمُ، فهي جاحمة وجحيم.

وهذا الوعد والوعيد للفريقين شامل لحالهم في الدنيا والآخرة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ هذا في دورهم الثلاث، ليس مختصًا بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك»(١).

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ أي: يدخلونها ويقاسون عذابها؛ فـ (الصَّلْيُ) دخول النار مع ذوق حرِّها، فالصَّلْي أخصُّ مِن الدخول وأبلغ في الوعيد، ﴿يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة العظيم الذي كذبوا به، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾؛ أي: عن الجحيم ﴿بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: لا يغيبون عنها، بل لا بد من دخولهم فيها، وإذا دخلوها فلا يخرجون منها، ثم لا ينقطع عنهم العذاب لا بخروج ولا بموت.

وفي هذا العرض للوعد والوعيد تقابل بين الأبرار والفجار وعاقبتهما من النعيم والجحيم.

ثم عظَّم الله شأن ذلك اليوم الذي يجازَون فيه، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: هو يوم عظيم هائل، لا تعلم كُنهه، ولم تر العيون مثله حتى يقاس عليه، ومهما قدَّرت فهو أعظم من ذلك، وهذا أسلوب معروف في كلامهم يقصدون به تهويل أمر الشيء المتحدَّث عنه، كأنه بعيد عن متناول العقول. والخطاب في الآية لكل مَن هو أهلٌ للخطاب.

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٢٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ هذا من الترقي في الكلام، فهو تعظيم بعد تعظيم، وتهويل بعد تهويل.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾؛ ﴿يَوۡمَ﴾ **قيل**: منصوب على المفعولية بفعل محذوف، تقديره: أعني أو اذكر.

وقيل: بيان أو بدل من (يوم) في قوله: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾، وهو وجه حسن، ولا يحتاج إلى تقدير محذوف، ويكون قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ اعتراضًا بين البدل والمبدل لتعظيم ذلك اليوم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع (يوم) في قوله: ﴿يَوۡمُ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ على أنه خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: هو يوم ....، أو على البدل مِن (يومُ الدين) في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾.

ومعنى قوله: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي: في ذلك اليوم لا تقدر نفسٌ أن تنفع نفسًا بشيء، ولو قليلًا، ولا أن تدفع عنها شيئًا، وهذا عامٌّ في كل نفس، حتى الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله، ففي ذلك اليوم لا يستطيع أحدٌ أن ينفع أحدًا، ولهذا أكد المعنى بقوله: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ وحده، وليس لأحد سواه.

وتخصيص الأمر كلِّه لله في ذلك اليوم مع أن الأمر كلَّه لله في الدنيا والآخرة؛ لأن لبعض البشر ملْكًا وأمرًا في الدنيا، أما في الآخرة فلا أمر ولا ملك إلا لله وحده ﷻ، وشواهد هذا المعنى في القرآن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وفي الآيات حضٌّ للإنسان على العمل الصالح الذي يكون سببًا

لنجاته في ذلك اليوم العصيب، مع التوكل على الله القريب المجيب، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الجزاء على الحسنات والسيئات ثوابًا وعقابًا.

٢ ـ أن البِرَّ ـ وهو الإيمان والعمل الصالح ـ سببُ النعيم والسعادة في الدنيا والآخرة.

٣ ـ أن الفجور ـ وهو الكفر والفسوق والعصيان ـ سببُ الشقاء والجحيم في الدنيا والآخرة.

٤ ـ أن صَلْيَ الفجار الجحيم ودخولَهم النار إنما يكون يوم القيامة.

٥ ـ أن مِن أسماء اليوم الآخر يومَ الدين، سُمي بذلك؛ لأن الدين هو الجزاء، وهو يوم الجزاء.

٦ ـ أن الفجار لن يَغيبوا عما أُعِدّ لهم مِن النكال في الجحيم، بل هم محضرون.

٧ ـ أن يوم الدين عظيم بأهواله.

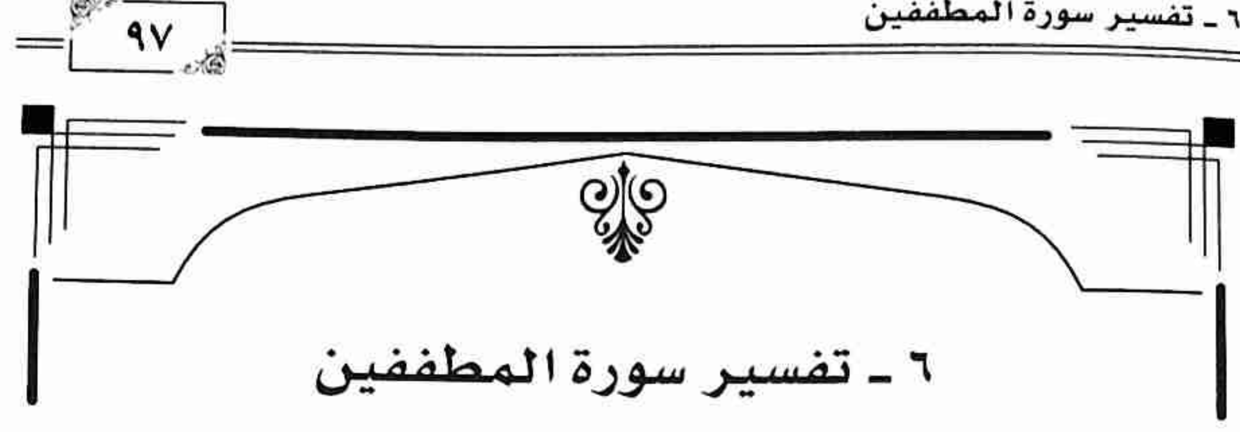
٨ ـ تأكيد الخبر بذلك؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

٩ ـ أنه لا يُغني أحدٌ في ذلك اليوم عن أحد، ولا يملك أحد نجاة أحد، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة]، إلا من أذن الله له في الشفاعة، لمن شاء من أهل التوحيد.

١٠ ـ أن الأمر كلّه يوم القيامة لله، والأمر كله لله في الدنيا

والآخرة، لكن في الآخرة ليس لأحد شيء من الأمر أو الملك؛ كما في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر].





٦ ـ تفسير سورة المطففين

سورة المطففين ـ وهي مكية على الأرجح، وهي ست وثلاثون آية ـ تضمنتِ الآياتُ الستُّ الأولى وعيدَ المطففين، وتوبيخَهُم، وتقبيحَ عملهم، والحاملَ لهم عليه.

كما تضمنتِ الآياتُ الإحدى عشرة بعدها ذكرَ وعيدِ الفجار، وهم الكفار المكذبون بالبعث وبالآيات، وفيها وصفُ حالهم ومصيرِهم يوم القيامة.

وتضمنت الآياتُ الإحدى عشرة بعدها بشارةَ الأبرار بعلو المنزلة وبالنعيم المقيم، وبالنظر إلى ربهم الكريم، فنعْمَتِ العاقبة، وذلك الفوز العظيم.

وتضمنت الآياتُ الثمانُ الأخيرة العودَ إلى الدُّنيا بذكر حال المجرمين (وهم الكافرون) مع المؤمنين في الدنيا؛ مِن ضحكهم منهم، وتغامزِهم إذا مرَّ بهم المؤمنون، وفرحِهم بما كان منهم من السخرية والتنقص للمؤمنين.

وفي الآيات موازنة بين حال الكفار مع المؤمنين في الدنيا، وحال المؤمنين مع الكفار في الآخرة، فبين الحالين تقابل؛ فالمضحوك منه في الدنيا هو الضاحك في الآخرة، والضاحك في الدنيا هو المضحوك منه في الآخرة.

الآيات:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين].

هذه الآيات تضمنت ذم المطففين، والدعاء عليهم، وبيان المراد بهم، وتوبيخهم على فعلهم القبيح، وقد روى النسائي في الكبرى وابن ماجه وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة، فكانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فحسَّنوا الكيل بعد ذلك[1].

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن السورة مدنية.

وذهب ابن مسعود والضحاك وغيرهما إلى أنها مكية، ويدل لذلك أن ما تضمنته السورة من المعاني؛ من التكذيب بالبعث والاستهزاء بالمؤمنين مناسبٌ لحال الكافرين.

وقيل: إن السورة نزلت بين مكة والمدينة.

التفسير:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾؛ أي: هلاك وعذاب شديد وخزي للمطففين، وأصل الويل الشر والهلاك، ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾؛ أي: الباخسين في الكيل والوزن، وأصل الـمُطفِّف هو الذي يأخذ الشيء الطفيف (أي: القليل التافه) بغير حقّ.

---

(١) السنن الكبرى (١١٧٦٦)، وابن ماجه (٢٢٢٣)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٣)، وابن حبان (١١/ ٢٨٦). وقال في «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٨١) على سند ابن ماجه: «هذا إسناد حسن؛ علي بن الحسين بن واقد مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات».

وإذا كان هذا الوعيد واقعًا على التطفيف، وهو أخذ الشيء القليل، فما بالك بمن يأخذ الكثير، ويسطو على الصغير والكبير؟!

ثم بيَّن حالهم وما استحقوا به الوعيد، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إذا قبضوا الذي لهم على الناس بالكيل ﴿يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾؛ أي: أخذوه وافيًا كاملًا لأنفسهم، فالاكتيال أخذ الحق من الغير، ويتعدى فعله بـ (مِن)، يقال: اكتلتُ منه الطعام؛ إذا أخذتَه منه، وعدي بـ (على) في الآية لأن المقبوض حقٌّ على المأخوذ منه.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾؛ أي: كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ ۝٣﴾؛ أي: يُنقِصون الكيل والوزن، يقال: كِلتُك وكِلتُ لك، ووزنتك ووزنت لك، كما يقال: نصحتك ونصحت لك، فهذه الأفعال ونحوُهَا تتعدى بنفسها، وتتعدى بحرف الجر.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ قد يقال: إنه لا عيب على مَن أخذ حقَّه وافيًا؟ فيقال: إن الوعيد في الآيات على المجموع؛ فهم في حال الأخذ يستوفون، وفي حال الإعطاء يبخسون ويَنقصون، فهؤلاء متوعدون بالعذاب العظيم.

ذُكِرَ أن أعرابيًّا قال لأحد الملوك: «قد سمعتَ ما قال الله في المطففين»، أراد بذلك أن المطفف قد توجَّهَ عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به، فما ظنك بنفسك، وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟!

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾؛ أي: ألا يعلم أولئك المطففون اللؤماء أنهم مبعوثون، والهمزة للإنكار عليهم وتوبيخهم، والتعجب من حالهم، وأشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد ذمًا لهم، ولبعد مرتبتهم في الشر.

وقيل: الظن في الآية على بابه، وأن مجرد ظن البعث كافٍ في مجانبة هذا الخلق الذميم.

﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾؛ أي: يبعثون في يوم عظيم، وهو يوم القيامة، فيجازون بأعمالهم، وفي ذلك تهديد شديد لهم، ووصفه تعالى لذلك اليوم بالعظيم؛ لما يكون فيه من الخطوب والأهوال التي يشيب لها الولدان؛ من الحساب، والجزاء، والجنة، النار، والصراط، والميزان، ودنو الشمس من الخلائق حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه، فهو ـ ورب الكعبة ـ يوم عصيب، ويوم عظيم.

وإن شيئًا عظَّمه الله فلا بد أن يكون في غاية العظم، ولهذا حذر الله عباده وأنذرهم ذلك اليوم، ووصفه بأوصاف كثيرة، وذكر ما يكون فيه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج] الآيات إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

وقوله ﷻ في هذه السورة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾؛ أي: يقومون من قبورهم للحساب بين يدي الله ﷻ، المطففون وغيرهم، ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾؛ أي: لأجل أمره تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم]، وقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس].

وذَكَر تعالى اسمَهُ بأنه ربُّ العالمين؛ لأنه يدل على أن العباد مملوكون له، وأنه القاهر فوقهم، وأن مصيرهم إليه، فيَقْتص مِن الظالم للمظلوم، فلا يَضيع شيءٌ من حقوق العباد، وذلك من آثار مقتضى ربوبيته لخلقه.

وهذه الآيات وإن كانت نازلة في وعيد المطففين فإنها عامَّة؛

فتشمل كلَّ مَن يظلم الناس بأكل أموالهم، وبخس حقوقهم، ولا سيما المستضعفين؛ كاليتامى، فكلُّ أولئك ينتظرون هذا اليوم العظيم.

قال الزمخشري: «في هذا الإنكار، والتعجيب، وكلمةِ الظَّن، ووصْفِ اليوم بالعظيم، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين، ووصفِ ذاته بربِّ العالمين = بيانٌ بليغٌ لعظم الذَّنْبِ وتفاقمِ الإثم في التطفيف، وفيما كان مثلَ حاله؛ مِن الحيف وتركِ القيام بالقسط والعمل على السَّويَّة والعدل في كلِّ أخذٍ وإعطاء، بل في كل قول وعمل»[1].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ جواز افتتاح الكلام بوعيد الظالمين.

٢ ـ الدعاء على المطففين بالويل، وهو الهلاك والدمار، وهذا يتضمن وعيدهم.

٣ ـ تحريم التطفيف في المكيال والميزان، وهو نقصهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، وذلك من قِبَل المؤدِّي للحق، وهو الإخسار في قوله: ﴿يُخْسِرُونَ ۝٣﴾؛ أي: يُخسِرون مَن كالُوا لهم أو وزنوا لهم بالنقص من حقهم في المكيل والموزون.

٤ ـ قُبح محاباة النفس مع ظلم الغير، فيستوفي حقَّه، ويُنْقِص حقَّ غيره.

٥ ـ مدح العدل في القضاء والاقتضاء.

٦ ـ التخويف بيوم البعث؛ للزجر عن التطفيف.

٧ ـ إثبات البعث.

---

(١) الكشاف: (٦/٣٣٦).

٨ ـ التوبيخ على إنكار البعث.

٩ ـ أن يوم القيامة يوم عظيم لما فيه من الأمور العظام.

١٠ ـ أن الناس يقومون مِن قبورهم يوم البعث، ولهذا سمي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

١١ ـ أن الناس يقومون من قبورهم استجابة لدعوة الله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم].

١٢ ـ إثبات ربوبية الله العامة.

١٣ ـ الرَّدُّ على منكري البعث.

١٤ ـ الرَّدُّ على أصحاب وحدة الوجود؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾؛ حيث فرَّق بين الخالق والمخلوق.

* * *

ولما ذكر يوم القيامة أتبعه بذكر ما يكون فيه من مصير الفجار والأبرار، وابتدأ بالفجار؛ لأن الحديث عنهم من أول السورة، فقال:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين].

التفسير:

قوله: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: حقًّا، وجَعَلَها بعضُهم للردع، والأول أظهر؛ لأنها موطِّئة للخبر المؤكَّد بعدها: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾؛ أي: مصيرَهُم

المكتوب ﴿لَفِي سِجِّينٍ ۝٧﴾؛ أي: في أسفل سافلين، أي: في قعر جهنم، بدليل مقابلته بعلِّيين، وجاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في المحتضَر: «**يقول الله** عز وجل [أي: في الكافر]: **اكتبوا كتابه في سجِّين في الأرض السفلى**»[(١)].

و﴿سِجِّينٍ ۝٧﴾ عَلمٌ على ذلك المكان المظلم الضيق، مأخوذ من السَّجْن؛ الذي هو الحبس والتضييق، وهو على صيغة المبالغة (فِعِّيل) للدلالة على تناهيه في الضِّيق والظلمة، وأنه لا رَوح فيه ولا سَعة، ولهذا عظَّم الله شأنه بالاستفهام، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾؛ أي: لا يُدرك هَولُه، فهذا الجملة الاستفهامية معترضة، فعلى هذا لا يكون قوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ جوابًا لقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾، ولكنه متعلق بـ﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾؛ أي: كتاب الفجار كتابٌ مرقوم، وهو كتابهم المكتوب فيه مصيرهم ﴿مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾؛ أي: مكتوب مفروغ منه، أُثبتت فيه جميع أعمالهم السيئة، فلا يزاد فيه ولا ينقص منه.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾؛ أي: عذاب عظيم في ذلك اليوم لهم، والتنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تنوين عِوض عن محذوف، أي: يوم إذْ يقوم الناس لرب العالمين، ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾؛ أي: يوم الجزاء والحساب، وسُمي يومَ الدين؛ لأن الله يَدين فيه العباد، أي: يجزيهم بأعمالهم، فيجب الإيمان بذلك اليوم إيمانًا جازمًا لا شك فيه، فمن كذب به أو شك فيه كفر.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الحاكم (١/ ٩٣). وقال ابن منده في كتاب الإيمان (٢/ ٩٦٣): «هذا إسناد متصل مشهور . . . وهو ثابت على رسم الجماعة»، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح».

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بيوم الدين، ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ ظالم متجاوز حدود الله ﴿أَثِيمٍ ۝١٢﴾ كثيرِ الآثام وعظيمها، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: القرآن، وأضاف الله الآيات إلى نفسه المقدسة؛ لأنها كلامه الذي أنزله، ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾؛ أي: هذا المكذب حين تتلى عليه آيات القرآن قال عنها: أساطير الأولين، أي: حكايات الغابرين، فلا يوثق بها، ولا يُعوَّل عليها في شيء، فلا تكون من عند الله بزعمه، وفيه إنكار النبوة أيضًا، والأساطير غلب استعمالها في الأباطيل، مفردها أُسطورة، فهذه ثلاث صفات وصف بها هذا الأثيم المكذب بيوم الدين.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للمعتدي الأثيم وتكذيبٌ لقوله، أي: لِيرتدعْ هذا الفاجر، فليس القرآن أساطير الأولين، بل وحيُ ربِّ العالمين، ولكن هؤلاء ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾؛ أي: غطَّى عليها وحجبها ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ من الذنوب والآثام، فهي متراكمة على قلوبهم مثل الصَّدأ، فهي لا تحب الخير ولا تقبل الحق ولا تتأثر بالقرآن، وفي معنى الآية قوله ﷺ: «**إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نَزَع واستغفر وتاب سُقل قلبه، وإنْ عاد زِيد فيها حتى تعلُوَ قلبَه، وهو الرَّان الذي ذكر الله**؛ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾»[1].

وقوله: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ﴾ قرأ حفص بسكتة خفيفة على لام ﴿بَلْ ۜ﴾؛ لتتبين اللام، وقرأ الجمهور بإدغام اللام في الراء بعد قلب اللام راءً؛ لتقارب مخرجيهما، قال سيبويه: والإدغام أحسن[2].

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: حقًّا ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الكتاب (٢/ ٤١٤) ط. بولاق.

يبعثون ﴿لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ فلا يرونه بخلاف المؤمنين؛ فإنه يرونه تعالى بأبصارهم وينظرون إليه، قال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية: لما حَجَب أعداءَه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه، وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لما حجب قومًا بالسخط، دل على أن قومًا يرونه بالرِّضا(١).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع حرمانهم من رؤية ربهم ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾؛ أي: داخلوها ومقاسو حرِّها، ولا ريب أن دخولهم النار بعد حجبهم عن رؤية ربهم يضاعِفُ عليهم العذاب والحسرة، ولذا جاء العطف بـ (ثم) الدالة على التراخي الرُّتَبي، فأفادت الترقي في الوعيد، ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾؛ أي: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فذوقوه الآن، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا﴾ الآية [الطور].

ويحتمل أنَّ قائل ذلك هم الملائكة خزنة جهنم، وليس ثمَّة ما يقتضي تعيين القائل، ولكن المقصود هو القول نفسه، فظهر بذلك أنهم يجتمع عليهم العذابان؛ الجسدي بالنار، والنفسي بالحجب والتوبيخ، نعوذ بالله من غضبه وعقابه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تأكيد وعيد الفجار.

٢ ـ الإشارة إلى أن المطففين من الفجار.

٣ ـ أن لكل فاجر كتابًا يتضمن ذكر مصيره.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٢٥٩).

٤ ـ أن الفجور ضد البر، للمقابلة بين الفجار والأبرار. كما في سورة الانفطار.

٥ ـ أنَّ مصير الفجار أسفلُ سافلين.

٦ ـ أن سجين أسفل سافلين.

٧ ـ تهويل أمر سجين.

٨ ـ أن من أسماء النار سجين.

٩ ـ أن كتاب الفجار حقيقي؛ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.

١٠ ـ تهديد المكذبين ووعيدُهم.

١١ ـ أن وعيدهم يَحل بهم في ذلك اليوم العظيم؛ لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

١٢ ـ أن من أسماء يوم القيامة (يوم الدين)، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة].

١٣ ـ أن التكذيب به من أنواع الفجور.

١٤ ـ وجوب الإيمان بيوم القيامة.

١٥ ـ أن المكذب بيوم القيامة مُعْتَدٍ لحدود الله، أثيم بمعاصي الله، مكذب بآيات الله.

١٦ ـ أن الأساطير هي الأكاذيب والأخبار التي لا أصل لها.

١٧ ـ أن حال المكذبين عند تلاوة القرآن ضد حال المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

١٨ ـ زجر المكذبين بآيات الله وردعهم.

١٩ ـ أن تكذيبهم للقرآن لا لخفاءٍ بحُجَجِه، بل لِـمَا غطى على قلوبهم مما كسبوه من أنواع المعاصي.

٢٠ ـ أن الأعمال السيئة سببٌ للشر والعذاب، ومثلها الأعمال الصالحة؛ فإنها سبب للخير والثواب.

٢١ ـ وعيد المكذبين بحجْبِهم عن ربهم يوم القيامة.

٢٢ ـ أن من أنواع العذاب الحجاب عن الله.

٢٣ ـ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، خلافَ حال المكذبين.

٢٤ ـ أن الله يُرى يوم القيامة.

٢٥ ـ أن من أنواع النعيم ـ وهو أعلاها ـ رؤية الله يوم القيامة.

٢٦ ـ إثبات ربوبية الله العامة.

٢٧ ـ أن منتهى المكذبين النار.

٢٨ ـ أن من أسمائها الجحيم.

٢٩ ـ توبيخ المكذبين على تكذيبهم.

٣٠ ـ الجمع لهم بين العذابين الحسي والمعنوي.

ولما ذكر تعالى كتاب الفجار ذكر بعده كتاب الأبرار؛ ليبين الفرق بين الكتابين وعاقبة الفريقين، وعلى طريقة القرآن في الجمع بين النذارة والبشارة، فقال سبحانه:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ﴾ حقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: مصيرَهم المكتوب، و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ جمع بَرٍّ ـ كرَبٍّ وأرباب، أو جمع بارٍّ كصاحب وأصحاب ـ وهو المؤمن الذي يعمل البر، أي: الذي أدى الطاعات وترك المحرمات، فإن البر إذا أُطلق شمل هذا كله، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار]، بخلاف ما إذا قُرن بالتقوى، فإن البِّرَ حينئذٍ يختص بفعل الطاعات، والتقوى باجتناب المحرمات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: في أعالي الجنة، فهو ارتفاع فوق تصور العقول؛ لأنهم بلغوا في الطاعة منزلة عظيمة، وعلى هذا؛ فـ (عليون) علمٌ على الجنة؛ لأنها في السماء، وهي درجات وأعلاها الفردوس التي سقفها عرش الرحمٰن، كما جاء في الحديث: «**فإذا سألتم اللهَ فسَلُوه الفردوس؛ فإنه أوسَطُ الجنَّة وأعلى الجنَّة، وفوقَهُ عرشُ الرحمٰن، ومنه تفجَّرُ أنهار الجنَّة**»[1].

فـ(عليون) على هذا التفسير اسمٌ لا واحدَ له من لفظه؛ مثل: عشرين وثلاثين، وجاء على هذه الصيغة للدلالة على علو الجنة وارتفاعها، وعلو أقدار أهلها، فكان الجزاء مناسبًا لأحوالهم وأعمالهم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: وما أعلمك، فهذا تفخيم لشأنه، أي: هو أعظم من أن يحيط به الوصف، ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: هو كتاب مرقوم، وهو كتاب الأبرار المكتوب فيه مصيرهم ﴿مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: مكتوب مفروغ منه، أثبت فيه مصيرهم، فلا يتغير ولا يتبدل، ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: يحضر كتابته المقربون؛ وهم الملائكة المقربون من كل سماء من السماوات السبع، وهؤلاء لهم عند الله مقام كريم، فشهودهم للكتاب يدل على عظم شأنه وشرف أهله.

ثم ذكر ما أعد لهم في الجنة من النعيم المقيم والثواب العظيم، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ (النعيم): مصدر بمعنى النعمة، أي: هم في نعمة عظيمة من جمال مظهر، ورفاهية عيش، وراحة بال، واطمئنان نفس، فالنعيم محيط بهم من كل جانب، ومن هذا النعيم أنهم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأرائك): جمع أريكة، وهي سرير مزخرف تُرخى عليه حَجَلتُه المتصلة به، وهي سترة تسدل على السرير من فاخر الثياب، وفيها أُبَّهة المجلس وجماله، فالأريكة اسم لمجموع السرير والحجَلة، فإذا لم يكن ثمة حجَلة فهو سرير، وجاء أن أهل الجنة يجلسون مع أزواجهم على الأرائك، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: إلى ربهم سبحانه، وينظرون وهم في مجالسهم تلك إلى ما يسرهم مما أعده الله لهم من النعيم، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، والآية تعم الأمرين، كما يدل عليه حذف المفعول مِن ﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: بهجة النعيم، والخطاب في ﴿تَعْرِفُ﴾ لغير مُعيَّن، أي: يدرك كلُّ مَن رآهم أنهم أهل نعمة، لما يُرَى على وجوههم من العافية والنعومة والحُسن والبِشْر، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس].

وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: من خمر خالصة لا

كدر فيها ولا غش، فيسقيهم خدمهم، وهذا من تمام النعيم، فهم لا يتكلفون عناء سقي أنفسهم، ولذا لم يقل: يشربون، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة]، ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ هذا تفسير لقوله: ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: آخره ونهايته مسكٌ تفوح رائحته، وفي قوله: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ إشارة إلى أنه وضع بقدر حاجة صاحبه فيشربه كله، فهو يتلذذ بآخره كما تلذذ بأوله.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيم العظيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: فليتسابق المتسابقون، وليعملوا بطاعة الله ليدركوا هذا النعيم فلا يفوتهم، والتنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذي تطلبه النفوس وتتغالى فيه، والتنافس هنا يكون بكثرة الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الجملة معترضة في سياق وصف النعيم؛ لاستثارة همة المخاطبين للَّحاق بركب الأبرار.

ولما أخبر عن الشراب أتبعه بذكر مزاجه، فقال: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: يُمزج مِن عينٍ في الجنَّة تُسمى (التسنيم)، ولذا فسرها بقوله: ﴿عَيْنًا﴾ بالنصب على المدح، والتنكير للتعظيم، ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: يرتوون بها، فهذه العين في الأصل للمقربين فقط، فإنهم يشربونها صِرْفًا، أمَّا الأبرار فيمزج لهم منها، أي: يُجعل في رحيقهم شيءٌ منها، فشراب المقربين أعلى من شراب الأبرار، تبعًا لتفاوت المنزلة بين الفريقين.

وبعد؛ فالمتدبر لهذه الآيات يجد فيها مقابلة بين الفريقين في وصفهم ومصيرهم وجزائهم؛ فهؤلاء هم الأبرار، وهم في عليين، وفي النعيم، وإلى ربهم ينظرون، وكانوا به مؤمنين، وأولئك هم الفجار، وهم

في سجين، وفي الجحيم، وعن ربهم محجوبون، وكانوا به مكذبين. وفي البر كل عمل صالح محمود، وفي الفجور كل عمل سيئ مذموم. نسأل الله أن يسلك بنا سبيل الأبرار والمقربين، وأن يجنبنا سبيل الفجار والمكذبين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تأكيد وعد الأبرار.

٢ ـ أن البِرَّ ضد الفجور، والأبرار ضد الفجار.

٣ ـ أن لكل واحد من الأبرار كتابًا يتضمن جزاءَه وعاقبتَهُ، وهي الجنة بما فيها من أصناف النعيم.

٤ ـ أن الجنة عالية، وأعلاها الفردوس.

٥ ـ تعظيم أمر الجنة في علوها، كيف وأعلاها سقف الرحمٰن؟!

٦ ـ أن كتاب الأبرار حقيقي، أي مكتوب كتابة؛ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾.

٧ ـ أن أفضلَ الملائكة؛ المقربون منهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢].

٨ ـ تفاضل الملائكة في منازلهم.

٩ ـ شهودُ الملائكة المقربين كتابَ الأبرار؛ تعظيمًا لأمره.

١٠ ـ تفخيم شأن كتابِ الأبرار.

١١ ـ طِيب عيش الأبرار في الجنة.

١٢ ـ أن من نعيم الأبرار الجلوس على الأرائك والنظر إلى ما يشاؤون، وأعلى ذلك النظر إلى وجه الله سبحانه.

١٣ ـ ظهور أثر النعيم على وجوههم، بالنَّضَارة والحُسن والبهاء، يَعْرف ذلك من يراهم.

١٤ ـ أن مِنْ أشربة الجنة الرحيق.

١٥ ـ أن الأبرار يسقون من ذلك الرحيق.

١٦ ـ أن آخر شرابهم مُطيبٌ بالمسك.

١٧ ـ أن نعيم الجنة جدير بتنافس المتنافسين.

١٨ ـ الأمر من الله بالتنافس فيه، وذلك بالتنافس في أسبابه، وهي الأعمال الصالحة.

١٩ ـ أن من أشربة الجنة (التسنيم)، وأنه عينٌ من عيون الجنة.

٢٠ ـ أنه يمزج للأبرار من التسنيم.

٢١ ـ أن الأبرار إذا ذكروا مع المقربين صاروا صنفين: (أبرارًا، ومقربين)، وإذا أُفردوا دخل فيهم المقربون، كما في سورة الانفطار، ولذا ذكر الله صنفي أهل الجنة في سورة الواقعة، فقال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ [الواقعة]، ثم قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة].

ولما ذكر الله مصيرَ الفريقين وتباينَ حاليهما، أتبع ذلك بذكر حال المجرمين الفجار مع المؤمنين في الدنيا، وحال المؤمنين مع المجرمين في الآخرة، وما بينهما من التباين والتقابل، وفي هذا بيانٌ لسبب ذلك التباين في المصير، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين].

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ أي: الكفار، والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، وذِكرُهم بالاسم الموصول للدلالة على سبب فعلهم؛ وهو الإجرام الذي هو الكفر واكتساب الآثام، ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ على سبيل التَّهكُم، ويسخرون منهم، كما كان يفعله كفار قريش (كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهما) مع النبي ﷺ والمؤمنين، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾، يقال: مرَّ به، ومرَّ عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فـ(الباء) و(على) يتعاقبان، المعنى: إذا مرَّ المؤمنون بالكفار تغامز الكفار؛ أي: يغمز بعضهم بعضًا بالعين أو بالحاجِب أو بالشَّفَة استهزاءً بالمؤمنين.

ويحتمل أن يكون الفاعل في ﴿مَرُّواْ﴾ عائدًا على المشركين؛ أي: إذا مر المشركون بالمؤمنين، ويؤيد ذلك أن الضمائر مِن قَبلُ ومن بعدُ تعود على المشركين، ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾؛ أي: إذا رجع الكفار إلى أهلهم في بيوتهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: مسرورين متلذذين بما فعلوا بالمؤمنين، وقد يحكونه لأهليهم، وهذا من تمام إعجابهم بفعلهم.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾؛ أي: إذا رأى الكفارُ المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: لإيمانهم بمحمد ﷺ وتركهم دين آبائهم، فهذا هو الضلال بزعمهم.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: والحال أن هؤلاء الكفار ما أرسلوا على المؤمنين حافظين، أي: رُقباء يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون عليهم بالضلال أو الرشد، فالآية إنكار من الله عليهم وتهكم بهم، ولهذا جازاهم الله بضد فعلهم في الآخرة، وذلك أن المؤمنين يضحكون منهم هناك، كما كان الكفار يضحكون منهم في الدنيا، ولذا

قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة، فـ (أل) للعهد الذكري؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين].

فالمؤمنون في ذلك اليوم ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى ما يسرهم من النعيم، وإلى ما صنع الله بأعدائهم من العذاب، وذلك إنفاذٌ لما أوْعد الله به الكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾؛ أي: جُوزي ﴿الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من الكفر والمعاصي والاستهزاء؟ أي: قد جوزوا، فالاستفهام للتقرير، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان].

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ من كلام المؤمنين، أي: ينظرون قائلين: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات] إلى قوله: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الصافات] الآيات، وكما في قوله: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر] الآيات.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الناس فريقان: مؤمنون، وكافرون.

٢ ـ أنهما خصمان وضدان.

٣ ـ إطلاق الإجرام على الكافرين.

٤ ـ غرور الكفار في أنفسهم، مع أنهم على الباطل.

٥ ـ احتقارهم للمؤمنين.

٦ ـ أثر ذلك الإعجاب والاحتقار، وهو الضحك من المؤمنين والتندر بهم.

٧ ـ حكمهم لأنفسهم بالهدى وعلى المؤمنين بالضلال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾.

٨ ـ ذمُّ الله للكافرين وتوبيخه لهم؛ لحكمهم بالضلال على المؤمنين، وما هم عنهم بمسؤولين ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣﴾، مع ما في لفظ الإرسال من التهكم بهم.

٩ ـ تحريم السخرية بالمؤمنين والضحك منهم؛ لأنه من عادة الكافرين.

١٠ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها؛ فاليوم في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو المذكور في أول السورة في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

١١ ـ حُسن عاقبة المؤمنين، ونصرُهُم على الكافرين المستهزئين بهم.

١٢ ـ شماتة المؤمنين وهم في النعيم؛ بالكافرين وهم في دار الجحيم.

١٣ ـ أن من نعيم الجنة الأرائك الجميلة الوثيرة.

١٤ ـ نظر المؤمنين إلى ما شاءوا، وأجَلُّ ذلك نظرهم إلى ربهم.

١٥ ـ تساؤل أهل الجنة عن مصير الكافرين في قولهم: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾؛ أي: هل وَجَدوا جزاء عملهم، وهذ كقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١﴾ [المدثر]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٤].

١٦ ـ إثبات الأسباب.

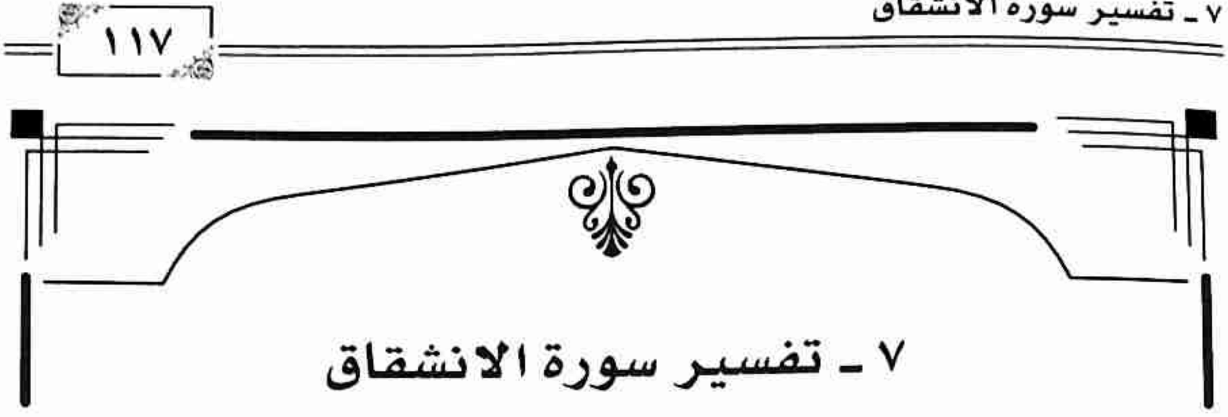
١٧ ـ أن الأفعال سبب الجزاء ثوابًا وعقابًا.

١٨ ـ إطلاق الثواب على العقاب.

١٩ ـ حكمة الله وعدلُهُ في الجزاء على الأعمال.

٢٠ ـ أن الجزاء من جنس العمل؛ فكما ضحك الكفار من المؤمنين في الدُّنيا ضحك المؤمنون منهم في الآخرة.





٧ ـ تفسير سورة الانشقاق

هذه السورة تشبه سورتي التكوير والانفطار من حيث عرض أحداث القيامة، بل هي بالانفطار أشبه، وقد تضمنت ذكر حال السماء والأرض؛ فالسماء تنشق، والأرض تمد، وتُلقي ما في بطنها من الأموات، وتتخلى عنهم بعدما ضمتهم طويلًا، وذلك في الآيات الخمس الأولى.

كما تضمنت السورة افتراق الناس إلى فريقين: سعداء وأشقياء، ومِن مظاهر ذلك أخذُ المؤمن كتابه بيمينه وتيسير حسابه، وأخذ الكافر كتابه بشماله ومن وراء ظهره، وتحسره عند ذلك.

ثم أقسم الله على ما يصير إليه الناس من أحوال، وتنقل من حال إلى حال، ثم ختمت السورة بتوبيخ الكافرين على عدم الإيمان وعدم الانتفاع بالقرآن، وما يلاقونه من العذاب الأليم على التكذيب والعصيان إلا من آمن وعمل صالحًا؛ فله أجر غير ممنون، وقد علمت حديث ابن عمر المتقدم عن النبي ﷺ قال: «**مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عينٍ فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه في سورة التكوير.

الآيات:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق].

التفسير:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾؛ أي: انصدعت وانفطرت إيذانًا بقيام الساعة ونهاية هذا العالم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ [المرسلات]، و﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ [التكوير]، وقريب منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان]، وكل هذا ـ والله أعلم ـ يندرج في التبديل المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، أي: وتبدَّل السماوات غير السماوات، فهو تبديل صفات، لا تبديل ذات.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾؛ أي: استمعت السماء لأمره سبحانه بالانشقاق، والمعنى: انقادت وأذعنت وأطاعت؛ يقال: أَذِن فلانٌ لفلان، إذا سمع ما أمره به وانقاد له، ﴿وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾؛ أي: وحُقَّ لها أن تنقاد وتطيع، فهي حَرِيَّةٌ بذلك؛ لأن الذي أمرها هو ربُّها خالقها ﷻ.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾؛ أي: مُدت كما يمد الجلد، فيزاد في سعتها، وتكون قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ﴿وَأَلْقَتْ مَا

﴿فِيهَا﴾؛ أي: وألقت ما في بطنها من الموتى ﴿وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾؛ أي: خلت خلوًّا تامًّا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾؛ أي: انقادت لأمر الله، وحُق لها أن تنقاد، فهي مثل السماء في كمال الانقياد.

ولم يذكر جواب الشرط ﴿وَإِذَا﴾ للعلم به من الآيات الأخرى، كما جاء ذلك في سورة التكوير والانفطار، في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير]، وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

واعلم أن الله ﷻ لم يَسق هذه الأخبار لمجرد الإخبار، بل الغاية إعلام العباد بما هم صائرون إليه؛ ترغيبًا وترهيبًا، ليأخذوا بأسباب النجاة مِن العذاب والفوز بعظيم الثواب، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، المراد الجنس، أي: جميع الإنسان مِن مؤمنٍ وكافر، فهو خطاب لكل مكلف، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾، (الكدح) هو السعي بجدٍّ واجتهاد، والمعنى: إنك عاملٌ عملًا ينتهي بك إلى الله، ﴿فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾؛ أي: فإنك ملاقٍ ربك بعملك؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

وقيل: ملاقٍ عملك، أي: جزاءَ عملك.

والقولان متلازمان، والأول أظهر؛ لأن ذكر لقاء العبد لربه كثيرٌ في القرآن، كقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [يونس: ٧]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة].

ثم ذكر انقسام الإنسان عند ملاقاة الله إلى فريقين، وابتدأ بأهل

اليمين لفضلهم، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾؛ أي: بيده اليمنى، وهو المؤمن، و(الكتاب): صحيفة الأعمال، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؛ أي: سهلًا، وذلك بأنْ تُعرض عليه أعماله دون مناقشة، ويقرر بذنوبه، ثم يتجاوز الله عنه بمنِّه وكرمه، كما يدل له قوله ﷺ لما سئل عن هذه الآية، قال: «**ذاك العرض يعرضون، ومن نُوقش الحساب هلك**»[1].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾؛ أي: يرجع إلى أهله في الجنة من الزوجات والذريات والإخوان، مسرورًا بتيسير الحساب والنجاة من العذاب، ومسرورًا بما أعده الله له من الكرامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾ وهو الكافر، وفي سورة الحاقة قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥]، فهو يُؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: ينادي على نفسه بالثبور، وهو الهلاك، أي: يقول: واهلاكاه! فيتمنى الموت، وما هو بميت، ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يدخل النار المستعرة، ويقاسي حرها، ثم ذكر سبب ذلك، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: كان في الدنيا مسرورًا بشهواته غافلًا عن الآخرة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: تيقن أنه لن يرجع إلى الله للبعث والحساب، و(أنْ) هي المخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: أنَّه.

﴿بَلَىٰ﴾ حرف يفيد إبطال ظنِّ عدمِ الرجوع وإثباتَ الرجوع، أي: بل يحور ويرجع إلى ربه للحساب ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾؛ أي: عليمًا خبيرًا، لا تخفى عليه منه خافية.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ قدرة الله على تغيير حال العالم العلوي والسفلي.

٢ ـ أن مِنْ أحداث القيامة أن السماء تنشق في هذا اليوم.

٣ ـ أن الأرض تمد فتتسع للخلائق إذا جمع الله الأولين والآخرين.

٤ ـ إحياء الله للموتى وإخراجهم من بطن الأرض.

٥ ـ أن ذلك كله بإرادة الله وأمره.

٦ ـ انقياد هذه المخلوقات العظيمة لأمر ربها، وحُقّ لها أن تنقاد وتسمع وتطيع.

٧ ـ إثبات ربوبية الله العامة.

٨ ـ أن السماء شيء يقبل الانشقاق؛ كالانفطار.

٩ ـ تخصيص الإنسان بالخطاب، وليس له نظير إلا في سورة الانفطار، وهو لعموم لفظه وشمول ما خوطب به بمعنى: يا أيها الناس.

١٠ ـ أن كل واحد يكدح في هذه الحياة (أي: يعمل)، حتى يرجع إلى ربه ويلاقيه يوم التلاق.

١١ ـ تذكير الإنسان بربه العدل الكريم الحكيم.

١٢ ـ أن كلًّا سيلقى ربه فيجازيه.

١٣ ـ إحصاء أعمال العباد؛ حسناتهم وسيئاتهم، وتدوينها في كتاب.

١٤ ـ إظهار كتاب الأعمال يوم القيامة.

١٥ ـ إيتاء المؤمن كتابه بيمينه، وإيتاء الكافر بشماله ومن وراء ظهره.

١٦ ـ تيسير الحساب على المؤمن.

١٧ ـ نهاية أمر المؤمن أنه ينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا، سرورًا لا حزن بعده.

١٨ ـ حسرة الكافر إذا أعطي كتابه بشماله.

١٩ ـ نهاية أمر الكافر أن يصير إلى النار.

٢٠ ـ أن سوء مصيره بسبب سوء حاله في الدنيا؛ غرورًا وتكذيبًا بالبعث، فقد كان بين أهله في غرور، وكان يظن ألا يرجع إلى الله.

٢١ ـ أن الله بصيرٌ بالعباد؛ فبفضله اهتدى المهتدون، وبعدله ضل الضالون، وكل ذلك بحكمته وعلمه، وهو الحكيم العليم.

ثم أقسم تعالى بأحوال الليل من الشفق إلى استحكام الظلمة إلى انجلائها بسطوع القمر باتساقه (أي: كمال استنارته)، على ركوب الإنسان أحوالًا مختلفة من الأطوار والشدائد، تنتهي به إلى مصيره الأخير في الجنة أو النار، فقال:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أُقسم بالشَّفق، و﴿لَآ﴾ مزيدة للتوكيد، وليس المراد نفي القسم، و(الشفق): هو الحمرة التي

تبقى في الأفق بعد غروب الشمس، وإذا غابت هذه الحمرة خرج وقت المغرب، ودخل وقت العشاء، ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ معطوف على الشفق؛ أي: وأقسم بالليل وما وسق، أي: وكُلِّ ما جمع وضم في ظلمته، يقال: وسَقَه ـ من باب وعَد، بمعنى وسِعه ـ فاتسق، أي: جمَعه فاجتمع، ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾؛ أي: اجتمع نوره وكَمل، وصار بدرًا.

وفي الإقسام بهذه الأشياء المختلفةِ الأحوال تناسبٌ مع جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أيها الناس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾؛ أي: حالًا بعد حال، أي: لتنتقلُنَّ مِن حالٍ إلى حال؛ مِن كونكم نُطفًا في الأرحام، إلى خروجكم إلى الحياة، ثم موتٌ بعد ذلك، ثم تبعثون فتصيرون إلى ربكم فيجازي كلًّا بعمله.

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿لَتَرۡكَبَنَّ﴾ بفتح الباء، **قيل**: الخطاب للنبي ﷺ، **وقيل**: للإنسان، وهو المناسب لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

قوله: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾؛ أي: فما لهؤلاء الكفار لا يؤمنون مع وضوح الآيات، والاستفهام للإنكار والتعجب، والفاء للتفريع؛ أي: إذا عُلم ما تقدم فأيُّ مانع يمنعهم مِن الإيمان؟! ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۝٢١﴾؛ أي: لا يخضعون له ولا ينقادون لأمره، ولا يصلون، فيركعون ويسجدون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المرسلات]، وقال: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم]، مع أنهم يعلمون أن القرآن معجز لا يقدرون على الإتيان بمثله، وهو أكبر شاهد بصحة الرسالة.

وهذه الآية موضع سجدة؛ لما ثبت عن أبي رافع الصايغ قال: صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العَتَمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فسجد،

فقلت: ما هذه [السجدة]؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه». أخرجه البخاري ومسلم[١]، ولمسلم[٢]: أن أبا هريرة رضي الله عنه قرأ لهم: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق] فسجد فيها، فلما انصرف أخبرهم: أن رسول الله ﷺ سجد فيها.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾؛ أي: لا يسجدون، بل هم يكذبون أصلًا بالرسالة عنادًا واتباعًا لأسلافهم، وهذا من باب الترقي في ذمهم، وجيء بالاسم الموصول بدل الضمير (هم) ليصفهم بالكفر الموجب لعذابهم، ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾؛ أي: يجمعون ويضمرون في صدورهم من الكفر والشر، ولهذا توعدهم الله على سبيل التَّهكم بقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾؛ لأن أصل البشارة أن تكون في أمر سار، فإذا كانت في ضد ذلك كانت تهكُّما.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾؛ أي: لكن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة ـ جمعوا بين الإيمان والعمل ـ فهؤلاء ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾ أي: ثواب عظيم غير مقطوع، وهو جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وختمت السورة بوعيد الكافرين ووعد المؤمنين، وهم من سلف ذكرهم فيمن يؤتى كتابه بشماله أو باليمين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من الخلق، وليس للمخلوق أن يقسم إلا به سبحانه.

---

(١) البخاري (٧٦٨)، ومسلم (٥٧٨). (٢) مسلم (٥٧٨).

٢ ـ أن لله حكمة في تخصيص بعض المخلوقات في الإقسام بها.

٣ ـ أن من أنواع كلام الله القَسَم.

٤ ـ أن الشفق آية من آيات الله، وهو الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس.

٥ ـ أن الليل وما يجمعه وما يحويه ويؤيه بظلامه من الناس والدواب آية من آيات الله.

٦ ـ أن القمر من آيات الله، ولا سيما إذا استكمل نوره.

٧ ـ أن المكلفين يمرون بأحوال، ويصيرون من حال إلى حال؛ كالذي يرتقي أطباقًا، والمراد ما ينتقل فيه الإنسان في هذه الحياة وفي دار البرزخ، حتى ينتهي إما إلى الجنة أو إلى النار.

٨ ـ التناسب بين المقسم به والمقسم عليه؛ فذَكر في القسم أحوال الليل من الشفق وما يعقبه من الظلمة، وأشار إلى أحوال القمر من كونه هلالًا حتى يكون بدرًا، وكذلك تكون أحوال المكلفين.

٩ ـ أن في هذا القسم برهانًا على قدرة الله على البعث؛ لأنه الخالق لآيتي الليل والقمر، والمدبر لهما.

١٠ ـ توبيخ الله للكافرين على ترك الإيمان بالله وبالبعث مع ظهور الآيات، وعلى ترك السجود عند تلاوة القرآن.

١١ ـ أن الكفار يُكذبون تكذيب الجحود، مع أن في قلوبهم التصديق الذي لا ينفعهم مع الجحد، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

١٢ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى، وأنه أعلم العالِمين.

١٣ ـ تهديد الكافرين بصيغة التهكم بهم ببشراهم بالعذاب الأليم.

١٤ ـ أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات لهم أجر غير مقطوع، بخلاف حال الكافرين فلا أجر لهم، بل لهم عذاب أليم.

١٥ ـ تسمية ثواب أهل الإيمان والعمل الصالح أجرًا، وهو في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ [الملك]، ولا يلزم من ذلك أن يكون عِوضًا كأجر الأجير؛ لأن العمل الصالح وثوابَه كلَّه فضلٌ من الله، ثم إنه لا نسبة بين الثواب والعمل، فالعمل يسير والأجر كبير.





٨ ـ تفسير سورة البروج

هذه السورة تضمنت الوعدَ والوعيد؛ وعد المؤمنين، ووعيد الكفار الظالمين، والأغلبُ فيها جانبُ التهديد، بذكر الدلائل على قدرته تعالى، وشدة بطشه سبحانه بذكر سننه في المكذبين ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ الآيات، وذِكْرِ ما ينتظر الكفرة الظالمين الصَّادين للمؤمنين عن الإيمان بالله وشرعه؛ من عذاب جهنم وعذاب الحريق.

والسورة اثنتان وعشرون آية؛ الثلاث الأولى تضمنت القسم من الله بأربعة أمور:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ [البروج].

التفسير:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ الواو للقسم؛ أي: أُقسم بالسماء صاحبةِ البروج، أي: النجوم، جمع بُرْج، وهو في الأصل القصر العالي، ووصف السماء بذات البروج تفخيم لها، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ ورجحه ابن جرير ـ أن البروج قصورٌ في السماء، والمراد بها منازل الشمس والقمر؛ أي: طرقها التي تمر بها، وكل واحد منها مجموعة نجوم، سميت باسم يناسب الشكل الذي هي عليه، شبهت بالقصور لعلوها، ولنزول الكواكب بها، كما أن القصور ينزلها الأكابر والأشراف.

وقد تمدح الله بخلقه للبروج فقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى

ﭐلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

والبروج عند الفلكيين اثنا عشر، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، جمعها النّاظم في قوله:

حَمَلَ الثورُ جوزَة السرطانِ ورَعَى الليثُ سُنبلَ الميزانِ
ورمى عَقربٌ بقوسٍ لجديٍ نزحَ الدَّلوُ بركةَ الحيتانِ

والشمس تتنقل في هذه البروج فتقطعها في ظرف سنة، ومن تنقلها بينها تنشأ الفصول الأربعة.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾؛ أي: وأُقسم باليوم الموعود، وهو يوم القيامة، باتفاق المفسرين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج].

وقوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾؛ أي: وأقسم بكل شاهد وكل مشهود، على ما يفيده التنكير فيهما والإطلاقُ مِنَ التعميم، وعلى ما جاءت به الأخبار، فيدخل في ذلك الشهود من الملائكة والأنبياء الذين يشهدون على أممهم، والجوارح، وأعظم شاهد هو الله الشهيد على كل شيء، كما ذكر في هذه السورة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

ويدخل في ذلك المشهود عليهم من العباد، كما يدخل في ذلك كلُّ يوم مشهود: كيوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم القيامة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود].

واختُلف في جواب القسم:

فقيل: محذوف، تقديره: لتُبعثُنَّ.

والصحيح أن هذا القسم لا يحتاج إلى جواب؛ لأن المقسم به هو نفسه المقسم عليه، أي: إنَّ هذه الأشياء لَعظيمة؛ لأن المراد التنبيه إلى

عِظمها، وما فيها من الدلالة على قدرته تعالى، وسَعة علمه، وصدق وعده ووعيده، ذكر ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله، واختاره، ونظَّره بالقسم بالقرآن، وأنه المقسم به وعليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ①﴾ [ص]، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾ [ق][(١)].

ومَنْ جعل قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ④﴾ [البروج] هو الجواب فليس بصحيح؛ لأن الدعاء لا يكون جوابًا للقسم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه.

٢ ـ أن من كلام الله الإقسام.

٣ ـ أن السماء وما فيها من البروج ـ وهي النجوم أو منازل الشمس والقمر ـ من أعظم الآيات الدالة على قدرة الله عز وجل وحكمته. وهذا هو سر القسم بها.

٤ ـ التنبيه إلى أن اليوم الموعود حق، وأنه آت لا محالة. وذلك للقسم به، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ①﴾ [القيامة].

٥ ـ إقسامه تعالى بكل شاهد ومشهود.

٦ ـ الترهيب من ذلك اليوم الموعود المشهود.

***

وبعد هذه الأقسام في الآيات الثلاث الأولى، ذكر الله قصة لم تذكر إلا في هذه السورة، قصة أصحاب الأخدود الكفرة الظالمين، وقد أجمل الله الخبر عنهم بذكر ما فعلوه في المؤمنين لصدهم عن دينهم، من إيقاد النيران والزجِّ بكل مَن لم يجبهم ويرجع عن دينه. وقد جاءت

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٩٠).

القصة مفصلة في السُّنَّة في الحديث الذي رواه مسلم في خبر الملك والغلام والساحر والراهب(١).

وما تضمنته الآيات الثلاث الأولى من السورة فيه تمهيد لهذه القصة، لما في تلك الأقسام من التخويف؛ بذكر اليوم الموعود والشاهد والمشهود، وقدرة الله خالق السماء ذات البروج.

الآيات:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: لُعنوا، وهذا خبر من الله بأنهم لُعنوا، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، واللعن مِن الناس دعاء عليهم بذلك، و﴿ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ الشَّقُّ في الأرض يكون مستطيلًا، وجمعه أخاديد، ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ بدل اشتمال من الأخدود، أي: إن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار ذات الوقود، والوَقود ـ بفتح الواو ـ: ما توقد به النار من حطب وغيره، والمعنى: أنها نار عظيمة ذات لهب.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾﴾ جمع قاعد، مثل: شاهد وشهود، ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ﴿قُتِلَ﴾، أي: لعنوا حين كانوا قاعدين على شفير النار

---

(١) صحيح مسلم (٣٠٠٥)؛ عن صهيب رضي الله عنه.

مشرفين على إلقاء المؤمنين فيها، وقد كانوا يخيرون الناس، فمن أجابهم إلى الكفر خلوا سبيله، ومن أصر على الإيمان قذفوه فيها ﴿عَلَىٰ﴾ أي: الكفار الظالمون ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على ما يفعله جنودهم من إحراق المؤمنين ﴿شُهُودٌ ۝٧﴾؛ أي: حاضرون، فلا تلين قلوبهم، ولا تأخذهم بهم رأفة، فهم قساةُ قلوب غلاظُ أكباد.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾؛ أي: ما كرهوا منهم ولا أنكروا عليهم سوى الإيمان بالله، وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم، فهي كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وكقول القائل:

ولا عيبَ فيهمْ غيرَ أن سُيوفهمْ بهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكَتَائبِ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾ بلفظ المستقبل مع أن الإيمان وُجد منهم في الماضي؛ لأن انتقامهم على استمرار المؤمنين على الإيمان وثباتهم عليه، لا على الإيمان الماضي، فكأنه قيل: إلا أن يدوموا على الإيمان، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الذي لا يُغالَب ﴿ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾؛ أي: المحمود على أفعاله وأقواله وأوصافه، والمحمود على كل حال، وقدَّم (العزيز) على (الحميد)؛ لأن المقام مقام إنذار.

ثم ذكر مِن معاني عزته وحمده، فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقًا وملكًا وحُكمًا، وله ﷻ القدرة التامة على أهل السماوات والأرض، ولا مفرّ لأحد من سلطانه وملكوته، ولذلك آمن به هؤلاء المؤمنون، وهانت عليهم أرواحهم في سبيله، لما ينتظرونه عنده من الثواب العظيم والنعيم المقيم، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾؛ أي:

---

(١) للنابغة الذبياني في ديوانه (ص: ١٠).

لا يخفى عليه شيء. وفي هذا وعدٌ للمؤمنين الصابرين، ووعيدٌ للكافرين الظالمين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ لعنُ الله للكافرين الظالمين، وهو معنى قُتل، أي: لُعن.

٢ ـ أن أصحاب الأخدود ملعونون من الله ومن خلقه؛ من الملائكة والناس أجمعين؛ لأن بناء الفعل للمفعول يفيد العموم، كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة].

٣ ـ أن من كمال البيان تشخيص الجريمة، حتى كأن السامع يراها رؤية عين: حُفَرٌ، ونارٌ تتوقد، والمجرمون حولها يتمتعون بتعذيب المؤمنين.

٤ ـ أن النار أعظم ما يعذب به، ولذا حُرِّم في الإسلام التعذيب بالنار، فلا يعذب بالنار إلا ربها.

٥ ـ شدة حَنَق هؤلاء الكفار وعداوتهم للإيمان والمؤمنين.

٦ ـ اغترارهم بقوتهم، وبإمهال الله لهم.

٧ ـ إعجابهم بقبيح فعلهم، وتَمَتُّعُهم بمشاهدة إجرامهم.

٨ ـ قسوة قلوب أولئك الظالمين.

٩ ـ أنه ليس للمؤمنين عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد.

١٠ ـ قوة المؤمنين وثباتهم وصبرهم على دينهم.

١١ ـ أن الشرائع السابقة ليس فيها رخصة للمكره على التكلم بالكفر.

١٢ ـ أن من أساليب القرآن تأكيد المدح بما يشبه الذم.

١٣ ـ أن من أسماء الله: (العزيز) (الحميد).

١٤ ـ أن ملك السماوات والأرض لله وحده.

١٥ ـ أن الله تعالى شهيد على كل شيء.

١٦ ـ أن إمهاله تعالى لأصحاب الأخدود ليس عن ضعف ولا عجز ولا جهل بما يفعلون؛ لأنه عزيزٌ مالكٌ لكل شيء، وشهيدٌ على كل شيء، ولكنه يمهل الظالمين مكرًا بهم واستدراجًا لهم، ويبتلي المؤمنين إكرامًا لهم بما يرفع درجاتهم، وهو المحمود على هذا وهذا، كما يدل عليه اسمه الحميد.

١٧ ـ تثبيت المؤمنين المعذبين بمكة.

١٨ ـ تهديد الكفار من قريش الذين يعذبون ضعفة المؤمنين؛ كعمار وبلال وياسر وسمية، ولعل السورة نزلت بسبب ما جرى من المشركين من تعذيب المؤمنين.

الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج].

هاتان الآيتان تضمنتا وعيد أصحاب الأخدود الذين فَتَنوا المؤمنين، أي: عذبوهم ليرجعوا عن دينهم، توعدهم الله بعذاب جهنم وعذاب الحريق، إلا مَن تاب منهم، كما تضمنتا وَعْد المؤمنين الذين ثَبتوا على إيمانهم، وصبروا، وعملوا الصالحات، بجنات تجري من تحتها الأنهار، وذلك الفوز الكبير، فالسعادة والفلاح للمؤمنين، والشقاء والخسار للمجرمين.

❁ **التفسير:**

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: عذبوهم بالإحراق وبسائر صنوف الأذى ليَرُدّوهم عن دينهم، ويشمل هذا أصحاب الأخدود وغيرهم من مشركي قريش ومن بعدهم. وذكر المؤمنات للتنويه بشأنهنّ، ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾؛ أي: عن كفرهم وعما فعلوا بأولياء الله ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠] أي: النار في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: العذاب الشديد الإحراق، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وعطْفُ ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ على ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ مِن عطف التفسير والتفخيم، وفيه الإشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، ومجيء الفاء في خبر ﴿إِنَّ﴾ ﴿فَلَهُمْ﴾؛ لأن اسمها موصول، وهو يُشْبه اسم الشرط في العموم، وذلك مما يرجح أنه ليس المراد خصوص أصحاب الأخدود.

ولما ذكر وعيد الكافرين أتبعه بذكر ما أعد للمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح المصدق لإيمانهم، ولا يكون العمل صالحًا إلا بأن يكون خالصًا لله تعالى، وصوابًا؛ أي: على وَفْق ما جاءت به الشريعة، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾؛ أي: بساتين عظيمة فضلًا من الله، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: من تحت قصورها وأشجارها.

وأنهار الجنة كثيرة، فمنها مما أخبر الله: أنهار من ماءٍ غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، فإذا رأى أهل الجنة الجنة وما فيها مما يَسُرُّ القلب ويلذه البصر؛ زال عنهم ما مسَّهم في الدنيا من اللأواء والأحزان، وفي الصحيح: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم**

قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا مِن أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم؛ هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط»(١).

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ثوابًا من عند الله، وأشير إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد؛ لشرف ثوابهم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾؛ أي: العظيم، أي الذي لا فوز يدانيه، والفوز مصدر عُبر به عن الجنة مبالغة في فوزهم.

ويحتمل أن يكون المراد باسم الإشارة دخولهم الجنات؛ لأنهم ينالون إذا دخلوا كل مطلوب وينجون من كل مرهوب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من سنن الكفار الصد عن دين الله وتعذيب المؤمنين لصدهم عن الإيمان.

٢ ـ التنويه بشأن المؤمنات، وأن من النساء مؤمنات صابرات، ومنهن تلك المرأة التي ذكرت في الحديث(٢).

٣ ـ أن من تاب مِن الكافرين قَبِل الله توبته، ولو كان قد عذَّب أولياءه، وصدَّ مَن صَّد منهم عن سبيله.

٤ ـ أن مصير أصحاب الأخدود إلى العذاب في جهنم، ويحرقون.

٥ ـ المهلة في زمن التوبة، للعطف بـ (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص: ١٣٠).

٦ ـ تحذير مَن يُعذِّب المؤمنين مِن أهل مكة وغيرهم، وتهديدهم بأن يصيروا إلى مصير أصحاب الأخدود.

٧ ـ دعوة الكافر إلى التوبة، ولو كان مسرفًا في الكفر.

٨ ـ أن التوبة لا تضيق بأيِّ ذنبٍ مهما بلغ في العِظم والقُبح.

٩ ـ قَبول توبة القاتل.

١٠ ـ أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

١١ ـ أن ما توعد الله به الكافرين والعاصين في الآخرة مشروط بعدم التوبة.

١٢ ـ فضل التوبة والترغيب فيها.

١٣ ـ عِظم فضل الله على عباده، قال الحسن البصري: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة»[١].

۞ وفي الآية الثانية:

١٤ ـ بشارة كل مَن آمن وعمل الصالحات من المؤمنين بالجنات، ويدخل فيهم دخولًا أوليًّا المؤمنون الذين فتنهم أصحاب الأخدود.

١٥ ـ أن مِن منهج القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، والأغلب تقديم الوعيد لأسباب تقتضي ذلك، وتقديم الوعيد في هذا الموضع؛ ليتصل بالخبر عن أصحاب الأخدود، لأنهم أولى الناس بهذا الوعيد.

١٦ ـ اعتبار العمل في دخول الجنة، والرد على المرجئة.

١٧ ـ إثبات الجنة، وأن فيها أنهارًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٩٤).

١٨ ـ أن دخول الجنة هو الفوز الكبير، وقد وُصف الفوز بالجنة بأنه: كبير، وعظيم، ومبين.

١٩ ـ الإشارة إلى القريب في الذكر بإشارة البعيد لعلو قدره.

٢٠ ـ إثبات أسباب السعادة والشقاء.

ثم أكد الله الوعيد المتقدم، وتمدح سبحانه مثنيًا على نفسه بالأسماء والأوصاف المتضمنة لصفات الكمال؛ من البطش الشديد بالكافرين الظالمين، والمغفرة والمودة للمؤمنين والتائبين، ورفعة القدر وكمال القدرة والعلو على العالمين، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ البطش: هو الأخذ بقوة وعنف، والمعنى: أن بطش الله بالكفرة الظالمين في غاية الشدة، وتأمل ـ أيها المسلم ـ كيف أخبر الله عن بطشه بأنه شديد، وأكده بـ (إنَّ)، وأضافه إلى نفسه جل وعز، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]، والخطاب في الآية للنبي ﷺ تسلية له، وتهديدًا لقومه أن ينتقم الله منهم.

ثم ذكر الله الدليل على عظيم قدرته فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ (بدأَ) و(أبْدَأَ) بمعنى واحد، أي: هو سبحانه يبدأ الخلق بعد العدم ثم يعيده يوم القيامة بعد فنائه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وضمير الفصل للتأكيد.

وعن ابن عباس أن المعنى: يُبدئ البطش في الدنيا ويعيده في الآخرة، ورجحه ابن جرير.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: كثير المغفرة لذنوب عباده، فيسترها ويتجاوز عنها، ﴿ٱلْوَدُودُ ١٤﴾؛ أي: عظيم المحبة لأوليائه، فيحبهم ويحبونه، فالودود هو المحب المحبوب، بمعنى: وادٌّ وودود، والوُدُّ خالص المحبة.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾؛ أي: صاحب العرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، ولذا خصه بالذكر، وأضافه إليه سبحانه، وهو فوق السماوات كالقبة، وعليه استوى الرب جل جلاله استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه ﴿ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾ بالرفع صفة للربّ؛ أي: الذي له المجد العظيم، و(المجد): هو عظمة الصفات وسعتها.

وقرأ حمزة والكسائي وخلَف بالجر، فيكون صفةً للعرش، أي: العظيم العالي.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾؛ أي: لا يمتنع عليه شيء أراده سبحانه، فلا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، و(فعَّال) صيغة مبالغة؛ لأن ما يريد تعالى وما يفعله لا نهاية له، وختم الصفات بـ (فعَّال) يفيد العموم بعد الخصوص، وأنه تعالى لا يعجزه شيء، فما أراده فعله، ومن ذلك بطشه بالكافرين ونصره المؤمنين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ شدة بطش الله، والبطش هو الأخذ للنَّكال.

٢ ـ تهديد الكافرين.

٣ ـ تسلية المؤمنين وبشارتهم.

٤ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٥ ـ أنه تعالى المبدئ المعيد.

٦ ـ الإشارة إلى إثبات البعث، والرد على منكريه.

٧ ـ أنه الغفور الودود.

٨ ـ إثبات ما تتضمنه هذه الأسماء من الصفات.

٩ ـ علو الله على خلقه واستواؤه على عرشه.

١٠ ـ إثبات العرش الذي هو أعلى المخلوقات، وعليه استوى الرب كيف شاء.

١١ ـ سعة العرش ورفعتُه وحسنُه على قراءة الجر في (المجيد).

١٢ ـ إثبات اسمه المجيد على قراءة الرفع.

١٣ ـ إثبات صفة الفعل وصفة الإرادة الكونية.

١٤ ـ كمال قدرته سبحانه على ما يريد فعله.

١٥ ـ أنه تعالى لا يعجزه شيء.

١٦ ـ الرد على الفلاسفة في قولهم أنه موجِب بالذات، فلا فعلَ ولا إرادة[(١)].

***

ثم ذكَّر الله بما فعله بالطغاة الكافرين مِن الإهلاك والتدمير بالغرق أو الصيحة؛ كفرعون وثمود، وما يُهدد الكافرين من بأس الله بسبب التكذيب بالقرآن، وهو الحق المحفوظ في أم الكتاب اللوح المحفوظ؛ فقال سبحانه:

---

(١) أي: إن صدور هذا العالم عن الله صدورٌ ذاتيٌّ، أي: لازم لذاته، لا عن فعل ولا عن إرادة؛ كصدور ضوء الشمس عن الشمس، وهذا هو القول بقدم العالم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ (٢٢)﴾ [البروج].

التفسير:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧)﴾ هذا دليل لشدة بطشه تعالى، وفيه تأكيد لتهديد الكافرين وتسلية المؤمنين، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧)﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو لأمته أيضًا، والاستفهام للتقرير والتشويق، والمعنى: أليس قد بلغك حديث فرعون وثمود؟! أي: خبرهما وقصتهما، إنهما قصتان عظيمتان لأمتين كافرتين أهلكهما الله شرَّ إهلاك، فصار خبرهما حديثًا يتلى، ﴿ٱلْجُنُودِ (١٧)﴾ وهم العسكر جمع جُند، وفيه إشارة إلى أنهم ذوو بأس، وأنهم في كامل قوتهم واستعدادهم، ومع ذلك فلم تنفعهم قوتهم أمام بأس الله وعذابه.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨)﴾ بدل من الجنود، أي: هم فرعون وثمود، وإنما خصهم بالذكر ـ والله أعلم ـ لتشابههم في الطغيان، ولقرب بلاد ثمود من الحجاز، وللمشابهة بين موسى عليه السلام المرسَل إلى فرعون، ومحمد ﷺ رسول الله إلى قريش أولًا، وقد كانت قصة فرعون مشهورة عند العرب.

فذكر الله مثالين على الهلاك من المتأخرين فرعون، ومن المتقدمين ثمود، فهذه سُنَّة الله فيمن كذّب وعصى، وفيها التحذير لكفار مكة، ولكنهم تمادوا في الكفر والطغيان، ولم يعتبروا بهذه العبر، ولهذا قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ (١٩)﴾ ﴿بَلِ﴾ إضراب للانتقال إلى تقرير تكذيبهم وعدم اعتبارهم بمَن خلا، فهم منغمسون في تكذيب عظيم، لما تفيده ﴿فِى﴾ مِن معنى الظرفية، وهذا أدل على إظهار كذبهم مما لو قيل:

يُكذبون. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: مقتدر عليهم محيط بهم من كل جهة، فلا يفوتونه ولا يعجزونه تعالى، فلو شاء لانتقم منهم.

وخصَّ (الوراء) بالذكر؛ **قيل**: لأنه الجهة التي يخاف الإنسان أن يؤتى منها.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ ﴿بَلْ﴾ انتقال عن الإخبار بتكذيبهم إلى الثناء على القرآن، أي: بل هذا الذي كذبوا به ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: عظيم القدر غايةٌ في الشرف والرفعة.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: لوحٍ مصونٍ عن التغيير والتحريف، على قراءة الأكثر بجر (محفوظ) صفة للوح، وأصل (اللوح) ما يكتب فيه، والمراد به لوح المقادير الذي هو في السماء، وهو الكتاب المبين، والإمام المبين، وأم الكتاب، والكتاب المكنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة].

وقرأ نافع برفع (محفوظ)، وصفًا للقرآن، فيكون دالًّا على معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، فدلت القراءتان على ثبوت الحفظ للَّوح والقرآن.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تسلية النبي ﷺ والمؤمنين بما سبق في القرآن من قصص المكذبين وما فعل الله بهم.

٢ ـ تهديد الكافرين المكذبين بسُنَّة الله في الماضين.

٣ ـ أن ما في القرآن من قصصِ أُممِ الكفر حديثٌ أيُّ حديث! ففيه عبرة للمعتبرين.

٤ ـ أن مِن أبلغ المواعظ قصة ثمودَ قومِ صالح، وقصةَ فرعون، وما جرى عليهم من الإهلاك بالصيحة وبالغرق.

٥ ـ أن ما جرى عليهما وعلى غيرهما من ذوي الطغيان بفعله تعالى وإرادته.

٦ ـ أن كفار قريش لم ينتفعوا بما جاءهم من أنباء الأمم قبلهم الذين أهلكوا بتكذيبهم لرسل الله، بل هم مغرقون في التكذيب اتباعًا لأهوائهم.

٧ ـ تهديد الله لكفار قريش وغيرهم بأنه من ورائهم محيط، فلا مفرَّ لهم من بأس الله.

٨ ـ إحاطة قدرة الله وعلمه بالكافرين وبكل شيء، ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق].

٩ ـ الرد على المكذبين بالقرآن الزاعمين أنه أساطير.

١٠ ـ أن القرآن حقٌّ عظيمُ القدر؛ لقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

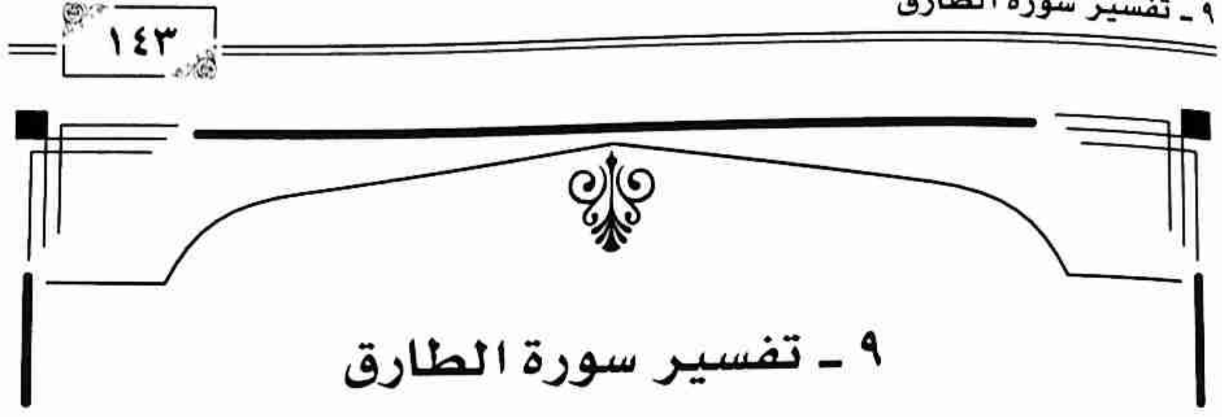
١١ ـ أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، والمراد باللوح المحفوظ الكتاب الأول الذي هو أم الكتاب.

١٢ ـ إثبات اللوح، وهو كتاب المقادير.

١٣ ـ أن اللوح محفوظٌ لا يمسه إلا الملائكة المطهرون، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة].

١٤ ـ أن القرآن محفوظ في اللوح، وهذا على قراءة الرفع.

❁ ❁ ❁



٩ ـ تفسير سورة الطارق

هذه السورة مكية، وقد افتُتحت بقَسَمين مِن الله تعالى على أنَّ كل نفس عليها حافظٌ، وختمت بقَسَمين على أنَّ القرآن قولٌ فصل، وفيما بين ذلك ذَكَر اللهُ أحد أدلة البعث، وهو خلق الإنسان مِن الماء الدافق، فهذه ثلاثة أمور:

١ ـ حفظ الإنسان وحفظ عمله.

٢ ـ خلق الإنسان ورجوعُه إلى ربه.

٣ ـ أن القرآن حق فصل، وفي ذلك تكذيب للكافرين القائلين بأنه شعر أو سحر أو كهانة.

فالأمر الأول تضمنته الآيات الأربع الأولى، وأما الأمر الثاني ـ وهو خلق الإنسان ورجوعه إلى ربه ـ فتضمنته الآيات من الخامسة إلى العاشرة، وأما الأمر الثالث ـ وهو أن القرآن حق فصل، وليس بالهزل ـ فتضمنته الآيات الأخيرة.

الآيات:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾﴾ [الطارق].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ هذا قسم من الله، والقسم من

طرق تأكيد الكلام، وأقسم الله بالسماء وبالطارق؛ لأنهما من مخلوقاته الباهرة، ولما فيهما من الآيات الظاهرة، والإقسام بهما دليلٌ على عظمة شأنهما وعظمة خالقهما.

وقد كثر في القرآن ذكر السماء والشمس والقمر، لما فيها مِن الدلالات على قدرة خالقها وحكمته ورحمته وعلمه.

و(الطّارق) أصله في اللغة ما يطرُق ـ أي: يجيء ـ ليلًا، ثم صار يُطلق على كل ما يظهر في الليل، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾: أيُّ شيءٍ أعلمك ما الطارق، والخطاب لكل مَن يصلح للخطاب، فهو لغير معين، والاستفهام لتعظيم المقسم به وتفخيمه والتشويق إلى معرفته، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة]، ثم فسر الطارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾؛ أي: هو النجم الثاقب، أي: المضيء؛ الذي يثقب بضوئه ظلمة الليل، وسُمي النجم بالطارق؛ لأنه يُرى بالليل ويختفي بالنهار، و(أل) في ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ للجنس؛ أي: للاستغراق، فيكون المراد عموم النجوم؛ لأن لكلٍّ منها ضوءًا ثاقبًا.

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾ هذا جواب القسم، (إنْ) نافية بمعنى ما، و(لـمَّا) ـ بتشديد الميم ـ بمعنى (إلا) الاستثنائية، أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ من الملائكة يحفظها، ويحصي عليها عملها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار]، وقال: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وعُدي (حافظ) بـ(على) لتضمنه معنى القيام؛ لأن الملائكة قائمون على العباد بالمراقبة والحفظ.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي ﴿لَمَا﴾ بتخفيف الميم؛ فتكون مركبة من اللام الفارقة بين (إن) المخففة والثقيلة، و(ما) المزيدة

للتأكيد، و﴿إن﴾ هي المخففة، واسمها ضمير الشأن، والخبر جملة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ...﴾ إلخ، أي: الشأنُ والأمرُ كلُّ نفسٍ لعليها حافظ، فمآل القراءتين واحد.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه.

٢ ـ أن السماء من أعظم آيات الله الدالة على قدرته.

٣ ـ أن النجوم التي تطرق في الليل من دلائل قدرة الله.

٤ ـ البيان بعد الإبهام في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾.

٥ ـ التهويل بالإبهام والاستفهام.

٦ ـ أن الطارق في الآية هو النجم الذي يخرق الظلام بنوره.

٧ ـ أن كل نفس عليها حافظٌ يحفظها ويحفظ عملها، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار].

٨ ـ الحث على العمل الصالح.

٩ ـ تهديد المكذبين بحفظ أعمالهم ومجازاتهم عليها.

١٠ ـ الإشارة إلى إمكان البعث بالقَسم وبالطارق؛ لما فيهما من الدلالة على القدرة.

* * *

ولما كان قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ مشعرًا بالجزاء على الأعمال = أمر الإنسان بالنظر فيما يدل على البعث الذي يكون الجزاء بعده، فقال تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هو الكافر بدليل قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾؛ أي: فلينظر نظرَ اعتبارٍ وتفكر ﴿مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾؛ أي: مِن أي شيء خلقه الله؟ و﴿مِمَّ﴾ أصلها: (مِنْ)، و(ما) الاستفهامية، حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، والاستفهام للتقرير والتنبيه والتذكير بقدرة الخالق ﷻ، وفي الآية إشارة إلى ضعف مبدأ الإنسان.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾؛ أي: من ماء منصب بسرعة وقوة في رحم المرأة، ثم بيَّن مكان خروجه، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾؛ أي: صلب الرجل؛ وهو عمود ظهره (الفِقْري)، وترائب المرأة - وهي عظام الصدر، حيث تكون القلادة - جمع تَريبة، كصحيفة وصحائف، هذا قول كثير من المفسرين.

وقال قتاده وغيره: من صلب الرجل ونحره[1]، وعليه فالترائب للرجل، وهو الموافق للفظ الآية ونظمها؛ فإن الله وصف الماء بأنه دافق، وهذا من شأن ماء الرجل، ولا ينافي ذلك أن الإنسان مخلوق من الماءين.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾؛ أي: إن الله قادر أكمل القدرة على إعادة الإنسان حيًا بعد موته، فلا يُعجزه، بل هو أهون عليه؛ لتقدم خلقه

---

(١) رواه ابن جرير الطبري (٢٤/ ٢٩٥).

الأول، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ متعلق بـ(رجْع)؛ أي: يَرجعه يوم القيامة، ﴿تُبْلَى﴾؛ أي: تُكشف وتختبر، و﴿ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ جمع سريرة، وهي كل ما يُسره الإنسان في قلبه؛ فإن الحساب يكون يوم القيامة على ما في القلوب: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات].

﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: ليس للكافر المكذِّب يوم القيامة ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يدفع بها العذاب ﴿وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: مِن الخارج، ينصره ويدفع عنه العذاب، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي، أي ليس له قوة على الإطلاق في ذلك اليوم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أمر الإنسان بالتفكر في مبدأ خلقه.

٢ ـ أن التفكر طريق من طرق المعرفة، ولذا أثنى الله على المتفكرين في خلق السماوات والأرض.

٣ ـ أن خلق الله للإنسان من الماء (المني) يدل على إحيائه وبعثه بعد موته، وهذا أحد أدلة البعث في القرآن، وقد ثُنِّيت فيه كثيرًا، كما في سورة عبس والمرسلات والقيامة وغيرها.

٤ ـ أن المني الذي يُخلق منه الإنسان هو الدافق، وهو الذي يخرج عن شهوة، وهو الذي يُوجب الغسل، لا المني الذي يخرج مِن بَرد أو غيره.

٥ ـ أن أهم مصادر هذا الماء هو الصُّلب الذي هو فقرات الظهر، والترائب التي هي عظام الصدر.

٦ ـ إثبات قياس الأَوْلى؛ إذ القادر على بدء الخلق هو على إعادته أقدر.

٧ ـ في الآيات عَلَمٌ من أعلام نبوته؛ حيث أخبر عن هذه الأمور الغيبية.

٨ ـ فيها شاهد لما يُسمى (الإعجاز العلمي).

٩ ـ أن الله قادر على رجع الإنسان؛ أي: إحيائه وبعثه بعد موته.

١٠ ـ أن وقت رجوع الإنسان هو وقت القيامة، يوم تبلى السرائر وتكشف.

١١ ـ أن الإنسان الكافر يوم القيامة ليس له أي قوة على دفع العذاب، وليس له أي ناصر يخلصه.

١٢ ـ أن المعول يوم القيامة على السرائر والبواطن.

***

ولما بيَّن الله تعالى أمر المعاد والبعث أقسم على صدق هذا الكتاب، فقال سبحانه:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾﴾؛ أي: أُقسم بالسماء ذات الرجع، أي: المطر، من التسمية بالمصدر، فإنه مصدر رَجَع، وسمي

المطر رجْعًا تفاؤلًا؛ لأنه يعود ويتكرر، ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢﴾؛ أي: وأقسم بالأرض ذات الصدع، أي: الشَّق الذي يخرج منه النبات بعد نزول المطر عليها، وفي هذا تذكير بنعم الله، وتنبيه إلى قدرته تعالى على إحياء الموتى، ويؤيد ذلك الجناسُ بين ﴿رَجْعِهِۦ﴾ و﴿ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾.

وذِكْر المطر والنبات إشارة إلى دليل آخر على البعث، وهو إحياء الأرض بعد موتها، ومجيء هذين الدليلين معًا ـ خلق الإنسان مِن ماء، وإحياء الأرض بعد موتها ـ كثير في القرآن، كما في سورة عبس، قال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ [عبس]، وسورة الواقعة من قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ [الواقعة] الآيات، وسورة الحج في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ هذا جواب القسم، وهو المقسم عليه، أي: إن القرآن لقول فصل، أي: يفصل بين الحق والباطل، والإخبار بالمصدر لبيان بلوغه الغاية في ذلك، كأنه الفصل نفسه، ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾ تأكيد لما قبله، أي: ليس هو باللعب، بل جِدٌّ كلُّه؛ لأنه كلام رب العالمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ الجملة مستأنفة؛ فليست داخلة في جواب القسم، و(الكيْد) هو التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم، فهو بمعنى المكر، وإن كان لكل منهما دلالة، ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: الكفار المكذبين للرسول ﷺ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾؛ أي: كيدًا عظيمًا لإطفاء نور الإسلام، وإيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وصرف الناس عن الإيمان، ﴿وَأَكِيدُ

كَيۡدٗا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: كيدًا عظيمًا؛ أي: أجازيهم على صنيعهم ذلك بكيد أعظم من كيدهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف]، والمراد عذاب الدنيا أو القيامة.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الفاء هي الفصيحة؛ أي: إذا كان الأمر كذلك فمهل الكافرين، أي: أَنظرهم ولا تتعجل هلاكهم، وهذا قبل الإذن بالقتال، ووضعُ (**الكافرين**) موضع الضمير؛ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بعلة التهديد، ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إمهالًا قليلًا، و(رويدًا) تصغير رُود بوزن عُود، تقول العرب: «فلان يمشي على رُود»، أي: على مهل، ويصغرونه على رُوَيد.

وفي الآية تثبيت للنبي ﷺ والمؤمنين، ووعد بالنصر، وتهديد للكافرين، وقوله: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾ تأكيد لفظي للجملة السابقة مع تغيير البِنية؛ أعني في (مهلهم) و(أمهلهم)؛ فإن ذلك فيه زيادةُ التثبيت؛ لأن المعنى الواحد إذا عُبِّر عنه بلفظين مختلفين كانا كالمعنيين المختلفين، وهذا من البلاغة بمكان، وهو معروف في كلامهم، يريدون به إشباع المعنى والاتساع في الألفاظ، قال الشاعر:

وقــدَّدتِ الأديــمَ لــراهِــشِـيــه ... وألـفَى قـولـهـا كـذبًـا ومـيـنـا[1]

والمين هو الكذب، وقول الآخر:

حُيِّيتَ مِن طَلَلٍ تقادَم عهدُه ... أقوى وأقفرَ بَعْدَ أمِّ الْهَيْثَم[2]

الإقواء والإقفار معناهما واحد.

(١) لعدي بن زيد في ذيل ديوانه (ص: ١٨٣).
(٢) لعنترة من معلقته، في ديوانه (ص: ١١٨)، وهو من معلقته المشهورة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من آيات الله ونعمه رَجْعَ السماء بالمطر.

٢ ـ أن من آيات الله ونعمه تصدعَ الأرض بالنبات.

٣ ـ أن القرآن حق.

٤ ـ أن من صفات القرآن الفصل بين الحق والباطل والهدى والضلال، ولذا سُمي فرقانا.

٥ ـ الرد على المكذبين بالقرآن الواصفين له بأنه هزل.

٦ ـ ذم الهزل في الكلام.

٧ ـ أن الكفار يكيدون للرسول ﷺ وللمؤمنين كيدًا عظيمًا؛ أي يمكرون.

٨ ـ أن الله يكيد الكافرين كيدًا عظيمًا.

٩ ـ الجزاء من جنس العمل.

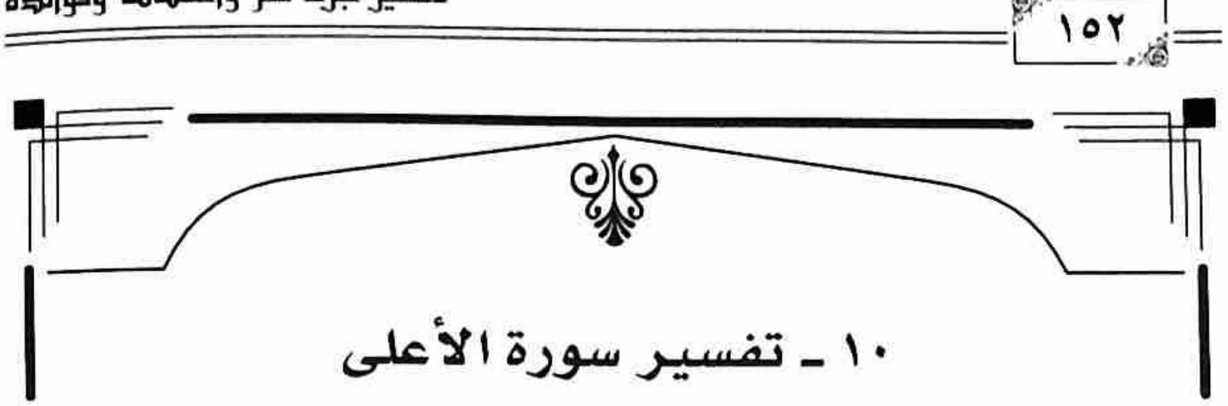
١٠ ـ أن الله يوصف بالكيد، وهو المكر، كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال]، ففيه:

١١ ـ الرد على الجهمية ومن وافقهم من نفاة الصفات.

١٢ ـ إمهال الله للكافرين استدراجًا لهم.

١٣ ـ أمر الله لنبيه بالصبر وإمهال الكافرين، وذلك في مكة قبل الإذن بالقتال، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج].

۞ ۞ ۞



١٠ ـ تفسير سورة الأعلى

هذه السورة مكية، وكان النبي ﷺ يقرأ بها بعد الفاتحة في الركعة الأولى من صلاة الجمعة وصلاة العيدين[١]، وفي الركعة الأولى من الوتر إذا أوتر بثلاث[٢]، وهي تسع عشرة آية، الخمس الأولى منها تضمنت الأمر بتسبيح اسمه سبحانه، وذكر بعض صفاته تعالى وأفعاله.

وتضمنت الآيات من (٦) إلى (٩) الامتنان من الله على رسوله عليه الصلاة والسلام والبشرى له بإقرائه القرآن، فيحفظه ولا ينساه إلا ما شاء الله، وبتيسيره للطريقة اليسرى، كما تضمنت أمره ﷺ بتبليغ القرآن والتذكير به ما دام التذكير ينفع.

وتضمنت الآيات من (١٠) إلى آخر السورة بيان طريقي الناس بعد التذكير وعاقبة كل منهما، وتوبيخ المؤثرين للدنيا على الآخرة التي هي خير وأبقى، والإخبار أن هذه المعاني مذكورة في صحف إبراهيم وموسى.

---

(١) ينظر: ما أخرجه مسلم (٨٧٨)؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: ما أخرجه أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (١٦٩٩)، وابن ماجه (١١٧١)؛ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وصححه ابن حبان (٢٤٣٦)، وابن القطان في «الوهم والإيهام» (٢٨٣٤)، وقال الحاكم (٣٠١٦): «إسناده صحيح».

الآيات:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى].

التفسير:

قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولأمته، أي: نزه ربك عن النقائص والعيوب، وعن كل ما لا يليق به تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وذِكْر الاسم يدل على أن التسبيح يكون بالتلفظ باسم الرب باللسان[1]، فينزه العبد ربه بلسانه كما يُنزِّهه بجنانه.

﴿ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ صفة لـ﴿رَبِّكَ﴾، وهو اسم تفضيل؛ أي: الأعلى على كل شيء بجميع أنواع العلو؛ ذاتًا وقدرًا وقهرًا، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾؛ أي: خلق جميع المخلوقات بعد العدم فأتقن خلقها، وجعلها مستوية في أحسن تقويم، وفي هذا إشارة إلى كمال قدرته تعالى وعلمه وحكمته، والفاء للترتيب والتعقيب، وحَذْفُ مفعولي: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿سَوَّى﴾؛ لإفادة التعميم.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ مِن التقدير؛ أي: جعل لكل شيءٍ قدرًا في: ذاته، وصفته، وفعله، وأجله، وكلِّ ما يتعلق به، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان]، ﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾؛ أي: هدى كلَّ

---

(١) قال ابن القيم: «عبَّر لي أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة، فقال: «المعنى: سبح ربك ذاكرًا اسمه». وهذه الفائدة تساوي رحلة، لكن لمن يعرف قدرها؛ فالحمد لله المنّان بفضله، ونسأله تمام نعمته». بدائع الفوائد (١/٣٦).

مخلوق إلى ما يناسبه؛ فهدى الإنسان إلى الخير والشر، والأنعام إلى مصالحها وعلَّمها أسباب بقائها، كما قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، وحذف مفعولي ﴿قَدَّرَ﴾ و﴿هَدَىٰ﴾؛ للدلالة على العموم، فيعم كلَّ مَا قدَّره وكلَّ مَن هداه.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾؛ أي: أنبت ما ترعاه البهائم ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾؛ أي: بعد أنْ كان أخضر رطبًا ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: يابسًا أسود؛ من الحُوَّة، وهي سُمرة تقرب من السواد، وهو في كلا الحالين عَلَف للدواب.

وفي الآيات الكريمة وقع العطف بالواو مع أن الموصوف واحد، وذلك لتغاير الصفات، وهذا معروف في كلامهم، فإن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى، تنزيلًا لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات، كما قال الشاعر:

إلى المَلكِ القَرْمِ وابْنِ الهُمَا م وليْثِ الكتيبَةِ في المُزْدَحَمْ[1]

وأكثر ما يكون هذا العطف بالواو في الأسماء الموصولة، كما في هذه السورة، وكما في أول سورة المؤمنون.

الفوائد والأحكام:

١ ـ الأمر بتسبيحه تعالى مع ذكر اسمه سبحانه، وقد أمر النبي ﷺ أن يكون هذا التسبيح في السجود، حيث قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[2]

---

(١) البيت غير منسوب في معاني القرآن للفراء (١/ ١٠٥) والكشاف (١/ ١٣٣) وفي غيرهما من كتب التفسير، ولا نسب أيضًا في كتب اللغة.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)؛ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. صححه ابن حبان (١٨٩٨)، والحاكم (٣٧٨٣)، ووافقه الذهبي، وحسن إسناده النووي في المجموع (٣/ ٤١٣).

٢ ـ وجوب تسبيح أسمائه تعالى عن كل إلحاد.

٣ ـ وجوب تسبيحه تعالى عن كل نقص وعيب.

٤ ـ إثبات الربوبية لله تعالى، لقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ وهي الربوبية الخاصة للعابدين والذاكرين، كما تفيده الإضافة.

٥ ـ إثبات الربوبية العامة، كما يفيده ما ذُكر من الأفعال في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ الآيات.

٦ ـ أن من أسمائه سبحانه (الأعلى)، وهو أبلغ مِن (العليّ)، فله سبحانه العلو بكل معانيه.

٧ ـ أنه تعالى خالق كلِّ شيء ومُسويه.

٨ ـ أنه تعالى هو الذي قدَّر مقادير الخلق.

٩ ـ أنه تعالى هو الهادي لخلقه؛ الهداية العامة والخاصة، الكونية والشرعية.

١٠ ـ توقف اهتداء العبد على هدى الله، كتوقف وجوده على خلق الله له.

١١ ـ أنه تعالى هو الذي أخرج النبات الذي ترعاه بهيمة الأنعام.

١٢ ـ أنه تعالى هو الذي يجعل النبات بعد الخضرة والنُّضرة غثاء أصفر، وأحوى؛ أي: أسود.

١٣ ـ الامتنان من الله على عباده؛ بأن خلقهم فسواهم وهداهم، وأخرج ما ترعاه بهائمهم.

١٤ ـ الإشارة إلى قدرته تعالى على البعث بذكر دليلين: خلقِ الناس، وإخراجِ النبات.

١٥ ـ إثبات كمال قدرته ﷻ.

١٦ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه.

١٧ ـ الرّد على نفاة الأفعال؛ مِن الجهمية ومَن تبعهم.

ولما ذكر الله دلائل قدرته ووحدانيته وهدايته العامة ذكر فضله وإنعامه على رسوله ﷺ، وهدايته الخاصة له وإنعامه عليه بالوحي، فقال سبحانه:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾؛ أي: سنقرئك أيها النبي القرآن قراءةً فلا تنساه، أي لا يذهب مِن صدرك، والذي يُقرئ النبي ﷺ مباشرة هو جبريل عليه السلام، وأضاف الله الإقراء إلى نفسه المقدسة لأنه الآمر بذلك.

وفي الآية ـ مع ما سبق ـ التفاتٌ مِن الغَيبة إلى التكلم؛ لأنه مقام وعدٍ وضمان، ولهذا أكده بالسين.

وفي الآية بشارة من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه سيقرأ القرآن ويحفظه ولا ينسى منه شيئًا، وتلك معجزة له عليه الصلاة والسلام؛ فمع أنّه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وليس راوية للأشعار والأخبار، فإن الله يسر له حفظ القرآن ووعده باستمرار الوحي ـ كما يفيده الفعل المضارع ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ - وقد وقع ذلك حقًا، وأمَّنه مِن نسيانه، مع أن القرآن نفسه معجزة، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقرأ مِن الليل فقال:

«يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آيةً، كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا»(١)، والله تعالى لا يُقرُّه على النسيان.

و(لا) في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ نافيةٌ وليست ناهية؛ لثبوت الألف في المصاحف، ولأن الإنسان لا يُنهى عن النسيان؛ لأن ذلك خارج عن الاستطاعة فلا ينهى عنه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلا ما شاء الله أن تنساه، وهو ما قضى الله بنسخه لحكمة، وأن ترفع تلاوته وحُكمه، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾؛ أي: يعلم ما يعلنه العباد من الأقوال والأفعال، وما يخفونه، فالله لا تخفى عليه خافيه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾؛ عطف على قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾، وجملة ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ معترضة للتعليل، و(اليُسرى) مؤنث الأيسر؛ أي: نوفقك توفيقًا مستمرًا للطريقة التي هي أيسر وأسهل، وهي كل ما فيه خيرٌ له ﷺ ولأمته في الدنيا والآخرة، وتخفيفٌ عليهم، ومن ذلك أن الله حفظ له الوحي، واختار له الحنيفية السمحة، وجعل دينه يسرًا لا حرج فيه.

قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ الفاء هي الفصيحة، أي: حيث هيأ الله لك ذلك الإقراء والتيسير فذكر الناس جميعًا بالقرآن؛ أي: دُم على التذكير والوعظ، وخُصَّ بعنايتك مَن ينتفع بموعظتك، ومن عداهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق].

---

(١) البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨)؛ من حديث عائشة ﵂.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القرآن وحي من عند الله، لا مِن إنشاء الرسول ﷺ.

٢ ـ بشارة النبي ﷺ بحفظه للقرآن، فلا ينساه.

٣ ـ أن مرد هذا الحفظ والنسيان إلى مشيئة الله تعالى وعلمه وحكمته.

٤ ـ أن الله قد يشاء أن يُنسي النبي ﷺ بعض الآيات، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦].

٥ ـ جواز النسخ في القرآن.

٦ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٧ ـ إثبات إحاطة علمه تعالى بالجهر والإخفاء.

٨ ـ بشارة الله لنبيه ﷺ أن ييسره لأيسر الطرق فيما شرع له.

٩ ـ تيسير حفظ القرآن وفهمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

١٠ ـ أن شريعة النبي ﷺ قائمة على اليسر ورفع الحرج.

١١ ـ أن مِنْ شكر الله على نعمة العلم: التعليم والتذكير.

١٢ ـ وجوب تبليغ القرآن والتذكير به، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق].

١٣ ـ أن التذكير بالقرآن في نفسه منفعة للمُذَكِّر، وعلى هذا فلا مفهوم للشرط في الآية. وإن كان المراد منفعة المذَكَّر بالتذكر أو المنفعة العامة، فيدخل فيها البيان وإقامة الحجة، فيكون للشرط مفهوم. وعليه؛ فإذا لم يحصل تذكر وقد قامت الحجة فلا يشرع التذكير حينئذٍ، خصوصًا إذا حصل من المعرضين عناد وشر وعدوان، والله أعلم.

لما أمر الله نبيه بالتذكير بيَّن تعالى أقسام الناس بعد هذا التذكير، فقال سبحانه:

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى].

التفسير:

قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: سينتفع بهذا التذكير والموعظة من يخاف الله، والخشية نوع من الخوف لكن يصاحبها تعظيم للمخوف منه وعلم به، فهي أخص من الخوف، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾؛ أي: ويعرض عن الموعظة الأشقى؛ أي: البالغ الشقاوة، وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ [هود: ١٠٦]، والشقاء ضد السعادة، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود] وحقيقة الشقاوة مقاساة أنواع الآلام الجسدية والنفسية، وأعظم ذلك ما يكون لأهل النار، ولذا قال هنا في وعيد الأشقى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: العظمى، وهي نار الآخرة، فيدخلها ويقاسي حرها، وسمَّاها كبرى ـ وهو اسم تفضيل ـ بالنسبة إلى نار الدنيا، قال ﷺ: «**ناركم جزءٌ مِن سبعين جزءًا مِن نار جهنم**»(١).

قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة هنيئة فينتفع بها، فحياته في النار شقاء وعذاب، قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والعطف بـ(ثم) للترتيب والتراخي، إشارة ـ والله أعلم ـ إلى الخلود في النار؛ لأنهم لو خرجوا منها لخرجوا أمواتًا أو أحياء، فنجوا من العذاب في كلٍّ من الحالين.

ولما ذكر وعيد الأشقى المعرض عن الذكرى ذكر وعد الذي يخشى ويتذكر بالذكرى، فزكى نفسه بالإيمان والتوحيد والذكر والصلاة، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾؛ أي: قد فاز بكل مراد، وذكر الفلاح بصيغة الماضي لتحقق وقوعه، وقوله: ﴿تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾؛ أي: أصلح نفسه، وطهرها من الشرك وسائر المعاصي، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾؛ أي: وذكر اسم ربه بقلبه ولسانه، وذكر الاسم للدلالة على الذكر باللسان، كما تقدم في أول السورة، وقوله: ﴿فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾؛ أي: صلى لربه الصلوات المفروضة والنافلة.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ **يحتمل** أن يراد به الذكر العام من التهليل والتسبيح والتكبير، مما يبعث على آداء ما افترض الله، وأعظم ذلك الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ [طه]، **ويحتمل** أن يراد به ذكرٌ خاص، وهو تكبيرة الإحرام التي يحصل بها الدخول في الصلاة، والآية عامة، وبهذا يظهر عطف الصلاة على الذكر بالفاء.

وقيل: المراد زكاة الفطر وصلاة العيد، وهذا بعيد؛ لأن السورة مكية، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر.

ثم وجه الخطاب إلى المكذبين، فقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝١٦﴾ بل للإضراب، أي: لنفي ما تقدم وتحقيق غيره، أي: لا تفعلون ما ذُكر من التزكي والذكر والصلاة مما هو سبب الفلاح، بل تفضلون الحياة الدنيا على الآخرة.

والخطاب للكافرين كما يدل عليه السياق، ويدل عليه أيضًا قراءة أبي عمرو: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ على الغيبة، ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: والحال أن الآخرة خير؛ لما فيها من النعيم المقيم والسرور الدائم ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: ولا يلحقها زوال، خلافًا للدنيا، فإنها فانية، فكيف يقدَّم الفاني على الباقي؟!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ المشار إليه ما تقدم من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ إلخ الآيات الأربع، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير، أي: إن معنى هذا الكلام مذكور في الصحف الأولى المتقدمة التي أنزلها الله على إبراهيم الخليل وموسى الكليم، وهما أفضل أولي العزم بعد محمد صلى الله عليهم وسلم، والقرآن مصدق لها، وذلك المعنى مما اتفقت عليه الشرائع كلها، ونظير هذه الآيات قوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ الآيات [النجم].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن المنتفعين بالتذكرة هم أهل الخشية، وهم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]، فيدخل في ذلك من تذكر مِن الكافرين فآمن واتبع الذكر، وكذا المؤمن إذا ذُكِّر فتذكر وازداد بالتذكير إيمانًا.

٢ ـ أنه لا يعرض عن دعوة الرسول ﷺ وتبصرته إلا أشقى الناس، وهو الكافر المصر على كفره.

٣ ـ أن عاقبة الكفر دخول النار التي أعدت للكافرين.

٤ ـ أن هذه العاقبة أعظم شقاءٍ وخزي: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

٥ ـ أن هذه النار المعدة للكافرين أكبر نار، وفي معناها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية].

٦ ـ أن الكافر في النار لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة سعيدة بل حياة شقاء.

٧ ـ أن من تذكَّر وزكى نفسه بطاعة الله ـ ومن أعظم ذلك الصلاة ـ فعاقبته الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٨ ـ توبيخ الله لمن يؤثر الدنيا على الآخرة.

٩ ـ أن أعظم الجهل والسفه إيثار حظوظ الدنيا الفانية على حظوظ الآخرة، التي هي خير وأبقى.

١٠ ـ أن المذموم هو إيثار الدنيا لا مجرد محبتها المحبة الطبيعية.

١١ ـ أن مِنْ كُتِب الله صحف إبراهيم وموسى.

١٢ ـ أن ما ذكر في هذه السورة من المعاني هو مذكور في تلك الصحف.

١٣ ـ فضل إبراهيم وموسى عليهما السلام.





١١ ـ تفسير سورة الغاشية

هذه السورة مكية، وكان النبي ﷺ يقرأ بها بعد الفاتحة في الركعة الثانية من صلاة الجمعة وصلاة العيدين(١)، وآياتها ستٌّ وعشرون؛ ففي الآية الأولى ذكر اسم من أسماء القيامة، وست آيات بعدها في وعيد الأشقياء، وتسع بعدها في شأن السعداء، وأربع بعدها في أظهر الآيات الكونية، والآيات الأخيرة في التذكير وبيان عاقبة المعرضين عن الذكرى، وأن مرد العباد كلهم لله. ولها شبه بسورة سبح اسم ربك الأعلى من وجوه:

١ ـ ذِكْر فريقي الأشقياء والسعداء، وما أُعد لهما في الآخرة، إلا أن ذلك مفصَّل في سورة الغاشية، كما في الآيات مِن أول السورة إلى الآية السادسة عشرة.

٢ ـ أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير.

٣ ـ وصف النار بالكبرى في الأعلى، ووصف عذابها بالأكبر في الغاشية.

الآيات:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ الخطاب للنبي ﷺ،

---

(١) سبق تخريجه في تفسير سورة (سبِّح).

وهو لأمته أيضًا؛ أي: أليس قد بلغك حديث الغاشية، وأصل الغاشية الداهية العظيمة، والمراد القيامة، سميت بذلك لأنها تغشى الناس جميعًا، أي: تغمرهم بأهوالها وشدائدها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج] الآية، و(الغَشْيُ) في الأكثر لا يكون إلا فيما يُكره، قال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ [طه].

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ للتقرير والتهويل والتشويق والتنبيه إلى أن هذا من الأحاديث العظيمة التي ينبغي أن يتحدث بها، وسمَّى الله القيامة في القرآن بأسماء كثيرة باعتبار صفاتها؛ تخويفًا وتحقيقًا: كالواقعة، والحاقة، والقارعة، والطامة، والصاخة.

﴿وُجُوهٌ﴾؛ أي: وجوه الكفار والمنافقين، وهي مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها في مقام التنويع، وقوله: ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ و﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ أخبار، وقدَّم ذكرَ أهل النار؛ لأنه أدخل في تهويل الغاشية.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَ إذْ غشيت القيامة، فالتنوين عِوض عن جملة محذوفة، ﴿خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾؛ أي: ذليلة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة].

وكني بـ(الوجوه) عن أصحابها؛ لظهور آثار الذل عليها، ﴿عَامِلَةٌ﴾؛ أي: في النار بجر السلاسل وحمل الأغلال ومكابدة الأهوال، ﴿نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾؛ أي: مجهدة متعبة، يقال: نَصِب ـ كـ (تعب) ـ نَصَبًا، إذا

عمل حتى تعب، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ عقوبة من الله لهم حيث تركوا الخشوع له والعمل في الدنيا.

﴿تَصْلَىٰ﴾؛ أي: تدخل وتباشر ﴿نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾؛ أي: شديدة الحر مما أحميت، يقال: «حَمِيَ التَّنور» إذا اشتد حره، فتلك الوجوه مستمرة في مقاساة حر النار البالغ النهاية، كما يفيده تنكير النار ووصفُها بالحامية.

قوله: ﴿تُسْقَىٰ﴾؛ أي: تلك الوجوه حين تطلب السُّقيا ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾: حارَّة؛ أي: مِن ماءِ عينٍ بلغت أَنَاها؛ أي: غايتها في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمٰن]، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

هذا شراب أهل النار، وأما طعامهم فقال فيه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ أصلًا، ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ وهو (الشِّبْرِق) اليابس: نباتٌ ذو شوك لا تقربه الدّواب لخبثه وسوء عاقبته، ثم هو ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾؛ أي: لا فائدة فيه، فلا ينفع البدن ولا يدفع غائلة الجوع، والمراد أن مِن طعام أهل النار نبتًا يشبه الضَّريع في عدم نفعه وغنائه، وإن لم يكن مثله في حقيقته، كما هو الشأن في سائر حقائق الآخرة مع حقائق الدنيا، بل هو طعام غاية في الخبث وفي سوء تجرعه.

والقصر في الآية للتأكيد، فهو إضافي؛ أي: نسبي، بدليل أنه جاء في القرآن أن من طعام أهل النار الغسلين والزقوم.

ويحتمل أن المعذبين على طبقات، والعذاب ألوان؛ فمنهم مَن طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، لكل باب منهم جزء مقسوم، نسأل الله النجاة بمنِّه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ التنبيه إلى عظم شأن القيامة.

٢ ـ أن من أسماء القيامة الغاشية.

٣ ـ أن الناس يوم القيامة فريقان أشقياء وسعداء.

٤ ـ التعبير عن الفريقين بالوجوه.

٥ ـ ذكر أصناف عذاب الأشقياء؛ من الذل، والعمل الشاق، وصلي النار، والسقي من الحميم، وطعام الضريع.

٦ ـ أن لأهل النار فيها طعامًا وشرابًا، وبئس الطعام والشراب!

٧ ـ التنبيه إلى شدة حرارة جهنم، لقوله: ﴿حَامِيَةً ۝٤﴾ و﴿ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

٨ ـ أن من عذاب الآخرة ما هو حسي من المطاعم والمشارب والأغلال، ففيها:

٩ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن النعيم والعذاب أمور رُوحانية.

١٠ ـ أن حقيقة نار الآخرة وما فيها وأحوال أهلها لا تماثل حقائق ما في الدنيا.

هذا كله على القول الراجح في تفسير الآية، وأنها في وصف حال القيامة.

ولما ذكر الله أحوال الكافرين وما أعده لهم من العذاب والنكال في النار، أتبعه بذكر أحوال المؤمنين، وما هيأ لهم من النعيم في الجنة، جمعًا بين الزجر والترغيب، فإن من الناس من لا يجدي فيه إلا الوعيد، ومنهم من لا يدفعه إلا الوعد، فقال سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ [الغاشية].

التفسير:

قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾؛ أي: ووجوه، وهو مبتدأ، و﴿نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ و﴿رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ و﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ أخبار.

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ هي وجوه المؤمنين، يومئذْ تغشى الناس القيامة، ﴿نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾؛ أي: وضيئة مبتهجة بثواب ربها متنعمة به في الجنة، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾؛ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لما لقيت من ثمرته، فاللام متعلقة بـ ﴿رَاضِيَةٌ ۝٩﴾، والتقدير: راضية لسعيها، واللام لتقوية التعدية، لضعف اسم الفاعل عن العمل في الفعل، ولضعفه أيضًا بتقديم المعمول.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾؛ أي: مرتفعة مكانًا وقدرًا، حسًّا ومعنًى، وتنكير جنة للتعظيم، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾ الخطاب لكل من يصلح له، أي: لا تسمع فيها لغوًا، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾ [الواقعة].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب: ﴿لَّا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ ۝١١﴾ ببناء الفعل للمفعول ورفع (لاغية)، وفي الآية دلالة على أن الجنة دار كرامة بريئة من الباطل، وفيها إشارة إلى أن المؤمن عليه أن ينأى بنفسه عن اللغو والباطل.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ تتدفق على وجه الأرض من غير أخدود إلى حيث يريد أهلها، لا ينقطع ماؤها، والمراد الجنس؛ أي: عيون. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: عالية بنفسها وبما عليها من الفرش الوثيرة، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: معدة بين أيديهم فلا تُرفع، فيشربون بها متى شاؤوا من أشربة الجنة، و(الأكواب) جمع كُوب، وهو الكوز الذي لا عروة له، فهو صالح للشرب من كل جهة، ﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع نُمرقة، وهي الوسادة يُستند إليها ويُتَّكأ عليها، ﴿مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: بعضها إلى جانب بعض، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ أي: بُسط كثيرة فاخرة، جمع زَرْبِيَّة، ﴿مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: مبسوطة ومفرَّقة في كل مكان من مجالسهم، وهذا من كمال النعيم والرفاهية، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ جواز حذف حرف العطف؛ الواو.

٢ ـ أن وجوه المؤمنين يوم القيامة تكون ناعمة؛ أي: يظهر عليها أثر النعيم بالبشر والسرور.

٣ ـ أن المؤمنين في ذلك اليوم راضون سعيَهم، وهو عملهم الصالح، لأنه أفضى بهم إلى السعادة.

٤ ـ أن المؤمنين يصيرون يوم القيامة إلى الجنة التي أعدها للمتقين.

٥ ـ أن الجنة عالية، وهي درجات، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه].

٦ ـ أن الجنة خالية من لغو الكلام، فلا يسمع فيها إلا ما هو سالم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

٧ ـ أن في الجنة عيونًا جارية بأنواع الشراب.

٨ ـ أن في مجالس الجنة سررًا مرفوعة؛ أي: رفيعة، وأكوابًا موضوعة في المجالس؛ زينةً وإعدادا، ونمارق؛ أي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعضها، وزرابي مبثوثة؛ أي: مبسوطة.

٩ ـ أن في الجنة ما تلذه الأسماع والعيون.

١٠ ـ أن من نعيم الجنة أنواع الشراب.

١١ ـ أن من نعيم الجنة أثاث المجالس.

١٢ ـ أن من نعيم الجنة ما هو حسي؛ من المطاعم والمشارب والأشجار والقصور والأنهار، ففيها:

١٣ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن النعيم والعذاب أمور رُوحانية.

١٤ ـ التشويق إلى الجنة بذكر ما فيها من أصناف النعيم. نسأل الله من فضله.

وبعد ذِكر القيامة ومصير الأشقياء والسعداء، انتقل السياق إلى توبيخ المعرضين عن الإيمان وعن النظر في آيات الله الدالة على توحيده وقدرته على البعث، وذكر منها أربع آيات: خلق الإبل، ونصب الجبال، ورفع السماء، وبسط الأرض.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير بآيات الله الكونية وآياته الشرعية، وما تضمنته من الوعد والوعيد، وأخبره أن هذا هو وظيفته ﷺ، وختمت السورة بأن إليه سبحانه المآب، وعليه الحساب، قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية].

التفسير:

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ بأبصارهم نظر تفكر واعتبار، والاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ أي: أأعرضوا[1] فلا ينظرون ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ وهو الحيوان المعروف، والإبل جمع لا واحد له من لفظه، ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ هذا الخلق البديع العجيب في عظم جسمها، وشدة قوتها، بحيث تُحمل عليها الأحمال وهي باركة، ثم تقوم بيسر، وهي آية في الصبر على الجوع والعطش أيامًا، وترعى كل نبات، كثيرة المنافع، بحيث يشرب لبنها ويؤكل لحمها ويلبس من وبرها، وتنقاد للكبير والصغير، وهي أنفس أموال العرب.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: بلا عمد، وما زينت به من النجوم والشمس والقمر، ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ الشامخة ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: جعلت منتصبة على وجه الأرض نصبًا ثابتًا، فصارت لها كالأوتاد، ويلوذ بها الناس، ويتخذونها أعلامًا للطرق، ويتخذون منها بيوتًا، ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: بُسطت ومهدت، حتى صارت صالحة للمشي عليها، وإقامة المساكن فوقها، وهذا لا ينافي كونها كروية؛ لأنها واسعة وسطحها مختلف ارتفاعًا وانخفاضًا.

---

(١) هذا على مذهب الزمخشري، وهو أنْ تكون الفاء عطفًا على محذوف، وهو مناسب في بعض الآيات، كما هنا، ومذهب الجمهور أن الهمزة مقدمة من تأخير، والأصل: فألا، لكن قدمت الهمزة لأن لها الصدارة.

فإنهم لو نظروا إلى كل ذلك نظر اعتبار وتفكر، لأيقنوا أن الله الذي خلقها قادر على بعثهم بعد الموت للحساب والجزاء، وخُصت هذه الأربعة بالذكر؛ لأنهم يشاهدونها دائمًا بأعينهم، وابتُدئ بالإبل لأنها ـ والله أعلم ـ أشد ملابسة لهم من غيرها، والاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ﴾ في المواضع الأربعة للتعجيب والتعظيم.

ولما ذكر الله الأدلة على التوحيد والقدرة على البعث أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير، فقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء هي الفصيحة؛ أي: إذا كان الأمر ما علمت فذكِّر؛ أي: عظهم، وداوم على التذكير ولا تيأس ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: وظيفتك التذكير فقط، ولست هاديًا لهم، فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: لست عليهم بمسلَّط؛ أي: لست بذي سلطة فتجبرهم على الإيمان، بل لله الولاية عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ الاستثناء منقطع؛ أي: لكن مَن أعرض عن الإيمان وأصر على كفره، و﴿مَن﴾ مبتدأ مضمَّنٌ معنى الشرط، ولذا قرن الخبر بـ(الفاء) في قوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: عذاب النار، ووصفه بالأكبر؛ لأنه قد بلغ الغاية في الشدة، وكل عذاب نالهم في الدنيا فهو دونه.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: رجوعهم بعد الموت إلينا لا إلى غيرنا ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ يوم القيامة، فنحاسبهم على كفرهم، ولا بد من ذلك، كما تقتضيه الحكمة، وتدل عليه صيغة الوجوب (على)، فهو عهد أخذه الله على نفسه ولن يخلفه، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

﴿إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، وفي الآيتين وعيد وتهديد للكافرين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن خلق الإبل من عظيم الآيات، كيف هي مهيأة في خلقتها للركوب والحمل، ومذللة للإنسان، مع ما فيها من المنافع أكلًا وشربا.

٢ ـ أن مِن آيات الله خلق السماوات ورفعها وتزيينها بالنجوم.

٣ ـ أن من آيات الله نصب الجبال، وما في ذلك من تثبيت الأرض، فهي لها كالأوتاد، وفيها من المنافع ما أودعه الله فيها من المعادن المختلفة.

٤ ـ أن من آيات الله سطح الأرض؛ وهو بسطها للقرار عليها، ولذلك سُميت: (مهادًا)، و(فراشًا)[1]، وفي جوفها وسطحها ما لا يحصى من النعم والآيات، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات].

٥ ـ وجوب التذكير بالله وآياته ووعده ووعيده.

٦ ـ أن التذكير عام لجميع الناس، كما يدل عليه حذف المفعول به في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ [الأعلى: ٩].

٧ ـ أن التذكير وظيفة الرسول ﷺ بالتبشير والإنذار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

٨ ـ أن الرسول ﷺ ليس مسلطًا على الكفار بالقتل والقتال. وعلى هذا؛ فتكون الآية منسوخة بآيات الجهاد.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)﴾ [النبأ]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩)﴾ [نوح].

٩ ـ أن الرسول ﷺ ليس مسلطًا على الكفار بالإكراه على الإسلام، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١٠ ـ أن مَن أعرض عما جاء به الرسول الله ﷺ، وكذب به؛ فسيعذبه الله العذاب الأكبر، وهو عذاب النار الكبرى، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى].

١١ ـ أن جميع العباد راجع إلى الله، وذلك بالموت، ثم بالبعث من القبور.

١٢ ـ إثبات البعث، والحساب، والجزاء بالثواب والعقاب.

١٣ ـ إثبات الجنة والنار.

١٤ ـ أن الله أوجب على نفسه حساب الخلق، لقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

١٥ ـ تقديم الغاية على الوسيلة في الذكر؛ لأنها أهم، يدل لذلك تقديم الوعد والوعيد على الأمر بالتذكير والوعد بالحساب.





١٢ ـ تفسير سورة الفجر

هذه السورة مكية، وآياتها ثلاثون، افتتحت بخمسة أقسام، وأشير فيها إلى ثلاث أمم من ذوي الكفر والطغيان: عاد، وثمود، وفرعون وقومه.

كما أشير إلى بعض أخلاق الإنسان الجاهل والكافر، وما جُبل عليه.

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال القيامة: من دكِّ الأرض، ومجيء الربّ للفصل، والمجيء بالنار، وندم الكافر، ومآل النفس المطمئنة، وهو الدخول في عباد الله وأوليائه، وفي جنة الله.

الآيات:

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر].

هذه الآيات اشتملت على إقسامه تعالى بخمسة أمور؛ وهي: الفجر، والليالي العشر، والشفع، والوتر، والليل إذا يسر. وهي أمور عظيمة، يدل على عظمتها الإقسام بها.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾؛ أي: أُقسم بالفجر الذي هو أول النهار، وهو الفجر الصادق، وأصل الفجر الشَّق، سُمي بذلك؛ لأنه ينفجر فيه الضوء فيشق الظلام.

وأقسم الله به؛ لأنه من آيات الله الباهرة، ومن مخلوقاته العظيمة الظاهرة، حيث تعود الأرواح إلى الأجساد بعد النوم، وذلك مذكر بالبعث، وتدب الحياة في الكون بعد السكون والظلمة وينتشر النور، وتتعلق بطلوع الفجر أحكام شرعية؛ كالصلاة والصوم، وقد تمدح الله بكونه خالق الفجر؛ فقال سبحانه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وأقسم به في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر]، وقال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير].

وقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾؛ أي: وأقسم بالليالي العشر، وهي عشر ذي الحجة، والمراد: الليالي وأيامها، والعرب تطلق اليوم وتريد اليوم والليلة معًا، وتطلق الليلة وتريد اليوم والليلة معًا، هذا هو الأصل في إطلاق كل من اليوم والليلة، إلا أن يمنع من ذلك قرينة، ومن ذلك الأيام في آيات الصيام؛ فإن المراد الأيام دون الليالي، كقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وأقسم الله بهذه العشر لشرفها، وخصها بالتنكير؛ لأنها عظيمة، حيث تؤدَى فيها مناسك الحج إلى بيت الله الحرام، الذي هو أحد أركان الإسلام، ولأن هذه العشر بأيامها موسم للطاعات، إذ تضاعف فيها الحسنات، كما قال ﷺ: «**ما مِنْ أيَّام العملُ الصَّالحُ فيها أحبُّ إلى اللهِ من هذه الأيام**»؛ يعني: أيامَ العشر، قالوا: يا رسُولَ الله، ولا الجهادُ في سبيلِ الله؟ قال: «**ولا الجهادُ في سبيلِ الله، إلا رجلٌ خَرَجَ بنفسِه ومالِه، فلم يَرجعْ من ذلك بشيءٍ**»[١].

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٣٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأصله في البخاري (٩٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾؛ أي: وأُقسم بكل شيء في الوجود، و(أل) في الكلمتين للعموم والاستغراق، فيشمل كل شفع وكل وتر؛ لأن الأشياء إما شفع أي زوج، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أو وتر؛ أي: فرد، وهو الشيء المفرد، يقال: وَتْر ووِتْر، بفتح الواو وكسرها، وبهما قرئت الآية.

وقيل: ﴿ٱلْوَتْرِ﴾ هو الله تعالى، و﴿ٱلشَّفْعِ﴾ المخلوقات.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾؛ أي: وأقسم بالليل إذا ذهب سائرًا في الظلام حتى ينقضي، والتقييد بوقت سريانه (وهو سيره حتى ينقضي)؛ لأن غشيان الليل ثم انقشاع الظلمة وظهور الصبح دال على كمال قدرة الله وتمام نعمته، فالليل وقت للراحة، والنهار وقت لكسب الرزق. وقوله: ﴿يَسْرِ ۝٤﴾ بحذف الياء وصلًا ووقفًا؛ لموافقة رؤوس الآي.

وجواب القسم هو ما يفهم من القسم بها من عظمتها، لدلالتها على توحيد الله، وبديع صنعه وسعة قدرته وعلمه وحكمته ورحمته، فالله ﷻ ينبه إلى ما في هذه المذكورات من دلالات لا يدركها إلا ذوو العقول النيرة، ولذا قال: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾؛ أي: أليس في هذا القسم العظيم مَقنع ﴿لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾؛ أي: لذي عقل وبصيرة؟! والاستفهام للتقرير وتفخيم المقسم به، وسُمي العقل حِجرًا؛ لأنه يمنع صاحبه من الوقوع في المذمومات فيما يضر أو ما لا ينفع.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن طلوع الفجر من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته، ومن نِعمه الدالة على رحمته، وهذا على القول بأن ﴿الْفَجْرِ﴾ هو الصبح مطلقًا، وعلى القول بأنه فجر يوم النحر، ففيه الدليل على فضل ذلك اليوم.

٢ ـ فضل الليالي العشر، وهي عشر ذي الحجة.

٣ ـ أن كل شفع ووتر في المخلوقات هو من آياته الدالة على قدرته تعالى وحكمته.

٤ ـ أن من أسماء الله الوتر، على القول بأنه تعالى هو المراد بالوتر في الآية، والشفع المخلوقات.

٥ ـ أن الليل من آياته تعالى ونعمه على عباده، وقد أقسم الله به في كل أحواله، بإقباله وإدباره، وبسيره.

٦ ـ أن في هذه الأقسام مقنعًا لذي العقل الراجح.

٧ ـ مدح العقل وأصحاب العقول، وهم أولو الألباب.

***

ولما ذكر الله بعضًا من مخلوقاته العظيمة مقسمًا بها؛ أتبع ذلك بالتذكير بما فعله سبحانه من العذاب والنكال بثلاث أمم طاغية، تهديدًا لكفار مكة أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، وموعظة للمؤمنين ليزيدهم ذلك ثباتًا، فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتقرير والتعجيب، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح للخطاب؛ أي: ألم تعلم، والرؤية قلبية بمعنى العلم، وأطلقت الرؤية هنا على العلم؛ لأن أخبار عاد وثمود

وفرعون كانت معروفة عندهم، فكأن المخاطب يراها بعينه، ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾؛ أي: بعاد قومِ هود عليه السلام، وهي قبيلة عربية بائدة، كانت مساكنهم بالأحقاف جنوبي جزيرة العرب بين عُمان وحضرموت، والاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾ للتهويل، والجملة معمول لفعل الرؤية؛ أي: ألم تر كيفية فعل ربك بعاد.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾؛ ﴿إِرَمَ﴾ بدل من عاد لا عطف بيان، لأنهم عرفوا بعاد أكثر مما عرفوا بإرم، وإرم هو جد قبيلة عاد، وسميت القبيلة به، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة، ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾؛ أي: صاحبة الأعمدة، فالعِماد مفرد عَمَد، وهو العمود الذي ترفع عليه الخيام وبيوت الشعر، والمراد أنهم كانوا يتخذون الخيام حين ينتجعون مواقع الغيث ويتتبعون الكلأ، وهم مع ذلك يأوون إلى مساكن، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ [الشعراء]؛ أي: قصورًا، على أحد التفسيرين.

﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾؛ أي: لم يخلق الله مثل تلك القبيلة في الشدة وعظم الأجسام، وقد ذكَّرهم نبيهم هذه النعمة بقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وكانوا يفخرون بذلك ويقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ولكنهم كفروا فأهلكهم الله، ولم تغن عنهم قوتهم، كما قال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣﴾ [محمد].

قوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ (ثمود) قوم صالح، وقد سُموا باسم جدهم، ومساكنهم بين المدينة والشام، وهم أصحاب الحجر، ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾؛ أي: قطعوا الصخر من

الجبال واتخذوا منها بيوتًا، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء]، وفي ذلك إشارة إلى ما عندهم من العقول مع القوة، ﴿بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ هو الوادي، وهو ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماء، و(الواد) ـ بلا ياء ـ لغة فيه.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ فرعون ملك مصر، وهو صاحب موسى عليه السلام، وكان طاغية جبارًا عاتيًا في الكفر، والمراد بالآية فرعون وقومه، ﴿ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: صاحب الأوتاد جمع وتِد، وكان يدقها في الأرض ليشد عليها من يريد تعذيبه.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾ نعت لعاد وثمود وفرعون؛ أي: جاوزوا الحد في الظلم والطغيان، ﴿فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾ أي: في بلدانهم، ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ الفاء سببية، وما بعدها مسبَّب عما قبلها؛ أي: بسبب طغيانهم البالغ أكثروا في البلاد الفساد من الكفر والظلم وسائر المعاصي، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: أنزل بهم ألوانًا من العذاب، فهو كالسوط الذي لم يرتفع عنهم حتى أبادهم، والتعبير بالصب للإشارة إلى تتابع العذاب واستمراره وكثرته، فهو يعمهم ويغمرهم.

وقد فصل الله في مواضع من كتابه العظيم ما وقع بهؤلاء، فقال في عاد وثمود: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة]، وقال في فرعون وقومه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات].

وذلك جزاء من كفر بالله وكذب رسله، والله يمهل ولا يهمل، ولذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ (المرصاد) في الأصل المكان الذي يراقب

فيه الراصدون ما يريدون مراقبته، والمعنى أن الله ﷻ مطلع عليهم، يرصد عليهم أعمالهم، فلا يفوته منها شيء، ولا يفلتون من عقابه، وقد أذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، وفي ذلك تخويف لأهل مكة وغيرهم، وتسلية للنبي ﷺ.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تنوع أساليب القرآن بالقصص؛ بالتفصيل والإجمال، والبسط والاختصار.

٢ ـ أن من مثاني القرآن ذكر القصة مرات، مبسوطة ومختصرة، وبالإشارة إليها.

٣ ـ أن هذه الأمم عادًا وثمود وفرعون من أعظم الأمم عتوًا وطغيانًا، ولهذا وصفوا جميعًا بالطغيان.

٤ ـ تمدُّح الرب بإهلاك المفسدين.

٥ ـ أن إرم اسم لعاد قوم هود.

٦ ـ أن عادًا أصحاب خيام وعَمَد، مع اتخاذهم المساكن المبنية.

٧ ـ أن عادًا ذوو قوة في أبدانهم وآلاتهم.

٨ ـ أن أخص صفات ثمود قوم صالح قطع الصخور، والمراد نحت الجبال بيوتًا.

٩ ـ أن ثمود ذوو قوة وطول أمل.

١٠ ـ أن ديار ثمود تشرف على واد، وهو المسيل.

١١ ـ أن فرعون ذو أوتاد، وهي ما يثبت به الشيء، قيل: كان يضرب الأوتاد فيمن يريد تعذيبه فيوثقه بها، ففيه:

١٢ ـ الإشارة إلى ظلمه وجبروته، والله أعلم.

١٣ ـ وصف هذه الأمم الثلاث بالطغيان والإفساد، وذلك بالكفر بالله والظلم للعباد.

١٤ ـ أن كفرهم وطغيانهم سببٌ لما نزل بهم من العذاب.

١٥ ـ أن ما حل بهم من أنواع العذاب هو بفعله ﷻ.

١٦ ـ شدة بطش الله تعالى.

١٧ ـ الإشارة إلى علو الله تعالى، لقوله: ﴿فَصَبَّ﴾.

١٨ ـ أن ما فعله الله تعالى بهذه الأمم الطاغية مُرْصَد مثله لأمثالهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد]، ففيه:

١٩ ـ تهديد من سلك طريقهم، وعمل مثل عملهم.

ولما ذكر الله أحوال الأمم الطاغية، وما فعل بهم بسبب طغيانهم وجهلهم بربهم، وأخبر أنه تعالى للعباد بالمرصاد يحصي عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها = أخبر عن جانبٍ مِن شأن الإنسان الجاهل، وهو عدم فهمه لحكمة الله فيما يجري عليه من خير أو شر، فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الفاء للتفريع على ما سبق؛ أي: إنه سبحانه عليم بخلقه وبأحوالهم ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اختبره ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالغنى والجاه وسعة الرزق ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ أي: جعله في نعمة،

والفاء تفسيرية، ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾؛ أي: يقول هذا فخرًا؛ أي: أعطاني ذلك لأني أهلٌ له، ولكرامتي عنده، ويجهل أنَّ ذلك فضلٌ من الله وابتلاء؛ هل يشكر ربه أو يكفره.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾؛ أي: ضيَّق عليه الرِّزق امتحانًا ﴿فَيَقُولُ﴾ على سبيل التشكي والجزع ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾؛ أي: أذلني بالفقر، ويغيب عنه أن ذلك ابتلاء من الله ليُرى أيصبر أم يجزع، وما كان عطاء الله للعبد دليلًا على كرامته عنده، ولا تضييقه عليه دليلًا على مهانته عنده، بدليل أنه يبتلي بالنِّعم وسعة الرزق أعداءه الكافرين، ويبتلي بالمصائب وضيق المعيشة أولياءه المؤمنين.

فما ذكره الله في الآيتين ظنُّ الإنسان من حيث هو؛ أي: جنسه، والأصل في الإنسان الظلم والجهل، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأحزاب]، والكافر أحرى بذلك الظن، والسورة مكية، وأما المؤمن فيعلم أن ذلك العطاء والمنع راجع إلى مشيئة الله وحكمته، فهو يشكر عند النعماء، ويصبر عند البلاء، وفي كلا الحالين هو على خير، كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له**»(١).

قوله: ﴿كَلَّاۖ﴾ ردعٌ وزجرٌ للإنسان على قوله القبيح، ثم ذكر بعض أفعال الكفار السيئة: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾؛ أي: لا تحسنون إليه مع غناكم، واليتيم: مَن مات أبوه ولم يبلغ، وفي الكلام التفات مِن الغَيبة إلى الخطاب لمزيد التوبيخ، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾؛ أي: ولا يحض بعضكم بعضًا ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾؛ أي: على إطعامه، وإذا كانوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩)؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

كذلك مِن عدم التحاضّ فمن باب أولى أنهم لا يطعمونه أصلًا، وقد حذفت إحدى التاءين تخفيفًا من الفعل (تحاضون)، والأصل: تتحاضُّون.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾؛ أي: الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا ١٩﴾؛ أي: شديدًا مِن أي طريق، حلالًا كان أو حرامًا، والمعنى: أنهم يأكلون الذي لهم والذي ليس لهم، وكانوا في الجاهلية لا يورِّثون النساء والصبيان، فيأخذون أموالهم، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠﴾؛ أي: كثيرًا مع الحرص والشره، ولا تؤدون حقوقه، وفي هذا ذمٌّ لهم، وفيه الإشارة إلى أن المحبة الطبيعية للمال لا بأس بها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من سُنَّة الله الابتلاء بالمحبوب للإنسان والمكروه له، كسعة الرزق وضيقه.

٢ ـ أن إكرام الله للإنسان عام وخاص.

٣ ـ أن الإكرام العام لا يستلزم الإكرام الخاص.

٤ ـ أن من الإكرام العام الإنعام بسعة الرزق.

٥ ـ هوان الدُّنيا على الله؛ حيث يعطيها للكافر، وفي الحديث: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[1].

٦ ـ أن من جهل الإنسان أن يظن أنَّ إكرام الله له بسعة الرزق يدل على محبة الله له وعلو منزلته عنده سبحانه وتعالى، وهو الإكرام الخاص في قوله: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ١٥﴾.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه».

٧ ـ أن من جهل الإنسان ظنه أن الله إذا ابتلاه بضيق الرزق فقد أهانه؛ أي: صار مهينًا عنده.

٨ ـ زجر الله للإنسان عن هذا الظن وتكذيبه في قوله: ﴿كَلَّا﴾.

٩ ـ ذكر أربع خصال من خصال المؤثرين للدنيا:

١ـ ترك ما يجب لليتيم من إيتائه حقه، والإحسان إليه، وذلك إكرامه.

٢ـ ترك الحض على إطعام المسكين بخلًا وغفلةً عن يوم الدين.

٣ـ أكل الميراث بغير حق، كما كان أهل الجاهلية لا يورثون الصبيان ولا البنات.

٤ـ حب المال حبًا شديدًا وكثيرًا مما يحمل على اكتسابه من غير حله، والبخل بما يجب فيه.

١٠ ـ أن الجامع لكل هذه الخصال هو إيثار الدنيا على الآخرة.

١١ ـ الإرشاد من الله إلى ضد هذه الخصال، من إكرام اليتيم والتحاض على إطعام المسكين، وإيتاء الوارثين حقوقهم، والاقتصاد في حب المال.

***

وبعد أن ذكر بعض أعمالهم الذميمة أتبعها بزجرهم وردعهم، وتذكيرهم بيوم القيامة الذين يحاسبون فيه، وما يكون فيه من أحوال وأهوال؛ وأول ذلك دكّ الأرض، وأعظم ذلك مجيء الرب للفصل، وتجيء الملائكة صفوفًا؛ صفًا بعد صف، وأشد ذلك أن يجاء بجهنم، فيندم الكافر، ولات ساعة مندم، ويصير المؤمن ذو النفس المطمئنة إلى جنة الله، فقال سبحانه:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

التفسير:

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم وزجر، أي: ما هكذا ينبغي أن تكون حالكم، فإنها حال يندم صاحبُها يوم القيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: دُقَّت وفُتِّت ما عليها من الجبال، فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، وهذا الدكُّ بعد النفخة الأولى. ﴿دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾؛ أي: دكًا متتابعًا مرة بعد مرة يستوعبها، حتى لا يبقى منها شيء إلا دُكَّ، فـ﴿دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ الثاني ليس للتوكيد بل للتكرار، وهذا أظهر من جعل (دكًا) الثانية من قبيل التأكيد اللفظي للأولى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة]، فليس المراد ـ والله أعلم ـ نفيَ تكرار الدك، بل بيان أن الأرض والجبال دُكتا دكَّة واحدة، لا دكَّتين إحداهما للأرض والأخرى للجبال، وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ للفصل والقضاء بين الخلائق مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله وكماله سبحانه، لا نعلم كيفيته أو كُنهه، والقول بأن المراد جاء أمرُه تأويلٌ وعدولٌ عن ظاهر اللفظ بغير دليل، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: وجاءت الملائكة صفًا بعد صف، فيحيطون بالخلائق، و(أل) في الملَك للجنس، فتفيد العموم، وقوله ﴿صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ حال مِن الملَك،

كقولك: جاء القوم واحدًا واحدًا؛ أي: واحدًا بعد واحد.

﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: وجيء يوم إذ تكون هذه الأمور ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ تجرها الملائكة، كما قال ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1]، وشؤون الآخرة ليست كشؤون الدنيا، فلا تقاس عليها، وهي أكبر من أن تتصورها العقول.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾؛ أي: إذا وقعت هذه الأمور مِن دكِّ الأرض وما بعده تذكر الإنسان المكذب وتاب وندم على معاصيه، ولا ينفعه الندم، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: مِن أين له الانتفاع بالذكرى (أي: الموعظة) وقد فات أوانها، وهو استفهام بمعنى النفي والاستبعاد.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: يقول هناك نادمًا متحسرًا ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: قدمت في الدنيا عملًا صالحًا لأجل حياتي الأخروية الخالدة، فـ (اللام) للتعليل في قوله ﴿لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾، وفي الآية إشارة إلى أن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، فيجب العمل لها، وأن الدنيا مزرعة لها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: لا يعذِّب كتعذيب الله أحدٌ في الإيلام، وإضافة العذاب إلى الله لأنه بأمره، ولتعظيم شأن العذاب، ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: ولا يستطيع أحد أن يقيد مثل تقييد الله في الشدة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر]، ففي الآيتين دليل على عظيم عذاب الله وشدة إيثاقه.

ولما ذكر الله عذاب الكافر ختم الكلام بذكر حال المؤمنين بشارة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢)؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

لهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: المطمئنة بالإيمان، المصدقة بموعود الله، يقال لهم ذلك بعد الحساب، ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ أي: إلى جوار الله وجنته وكرامته ﴿رَاضِيَةً﴾ عن الله وبما أعطاها سبحانه ﴿مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: مرضيًا عنك من ربك، وهذا من الترقي؛ لأن رضا الله أكبر من رضا العبد، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: ادخلي في جملة عبادي المقربين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت]، ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: ادخلي جنتي معهم، وأضاف الله الجنة إليه تشريفًا لها وإكرامًا لهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ زجر المفرطين في حب المال والمجترئين على أكل الحرام.

٢ ـ أن الأرض يوم القيامة تدك؛ أي: يدك كل ما عليها من جبال وبناء، فتسوى فتكون صفصفًا.

٣ ـ أن الله يجيء يوم القيامه نفسُه للفصل بين عباده، مجيئًا يليق بجلاله لا يعلم العباد كيفيته.

٤ ـ أن الملائكة يجيؤون لمجيء الرب، ويكونون صفوفًا؛ صفًا بعد صف.

٥ ـ أنه يجاء بجهنم لموقف القيامة فيراها المجرمون، كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣].

٦ ـ أن الكافر عند ذلك يتذكر تفريطه فيما دعته إليه رسل الله فيندم، ولاتَ ساعة مندم.

٧ ـ أنه يتمنى أنه قدم في حياة الدنيا ما ينفعه في الحياة الأخرى.

٨ ـ أن للعبد مشيئة وقدرة على فعل ما أمر به، لقوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾، ففيها:

٩ ـ الرد على الجبرية.

١٠ ـ بيان نهاية الكافر، وأنه يصير إلى عذاب الله وأسره اللذين لا يماثلهما عذاب ولا أسْر، نعوذ بالله من ذلك.

١١ ـ أن المؤمن ذا النفس المطمئنة يرجع إلى ربه راضيًا مرضيًّا، قد رضي الله عنه وأرضاه.

١٢ ـ أن المؤمن يصير إلى أعظم كرامة، وهي الجنة.

١٣ ـ إثبات القيامة.

١٤ ـ إثبات الجنة والنار.

١٥ ـ إثبات الجزاء على الأعمال، وهو مقتضى الحكمة والعدل.

١٦ ـ الترغيب والترهيب في هذه الآيات بالوعد والوعيد.





١٣ ـ تفسير سورة البلد

هذه السورة مكية، وقد افتتحها الله بثلاثة أقسام: بالبلد الأمين، وبكل والد، وما ولد. أقسم سبحانه أنه خلق الإنسان في شدائد ومشاق يكابدها في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، حتى يدخل الجنة، ثم ذكر جوانب من جهل الإنسان مع ما أنعم الله به عليه في خلقه، ثم لامه على ترك اقتحام العقبة، وهي الإنفاق الشاق على النفس؛ من عتقٍ وإطعامٍ في يوم مجاعة، شبَّه ذلك باقتحام العقبة التي لا يحصل الظهور عليها إلا بكُلفة، ولا بد مع ذلك أن يكون ممن آمن وعمل صالحًا، ومن أهل الصبر والرحمة، فإنه يكون من السعداء أهلِ الميمنة، أما الكافرون فهم أصحاب المشأمة، ومصيرهم إلى النار.

وآيات السورة عشرون؛ العشر الأولى في الخبر عن الإنسان، من أول السورة إلى قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

وأما العشر الأخيرة مِن قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ فقد تضمنت ذم الإنسان ـ مع فخره بإهلاك المال الكثير ـ بترك الإنفاق في ما ينفعه من وجوه الإحسان؛ كالعتق وإطعام اليتيم والقريب في يوم مجاعة، وختمت السورة بذكر عاقبة المؤمنين والمكذبين.

الآيات:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [البلد].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ هذا قسم من الله تعالى، والقَسم من طرق تأكيد الكلام، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بهذا البلد، و﴿لَآ﴾ مزيدة للتأكيد، والمراد بالبلد مكة، وهو البلد الحرام الآمن، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين]، وهو البلدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ [النمل: ٩١].

وأقسم الله بمكة لشرفها وفضلها على سائر البلاد، فهي أحب البلاد إلى الله، وقد جعلها محلًا لبيته المعظم الذي هو قبلة المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وأمر الناس بحج ذلك البيت، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد]؛ أي: أقسم بهذا البلد، وأنت ـ أيها النبي ـ فيه حلٌّ، أي: حلال لك تصنع فيه ما تشاء من قتل وأسر، وعلى هذا؛ فـ (الواو) في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ للحال، والجملة حالية من البلد؛ أي: أقسم بهذا البلد والحال أنك فيه حلال، وهو حلال لك، وذلك في الساعة التي أحلها الله لنبيِّه، فجملة الحال معترضة بين المتعاطفات المقسم بها، وهي قيد للمقسَم به وهو

البلد؛ للدلالة على أن مكة لم تنقص حرمتها في تلك الساعة، وفي الآية بشارة بفتح مكة، وأنها ستحل له في زمن آت، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضِد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب**»(١). وأشار إلى البلد مكة باسم الإشارة مرتين، وكرر ذكره زيادة في تعظيمه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾؛ أي: وأقسم بكل والد وكل مولود من الموجودات التي تتوالد، من إنسان وحيوان، فهذا ما أقسم الله به.

وجواب القسم قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ أي: جنس الإنسان ﴿فِى كَبَدٍ ۝٤﴾؛ أي: في مشقَّة وتعب، فهو يكابد مصائب الدنيا وهمومها إلى أن يموت، فالكبَد يحيط به من كل جانب ويغمره، كما يشير إليه حرف الجر (في).

وفي الآية ـ والله أعلم ـ تسلية وتثبيت للنبي ﷺ، وإشارة إلى أن على الإنسان أن يسعى إلى ما فيه سعادته في عاجله وآجله، وذلك بطاعة ربه وخالقه.

قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾؛ أي: أيظن أنه لن يقدر عليه أحد لقوته الزائلة، فلا يبعث ولا يحاسب؟! والمراد الكافر، بدليل هذا الظن، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، ﴿يَقُولُ﴾ هذا الإنسان المكذب على سبيل الافتخار والمباهاة بكثرة المال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٣)؛ من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

أي: أتلفت مالًا كثيرًا؛ أي: على شهواته ولطلب الجاه والسمعة، و(اللُّبَد) جمع لُبْدة وهو ما تلبَّد؛ أي: كثر واجتمع.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾؛ أي: أيظن أنه لم يره أحد في حال إنفاقه وإعجابه بكفره، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ؛ أي: ليس الأمر كما يظن. وفي الآية تهديد له، وإشارة إلى أن أعماله تحصى عليه، وسيحاسب عليها.

ثم ذكر سبحانه شيئًا مما أنعم به على الإنسان ليعتبر ويشكر، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ يبصر بهما، والاستفهام للتقرير والامتنان، ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ يتكلم بها، ويفصح بها عن كل ما يريد، ولم يذكر السمع؛ لأن المذكورات تستلزمه، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾؛ أي: بيَّنا لنا له طريق الخير والشر ليعمل بما فيه نجاته، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان]، والمراد بالهداية الهداية العامة، وقد فسِّر النجدان بالثديين، ولا يثبت ذلك عن السلف، وشواهد القرآن تؤيد المعنى الأول.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه.

٢ ـ فضل مكة، وهي البلد المقسم به.

٣ ـ أن هذه السورة مكية، بدليل الإشارة في قوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾.

٤ ـ أن الله أحل لنبيه يوم الفتح من القتل والقتال فيها ما لم يحله لأحد قبله أو بعده، على ما جاء عن ابن عباس وغيره من التابعين في تفسير الآية، وعلى هذا ففي الآية:

٥ ـ البشارة بفتح مكة، ويناسب على هذا أن تكون الجملة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ حالية مقيِّدة للقسم بهذا البلد؛ أي: أقسم به حال كونك حلالًا بمكة.

٦ ـ أن من آيات الله العظيمة التوالد في جنس الإنسان وغيره، وكلُّ والد ومولود آية.

٧ ـ أن الإنسان منذ نشأته في أطوار حياته معرض للشدائد والمشاق، وهو حمْل، وهو طفل، وفي أطوار حياته في هذه الدنيا.

٨ ـ توبيخ الكافر الجاحد لقدرة الله عليه.

٩ ـ ذم الفخر بكثرة المال وإتلافه في الشهوات.

١٠ ـ أن الكافر مخاطب بفروع الشريعة؛ لذمه على عبثه بالمال وفخره بذلك.

١١ ـ ذم الكافر لحسبانه أن الله لا يراه، فهو يخبِط كما يشاء، لا يرى عليه رقيبًا.

١٢ ـ أن من آيات الله ونعمه الدالة على قدرته وإحسانه ما ركَّبه في خَلْق الإنسان من عينين يبصر بهما، ولسانٍ وشفتين يتكلم بهما، وعقلٍ يدرك به هداية الله إياه السبيلين سبيل الخير وسبيل الشر.

١٣ ـ إقامة الحجة على الإنسان في التوحيد بما أوتي من أسباب العلم والبيان.

١٤ ـ إثبات قدرة الله على بعث الإنسان كما قدر على بدء خلقه.

١٥ ـ إثبات رؤية الله للعبد في جميع أحواله وتصرفاته.

١٦ ـ وجوب شكر الله على نعمه.

١٧ ـ أن معطي الكمال أولى به، فالله الذي أعطى الإنسان الكمالات من السمع والبصر والكلام والعلم أحق به.

ثم ذكر الله تعالى أنه أنعم على الإنسان بنعم عظيمة من البصر والكلام والمال والهداية، ولكنه لم يقابل تلك النعم بالشكر، ولم يحسن في عمله، فقال سبحانه:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد].

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: فلا هو اقتحم العقبة، والاقتحام هو الدخول في الأمر بشدة، والعَقبة أصلها الطريق الصعب في الجبل، والمراد بها الأعمال الصالحة والتكاليف الشرعية، واقتحامها فعلها وتحصيلها؛ أي: إن هذا الإنسان لم يفعلها، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: ما أعلمك أيُّ شيءٍ هي، والخطاب للرسول ﷺ ولكل مَن يصلح للخطاب، والاستفهام للتفخيم والتشويق.

ثم فسر العقبة بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: تحريرها من الرِّق، وهي الرقبة المؤمنة، ويشمل ذلك فك الأسير المسلم عند الكفار، ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: مجاعة، ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: قرابة، فإطعامه صدقة وصلة رحم، واليتيم مَن مات أبوه ولم يبلغ، ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: ذا حاجة شديدة، مِنْ: «تَرِب الرجل» إذا افتقر، كأنه لفقره لصق بالتراب فلا يقيه منه شيء.

وخص فكَّ الرقاب وإطعام الطعام بالذكر؛ لأنهما أشق على النفس

من سائر الطاعات لما فيهما من بذل المال، وهو محبوب للإنسان، لا سيما مع شدة الحاجة إليه في وقت الجوع، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، ولذا كان فك الرقاب وإطعام الطعام بمنزلة اقتحام العقبة.

و(المسغَبة)، و(المقرَبة)، و(المترَبة)، مصادر ميمية. و﴿يَتِيمًا﴾ و﴿مِسْكِينًا﴾ مفعولان به للمصدر، وهو: ﴿إِطْعَٰمٌ﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: بما يجب الإيمان به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والإيمان بها مقدمٌ على ما ذكر من فكِّ الرقبة وإطعام الطعام، ولذا فإن ﴿ثُمَّ﴾ ليست للترتيب والتراخي الزمني، وإنما هي للترقي في الرتبة، فالإيمان أعلى ممَّا ذُكر؛ لأنه الأصل، وهو شرط لقبول سائر الأعمال.

وفي ذكر الإيمان إشارة إلى أنهم عملوا العمل لوجه الله. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله، وعلى ما يصيبهم من أذى في سبيل الله، وتواصوا بالرحمة فيما بينهم، فيرحم القوي الضعيف والغني الفقير، وإذا كانوا كذلك من التواصي فيما بينهم فلا بد إذن أن يكونوا متخلقين بذلك في أنفسهم، ولهذا أثنى عليهم فقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وهم أصحاب الجنة، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: بالقرآن وبالآيات الكونية ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: أصحاب الشمال ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: مغلقة، فلا يخرجون منها، مِن: «آصَدتُ الباب» إذا أغلقتَه، والجار والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبرٌ مقدم، و﴿نَارٌ﴾ مبتدأ، و﴿مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ نعت.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذم الإحجام في وجوه البر مع التبذير في الشهوات.

٢ ـ أن الإنفاق في القربات شاق على النفوس، لقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾.

٣ ـ جهل الإنسان بإيثار العاجل على الآجل.

٤ ـ أن من أفضل القربات المالية فكُّ الرقاب وإطعام الطعام في أيام العسرة.

٥ ـ فضل الصدقة على اليتيم القريب والمسكين المعدَم.

٦ ـ أن الإحسان ببذل المال لا ينفع إلا مع الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

٧ ـ أن من أفضل خصال الخير الصبرَ والتواصيَ به، ورحمةَ الخلق والتواصيَ بها.

٨ ـ أن أفضل الناس في ذلك من جمع بين الصبر والرحمة، وأسوؤهم من لا صبر له ولا رحمة.

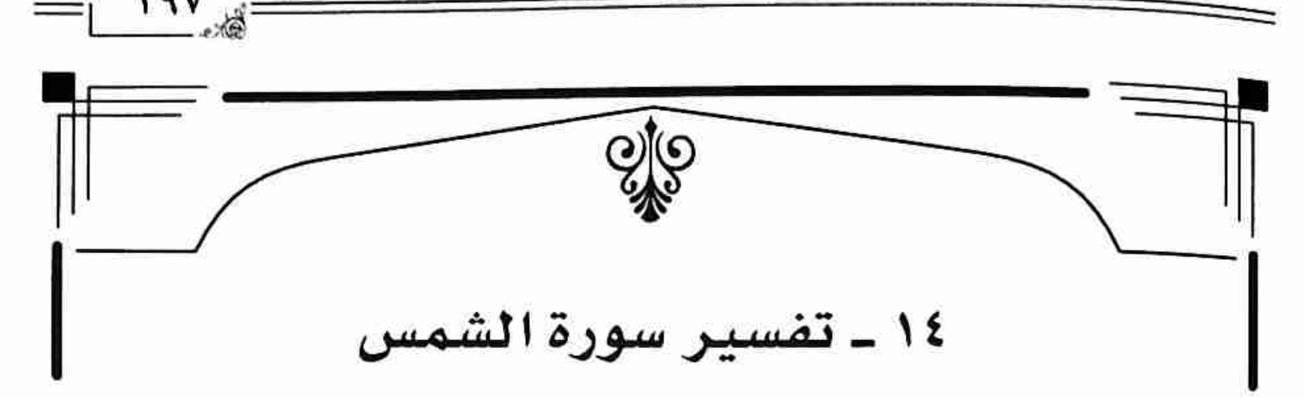
٩ ـ الإشارة إلى حاجة المؤمنين بمكة إلى الصبر والتواصي به على ما يلقون من الأذى.

١٠ ـ أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات هم السعداء أصحاب الميمنة، ويقال لهم: أصحاب اليمين.

١١ ـ أن أصحاب الميمنة عند الانفراد يشمل: المقربين، والأبرار.

١٢ ـ أن الكفار المكذبين بآيات الله هم أصحاب المشأمة، ويقال لهم: أصحاب الشمال.

١٣ ـ أن مصيرهم النار المؤصدة عليهم.



١٤ ـ تفسير سورة الشمس

هذه السورة مكية، وهي خمس عشرة آية، اشتملت العشر الأولى على أحد عشر قَسَمًا، وعلى جواب القسم، وهذا أكثر قسم في القرآن افتتحت به سورة، واشتملت الآيات الخمس الباقية على خلاصة قصة ثمود قوم صالح، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك والتدمير.

الآيات:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾ هذا قسم من الله تعالى، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وأما الخلق فلا يجوز لهم القسم إلا بالله قال ﷺ: «**مَنْ كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[(١)]، ومعنى الآية: أُقسم بالشمس وبإشراقها وانتشار ضوئها. و(الضحى) أولُ النهار، وهو من ارتفاع الشمس إلى الزوال، وأَقسم الله بالشمس لما فيها من الحكم البالغة والمنافع العظيمة، وهي آية النهار.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾؛ أي: وأُقسم بالقمر إذا تلاها؛ أي: تَبع الشمسَ في الغروب، وذلك في أول ليلة من الشهر؛ فإن القمر يغيب بعد الشمس على إثرها، ثم لا يزال القمر يتلوها في المغيب كل ليلة إلى منتصف الشهر، وبعد ذلك يطلع القمرُ قبلها، فتتلوه إلى نهاية الشهر.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾؛ أي: وأقسم بالنهار إذا جلَّى الشمس وأظهر ضوءها، و(النهار) اسم جنس لما بين طلوع الشمس إلى غروبها، و(الليل) اسم جنس لما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر أو طلوع الشمس، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾؛ أي: وأُقسم بالليل حين يغطي الشمسَ بظلامه فتظلم الآفاق، وذلك في نظر العين.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾؛ أي: وأقسم بالسماء ومَن بناها، وهو الله تعالى، ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾؛ أي: وأقسمُ بالأرض ومَن طحاها، وهو الله تعالى، وطَحْوُها بسطُها وتسويتها كالفراش.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾؛ أي: وأُقسم بكل نفس ومَن سوَّاها، وهو الله تعالى، وتسويتُها ما يُرى فيها من كمال الخِلقة والعقل، والمراد نفس الإنسان، بدلالة ما بعده. فـ (مَنْ) في المواضع الثلاثة اسم موصول بمعنى الذي، فيكون الله تعالى قد أقسم بالمذكورات وبنفسه سبحانه.

ويحتمل أن تكون (ما) في المواضع الثلاثة مصدرية، ويكون المعنى: أُقسم بالشمس وبنائها العالي المحكم بلا عَمد، وأُقسم بالأرض وطَحْوِها أي: بسطِها وتسويتها كالفراش، وأُقسم بكل نفس وتسويتها في كمال الخِلقة والعقل.

والقولان وإن كانا متلازمين إلا أن الأول أظهر، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ عطفًا على قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾، ورجح ذلك شيخ

الإسلام ابن تيمية[١].

وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ الفاء للعطف على ﴿سَوَّاهَا ۝٧﴾، والجملة تفسير لقوله: ﴿سَوَّاهَا ۝٧﴾، وضمير ﴿ألهمها﴾ يعود على الله؛ أي: عرَّف الله النّفوس قُبح الفجور وحُسن التقوى، بما غرس فيها من الفطرة، وصح عن ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾: بيَّن الخير والشر[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان].

وقدم (الفجور) مراعاة للحال، فالسورة مكية، وأكثر أهلها مشركون ذَوو فجور، مع ما في تأخير التقوى من مراعاة الفواصل.

وإقسام الله بالمذكورات تنبيهٌ إلى عظيم قدرته تعالى وبديع حكمته وسعة علمه ورحمته، وجواب القسم قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾؛ أي: زكى نفسه بالطاعة وطهَّرها من الذنوب، والفلاح هو الفوز بالمطلوب وهو الجنة، والنجاة من المرهوب وهو النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾؛ أي: خسر من أخفى نفسه وحقَّرها بالمعاصي والآثام، وأصل (دسَّى) دسَّس، قُلب أحد حرفي التضعيف ألفًا تخفيفا، كما في (تمطَّى)، وأصلها: تمطَّط، قلبت الطاء حرف علة كراهة اجتماع الأمثال، ومن ذلك أيضًا: (تقضَّى البازي)، والأصل: تقضَّض، من الانقضاض وهو السرعة، ولكنهم استثقلوا ثلاث ضادات فأبدلوا إحداهن حرف علة.

فالله ﷻ يقسم بمخلوقاته العظيمة على فلاح مَن طهَّر نفسه بالطاعة، وخيبةِ من أضلها بالمعصية.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٢٧).

(٢) رواه ابن جرير (٢٤/ ٤٤٠).

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه، كما أقسم هنا: بالشمس، والضحى، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، والأرض، والنفس.

٢ ـ التنبيه إلى آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس.

٣ ـ أن من أعظم آيات الله: الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض.

٤ ـ أن الشمس أعظم الآيات الأفقية.

٥ ـ أن الله يقسم بنفسه وبأفعاله، كما قال: ﴿وَمَا بَنَنْهَا ۝٥﴾، ﴿وَمَا طَحَنْهَا ۝٦﴾، ﴿وَمَا سَوَّنْهَا ۝٧﴾.

٦ ـ أن من آيات الله: بناء السماء وارتفاعها، وطحو الأرض وبسطها، وتسوية نفس الإنسان.

٧ ـ أن السماء والأرض والنفس ليست قديمة، بل هي محدثة، ففيه:

٨ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بقدم النفس والأفلاك.

٩ ـ أن الله هو الذي يبين للإنسان طريق الخير والشر، وبذا تقوم الحجة على الإنسان.

١٠ ـ إثبات القدر، وأن الله هو الذي يُضل ويهدي.

١١ ـ الرد على القدرية.

١٢ ـ أن الفجور والتقوى يكونان بإلهام من الله.

١٣ ـ أن الفجور والتقوى ضدان، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص].

١٤ ـ الوعد بالفلاح لمن زكى نفسه بطاعة الله.

١٥ ـ وعيد من دسَّى نفسه بمعصية الله بالخسران والخيبة.

١٦ ـ الرد على الجبرية.

ثم ذكر الله مثلًا لسوء عاقبة مَن دسَّى نفسه وطغى، فقال سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

التفسير:

قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾؛ أي: كذبت قبيلة ثمود نبيَّهم صالحًا عليه السلام، ﴿بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾؛ أي: بسبب طغواها؛ أي: بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في الكفر والشر، فطغيانُهم حمَلهم على التكذيب، و(الطَّغْوى) مصدر كالطُّغيان، وجاء هذا البناء لتناسب الفواصل.

وكان نبيِّهم صالح يدعوهم إلى التوحيد فكذبوه، ثم سألوه آية فأخرج الله لهم ناقة عظيمة من صَدع الجبل، كما ذكره المفسرون، وحذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء، ولكنهم تمادوا في الكفر، ولجوا في طغيانهم يعمهون، وتآمروا على قتل الناقة، فانتدب أشقاهم، كما قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾؛ أي: نهض أشقى القبيلة بسرعة وحنق لقتلها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: احذروا ناقة الله فلا تؤذوها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]، واحذروا سُقياها؛ أي: شِربها في يومها، (السُّقيا) مصدر كالرُّجعى؛ أي: لا تشاركوها في نصيبها من السقي، وكان لها يوم ترد الماء فيه ولهم يوم،

وذُكر صالح بوصف الرسول لا باسمه؛ إشعارًا بذمهم حيث عصوا رسول الله وكان الواجب أن يطاع، وأضاف الناقة إليه سبحانه تشريفًا لها، كـ «بيت الله».

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كذبوا نبيهم في أمر الناقة، والتكذيب الأول في شأن التوحيد والرسالة، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: قتلوها، وأضاف العقر إليهم جميعًا مع أن القاتل هو الأشقى؛ لأنهم متفقون جميعًا على القتل، ولذا أنزل الله العذاب بجميعهم، فقال سبحانه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾؛ أي: أطبق الله عليهم عذابَه مستأصلًا لهم بسبب ذنبهم، وفي لفظ (دمدم) تهويل للعذاب، يقال: «دمدم عليه القبر» إذا أطبقه، ﴿فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾؛ أي: سوَّى بين القبيلة كلها في العذاب، فلم ينج منه صغير ولا كبير.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾؛ أي: والحال أنه تعالى لا يخاف عاقبة فعله بهم؛ لأنه تعالى ليس ظالمًا لهم، ولا يخشى ثأرها كما يخاف ملوك الأرض عواقب أفعالهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذه الآية نظير قوله تعالى في الحديث القدسي: «**هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**»[1]، وفي الآية هوانهم على الله، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من الأمم التي خابت وخسرت أمَّةَ ثمود.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠)؛ من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي، وصححه ابن حبان (٢/ ٥٠)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله ثقات» مجمع الزوائد (٧/ ١٨٦). وبداية الحديث: «**إن الله خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي. . .**».

٢ ـ أن سبب هلاكها تكذيب رسولهم.

٣ ـ أن الحامل لهم على التكذيب هو الطغيان.

٤ ـ أن أشقاهم هو عاقر الناقة.

٥ ـ أن الكفر يتفاوت لقوله: ﴿أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾.

٦ ـ أن آية صالح ناقة عظيمة من شأنها أن لها يومًا تشرب فيه الماء، ويومًا لهم يشربون فيه لبنها، ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

٧ ـ أن الراضيَ بالمعصية والمواطئ عليها بمنزلة الفاعل، فالذي عقر الناقة واحدٌ، وأضاف العقر إلى جميعهم، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

٨ ـ تدمير الله لهم بذنبهم، وهو التكذيب وعقر الناقة.

٩ ـ أن عذاب الله لثمود عمَّ جميعهم إلا نبيَّ الله صالحًا ومن آمن معه، وهي سُنَّة الله في المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود].

١٠ ـ أن الكفر والمعاصي سبب الشقاء في الدنيا والآخرة.

١١ ـ أن الله لا يخاف عاقبة ما يفعله بالمكذبين؛ لكمال قدرته وعزته وحكمته.

١٢ ـ تهديد مشركي مكة وتحذيرهم أن يصيبهم ما أصاب ثمود.





١٥ ـ تفسير سورة الليل

هذه السورة مكية، وآياتها إحدى وعشرون، افتتحت بالقسم من الله بالليل والنهار وخالق الذكر والأنثى على أن سعي الناس شتى؛ أي: مختلف، ثم فصَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾.

ثم ذكر بعض معاني ربوبيته ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝١٣﴾.

ثم ختمت السورة بالإنذار مِن النار، وذِكْر مَن يصلاها، وهو مَن كذَّب وتولى، ومَن يُجنبها وينجو منها، وهو الأتقى مِن العباد الذي ينفق ماله ليتزكى يبتغي بذلك وجه الله.

الآيات:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝١١﴾ [الليل].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾؛ أي: أقسم بالليل حين يُغطي الشمس والنهار بظلامه، ويغطي الأرض وكل شيء، فحذفُ مفعول ﴿يَغْشَىٰ ۝١﴾ للعموم، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس]،

وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، و(الليل) اسم جنس لما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر أو طلوع الشمس، و(النهار) اسم جنس لما بين طلوع الشمس إلى غروبها.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾؛ أي: وأُقسم بالنهار إذا ظهر وتبيَّن بطلوع الشمس، ودبَّت فيه الحياة والحركة، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾؛ أي: وأُقسم بالعظيم الذي خلق الذكر والأنثى؛ أي: خلَق مِن كُل شيءٍ زوجين، وهو الله تعالى، فـ ﴿مَا﴾ بمعنى (مَن)، فيكون قسَمًا مِن الله بنفسه المقدسة.

وقيل: ﴿مَا﴾ مصدرية؛ أي: وأُقسم بخَلْقِ الذكر والأنثى، فيكون قسمًا مِن الله بفعله، وهو إنشاؤه الذَّكر والأنثى، والأول أولى، كما تقدم في سورة الشمس.

وفي هذه الأقسام تنبيه العباد إلى عظيم صُنع الله في آياته، وبديع حكمته وقدرته في هذا الكون الفسيح الذي يجري فيه كل شيء بانتظام بالغ، بما يحقق مصالح الخلق من طلب المعاش والراحة، وهو مما يبهر العقول.

قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ هذا جواب القسم؛ أي: إنَّ عملكم في الدنيا لمختلف جدًا، فمنه الحسن ومنه السيء، ومنه الطاعة ومنه المعصية، وتبعًا لذلك يتفاوت الجزاء، والخطاب لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، و(شتى) جمع شَتيت؛ كقتلى وقتيل، وبيْنَ المُقسم به وجواب القسم تناسب؛ فالله أقسم بأشياء متضادة من الليل والنهار والذكر والأنثى على أشياء متضادة، وهي أفعال العباد الحسنة والقبيحة.

ولما كان العاملون صنفين محسنًا ومسيئًا؛ فصَّلهما، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾؛ أي: أعطى ما عليه مِن حقوق، وبذل ماله في وجوه

الخير، واتقى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ مؤنث الأحسن؛ أي: صدق بالمثوبة والجزاء من الله وصدق بالجنة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾؛ أي: سنهيِّئُه للطريقة اليسرى، ونرشده إلى أسباب السعادة والفلاح ونسهلها له. و(السين) للتأكيد، فهذا وعدٌ مِن الله محقق.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾؛ أي: بماله فلم يؤدِّ ما عليه مِن الحقوق ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾؛ أي: زهد فيما عند الله ﷻ، فلم يعمل للآخرة، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾؛ أي: كذَّب بمثوبة الله وجنته ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾؛ أي: سنهيئه للطريقة العسرى، وهي طريق الشَّقاء والخسران جزاءً وفاقًا.

وفي الآيات مقابلةُ أربعةِ معانٍ بأربعة: قابل (أعطى) بـ(بخل)، و(اتقى) بـ(استغنى)، و(صدق) بـ(كذب)، و(اليسرى) بـ(العسرى)، وهذا من بلاغة الكتاب العظيم، وفائدة المقابلة الإيجاز وإظهار التضاد بين الفريقين، حثًا وتحذيرًا، وترغيبًا وترهيبًا.

﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾؛ أي: لا ينفعه ماله الذي بخل به إذا مات، ولا يدفع عنه الهلاك، و﴿تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ مِن الرَّدَى؛ وهو الموت، فـ ﴿مَا﴾ نافية، **وقيل**: استفهامية للإنكار والتوبيخ، والمعنى: أيُّ شيءٍ يغني عنه ماله؟! أي: لا يغني عنه شيئًا.

الفوائد والأحكام:

منها في الآيات الأربع الأولى:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه، ويقسم بنفسه وفعله.

٢ ـ أن الليل آية، وأظهر ما تكون عند غشيانه.

٣ ـ أن النهار آية، وأظهر ما تكون عند تجليه.

٤ ـ أن الله خالق كل ذكر وأنثى من بني آدم وغيرهم.

٥ ـ أن عمل الناس متفاضل ومتباين، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء].

وفي الآيات السبع التالية:

٦ ـ أن الناس فريقان: معطٍ وبخيل، وتقيٌ وفاجرٌ يرى نفسه مستغنيًا عن الله، ومصدقٌ ومكذب.

٧ ـ أن كلًّا ميسرٌ لما خلق له من سعادة وشقاوة، كما قال ﷺ: «**اعملوا فكلٌ مُيسر لما خُلق له**»[1]، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

٨ ـ أن السعادة تكون بالتصديق بالحق وامتثال الأمر والنهي.

٩ ـ أن الشقاوة تكون بالتكذيب بالحق وترك الطاعة؛ بمنع الواجب وفعل المحظور.

١٠ ـ إثبات القدر، والردُّ على القدرية، لقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

١١ ـ أن التقوى والإحسان إلى الخلق والتصديق بالحق سببٌ لتيسير العبد للطريقة اليسرى، وهي الميسَّرة التي لا حرج فيها.

١٢ ـ أن البخل والفجور والتكذيب بالحق سببٌ لتيسير العبد للعُسرى؛ التي لا تنفك عن المشاق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

١٣ ـ أن التوفيق للحسنة يكون جزاءً على حسنة، فيدل على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧)؛ من حديث علي رضي الله عنه.

قبولها، وأن الخذلان وفعل السيئة يكون عقوبة على سيئة قبلها.

١٤ ـ أن الفاجر الذي اغتر بماله ومنع حق الله فيه لا يغني عنه ماله إذا حضره الموت.

***

ولما ذكر سبحانه مَن يُيَسَّر لليسرى ومَن يُيسَّر للعسرى، وهم السعداء والأشقياء، أخبر تعالى أن عليه بيان الطريقين، طريق الهدى وطريق الضلال، وأنه مالك الدنيا والآخرة، فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل].

التفسير:

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: أَوْجبتُ على نفسي ـ بمقتضى الفضل والحكمة ـ أنْ أبين طريق الهدى والضلال، وطريق الطاعة والمعصية. فهذا ضمان مِن الله لبيان الطريقين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد هذا البيان.

وقد أكد الله ﷻ هذا الخبر ـ لعظم شأنه ـ بثلاثة مؤكدات: (إنَّ)، واللام، واسمية الجملة، وكذا قوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ﴾؛ أي: الدار الآخرة ﴿وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: الدُّنيا، فهما ـ أي: الدنيا والآخرة ـ ملكٌ له سبحانه لا حكم فيهما إلا له تعالى، يتصرف فيهما كيف يشاء، فيحكم بما يشاء مِن جزاء مَن أعطى واتقى وصدق، ومن بخل واستغنى وكذب، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

وتقديم الآخرة في قوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ لأنها أعظم من الدنيا، ولمراعاة الفاصلة.

قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: خوفتكم وحذرتكم نارًا عظيمة تتلهب وتتوهج، كما قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد]، والفاء في ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ للسببية، فإن الإنذار مسبب عن كون الآخرة لله ﷻ، وأصل ﴿تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ تتلظى، حُذفت إحدى التاءين تخفيفًا، والخطاب عام لجميع المكلفين. ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾؛ أي: لا يدخلها ويقاسي حرها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾؛ أي: أشد الناس شقاءً، وهو الكافر، بدليل قوله: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: كذب بآيات الله وأعرض عن طاعة ربه. وهذا لا ينافي أن المؤمن العاصي قد يدخل النار، كما دلت على ذلك النصوص؛ لأن المراد في الآية الدخول الدائم.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾؛ أي: سيُبْعِد اللهُ عن النار مَن يكون أتقى لربه، و(التجنيب) جعل الشيء من الشيء جانبًا، والفعل يُجنَّب ينصب مفعولين، مفعوله الأول ﴿الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ الذي هو نائب الفاعل، والمفعول الثاني الضمير المتصل الهاء، فالأتقى لما اجتنب السيئات جنبه الله النار، والجزاء من جنس العمل.

ثم ذكر من صفات الأتقى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: الذي يبذل ماله في وجوه الخير يطلب بذلك تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب ومن دنس الشح، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾﴾ هذا تأكيد لقوله: ﴿يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾، والمعنى: ليس لأحد عند هذا الأتقى نعمةٌ سابقة حتى يكافئه عليها ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: لكن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء ثواب الله

ورضاه، فالاستثناء منقطع؛ لأن الابتغاء ليس من جنس النعمة، و﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾ صفة للرب، ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾؛ أي: ولسوف يرضى بما يعطيه الله في الآخرة من النعيم المقيم، والله أكرم مَن وعد وأصدق من وفى ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

ونقل ابن عطية والرازي وابن كثير اتفاق المفسرين على أن المقصود بهذه الآيات أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهي وإن لم يرد بها نص صحيح فإنها منطبقة عليه، فيدخل فيها بطريق الأولى، ولا ريب أنه رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله أوجب على نفسه هداية العباد ببيان طريق الخير وطريق الشر.

٢ ـ أن الدنيا والآخرة ملك الله تعالى يتصرف فيهما كيف شاء.

٣ ـ أن الله أنذر العباد النار ليتجنبوا الأسباب المفضية إليها.

٤ ـ أن أحق الناس بدخول النار هو الأشقى الذي كذب بالحق، وتولى عن طاعة الله.

٥ ـ أن أحق الناس بالنجاة من النار من كان أتقى لله.

٦ ـ أن النجاة من النار كانت بفضل الله ورحمته، والتقوى سبب في ذلك، لقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧﴾.

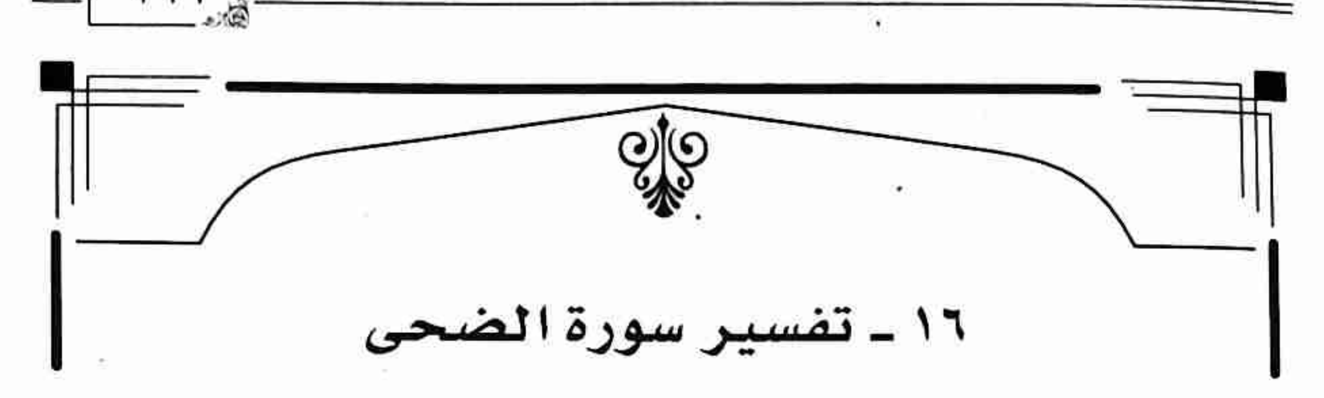
٧ ـ أن التقي ينفق ماله ليزكي نفسه.

٨ ـ أن أفضل الإنفاق ما كان خالصًا لوجه الله، وأفضل ذلك ما كان مبتدًا لا مكافأة.

٩ ـ فضل أبي بكر رضي الله عنه في العمل والجزاء، والرد على الرافضة.

١٠ ـ إثبات الوجه لله.

١١ ـ إثبات العلو بكل أنواعه لله تعالى.



١٦ ـ تفسير سورة الضحى

هذه السورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة، اشتملت الآيات الخمس الأولى على قَسم من الله بالضحى وبالليل إذا سجى، وعلى جواب القسم في ثلاث آيات، واشتملت الآيات الباقية على امتنان الله على نبيه ﷺ بما أنعم عليه من الإيواء من يُتمه والهدى والغنى، ثم التوجيه إلى ما يتضمن شكر هذه النعمة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

الآيات:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾؛ أي: أُقسم بالضحى، فهو قسمٌ مِن الله بوقت الضحى الذي فيه انتشار الضياء والحركة، وهو تعالي النهار، وهو مِن ارتفاع الشمس إلى الزوال، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾؛ أي: أُقسم بالليل إذا عمَّ بظلامه وسكن؛ أي: انقطعت فيه الحركة، والضحى والليل من مخلوقات الله الباهرة ومن آياته الظاهرة الحرية بالتفكر والاعتبار، والضحى يقابل الليل، فبينهما تضاد يدل على كمال قدرة الله وحكمته في خلق المتباينات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ هذا جواب القسم؛ أي: ما تركك ربك أيها الرسول، و(التوديع) مبالغة في الوداع، وهو الترك؛ أي: ما قطع الله عنك الوحي، وفي لفظ (رب) وإضافته إلى النبي ﷺ لطفٌ من الله بنبيه، وحفاوة به ﷺ، ﴿وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾؛ أي: ما أبغضك، وحذف المفعول من ﴿قَلَىٰ ۝٣﴾ للفاصلة، والمعنى: وما قلاك.

وفي الآيات ردٌّ على الكفار، فإنهم حين أبطأ جبريل عليه السلام على النبي ﷺ قالوا: قد وُدِّع محمد، فأنزل الله قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[1].

وبين المُقسَمُ به والمقسَمُ عليه تناسب؛ فكما يجيء الضحى بعد ظلام الليل، فكذلك الوحي وافَى بعد انقطاعه واحتجاب نوره.

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾؛ أي: وللدار الآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص: ٨٣]، ولام الابتداء لتوكيد مضمون الجملة، ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾؛ أي: خيرٌ من دار الدنيا، فما أعده الله في الآخرة من الثواب والكرامة لنبيه ﷺ خير مما أعطاه في الدنيا، ولهذا كان ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة**»[2]، وفي الآية بشارة لما سيكون له عليه الصلاة والسلام في الدنيا من النصر وظهور الدِّين، كما يفيده أفعل التفضيل ﴿خَيْرٌ﴾، فإن له عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة كرامةً وحظًا عظيمًا، ولكن الآخرة خير له وأفضل.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ أيها النبي في الآخرة مِن أنواع الإنعام والإكرام، ومن أعظمها الشفاعة = ما يرضيك، وأكدَّ الجملة باللام؛ لأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٠)، ومسلم (١٧٩٧) واللفظ له؛ من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٩٥)، ومسلم (١٨٠٥)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

مقام وعْد، ﴿فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ بذلك العطاء، وفي الجمع بين لام التوكيد وحرف التنفيس ﴿سَوْفَ﴾ دلالة على تحقق الوعد وإن تأخر عن هذه الدنيا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يقسم بما شاء من خلقه.

٢ ـ أن الله تعالى يقسم بالزمان وبأجزاء من الزمان، فأقسم: بالليل والنهار والفجر والعصر وبالضحى.

٣ ـ أن من آيات الله ونعمه الليلَ وسكونَه، والضحى والانتشارَ فيه.

٤ ـ الرد على المشركين الذين زعموا أن الله قلى نبيه.

٥ ـ أن الآخرة خير لنبيِّه من الدنيا.

٦ ـ كرامة النبي ﷺ على ربه.

٧ ـ إثبات الربوبية الخاصة التي من مقتضاها العطاء الكثير والخير الوفير.

٨ ـ أن الله سيكرم نبيه من العطاء حتى يرضى.

٩ ـ إثبات الشفاعة من قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾، ويشهد للآية حديث الشفاعة الطويل[١]، وما رواه مسلم أن الله قال: «**يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك**»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٢٠٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ولما بشر الله نبيه ﷺ بما سيعطيه في الآخرة من أنواع الخير ذكَّره بما أنعم عليه مِن النعم السابقة في الدنيا، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾؛ أي: فاقدًا لأبيك فآواك إلى من يكفلك ويرعاك، والاستفهام للتقرير والامتنان، والتقرير هو حمل المخاطب على الإقرار بمضمون الجملة؛ أي: وجدك يتيمًا فآوى، وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب توفي وهو عليه الصلاة والسلام حملٌ في بطن أمه، وماتت أمُّه وهو ابن ستة أعوام، وكان الذي كفله جده عبد المطلب، ثم توفي جده وعمره ثماني سنين، فكفله عمه أبو طالب، وكان شقيقًا لأبيه عبد الله، فما زال يرعاه ويحوطه حتى بعثه الله فنصره، وكف عنه الأذى إلى أن مات قبيل الهجرة بقليل، وهذا إيواؤه ﷺ الذي ذكره الله.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾؛ أي: غير عالم فعلَّمَك ما لم تكن تعلم، وكان عليه الصلاة والسلام لا يعلم شيئًا عن الشريعة، ولا عما يراد به من النبوة، حتى أتاه الوحي، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾؛ أي: فقيرًا لا مال لك فأغناك،

وحذف مفعول ﴿فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، و﴿هَدَىٰ﴾ و﴿أَغْنَىٰ﴾؛ تفخيمًا لشأن الإيواء والهداية والإغناء، ولموافقة رؤوس الآي.

ولما ذكَّره الله بهذه النعم الثلاث وصَّاه بما يفعل في ثلاثٍ مقابِلَةٍ لها؛ حتى يعامل أهلها بما يقتضيه إنعام الله عليه، فيرحم اليتيم، ويرفق بالسائل، ويحدث بنعمة الله، ولذا جاء الكلام مفرَّعا بالفاء على ما سبق: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ هذا في مقابل قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾؛ أي: فأما اليتيم فلا تظلمه لضعفه، وأحسن إليه، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ هذا في مقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾؛ أي: وأما سائل العلم أو المال فلا تزجره ولا تغلظ له في القول لجهله أو لإلحاحه.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ هذا في مقابل النِّعم الثلاث؛ أي: حدِّث نفسك وغيرك بها وبغيرها من نعم الله عليك وأظهرها، واشكر الله عليها، وهذا الخطاب عام له ولأمته ﷺ، فيتحدث العبد بنعم الله عليه على وجه الشكر والثناء على الله، وأضاف النعمة إلى ﴿رَبِّكَ﴾ تشريفًا لها، وأنه المنعم بها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ امتنان الله على نبيه بما أنعم عليه: ١ ـ من الإيواء في يتمه. ٢ ـ والهدى بالنبوة بعدما كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان. ٣ ـ وبالغنى بعد الفقر.

٢ ـ عظم حق اليتيم، وقد تضافرت النصوص في الأمر بالإحسان إلى اليتامى والنهي عن ظلمهم.

٣ ـ توجيه الله نبيه إلى شكر هذه النعم، وذلك بأمور ثلاثة: ١ ـ رحمة اليتيم ومجانبه ظلمه؛ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾. ٢ ـ تجنب

نهر السائل؛ سائل المال أو سائل العلم؛ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾.

٣ ـ التحدث بنعم الله، ويدخل في ذلك نشر العلم؛ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

٤ ـ التناسب بين هذه التشريعات وبين المنن الثلاث في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ الآيات الثلاث.

٥ ـ أن التحدث بنعم الله مِن شكرها، وهذا المعنى في القرآن كثير؛ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩].





١٧ ـ تفسير سورة الشرح

هذه السورة مكية، وعدد آياتها ثمان، اشتملت آياتها الأربع الأولى على امتنان من الله على نبيه ﷺ بما أنعم الله عليه من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، ودلت الآية الخامسة والسادسة على الوعد باليسر بعد العسر؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ مما ناله من أذى قومه، ودلت الآية السابعة والثامنة على الأمر بالنَّصَب بالعبادة عند الفراغ مع الرغبة إلى الله، لنيل ثوابه ورضاه؛ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

الآيات:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾؛ أي: ألم نوسع لك صدرك، وهذا استفهام تقرير وامتنان؛ فإن الاستفهام إذا دخل على النفي قرره، وصار الكلام أقوى أثرًا وأمكن في النفس، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك، بدليل قوله: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ﴿وَرَفَعْنَا﴾، وفي قوله: ﴿لَكَ﴾ وإضافة الصدر إليه تأكيدٌ للامتنان، وتنبيه على عود أثر النعمة

إليه ﷺ، وذكر الله نفسه بصيغة الجمع ﴿نَشْرَحْ﴾ لدلالتها على التعظيم.

وشرح الصدر معنوي على قول الجمهور، كما يقول ابن عطية، وذلك بتوسيعه بنور الوحي والنبوة، وما أودع الله فيه من الهدى والإيمان ومكارم الأخلاق.

وقيل: إنه شرحٌ حسِّي، بما وقع له ﷺ من ذلك مرتين:

إحداهما: في صباه يوم كان مسترضَعًا في بني سعد، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: «**هذا حظُّ الشيطان منك**»، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أُمِّه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: «وقد كنت أرى أثر ذلك المخيَط في صدره»(١).

والأخرى: قبل المعراج، لحديث أنس رضي الله عنه في مسلم أيضًا، قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فُرِج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ﷺ فَفَرج صدري، ثم غسله مِن ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئٍ حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء**»(٢) الحديث.

ولا تعارض بين القولين؛ فإن الشرح الحسِّي هو من أسباب الشرح المعنوي، والله أعلم.

قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾؛ أي: حططنا عنك الذنب، أي:

---

(١) مسلم (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

غفرناه لك، وأصل الوِزر الحِمْل الثقيل، سميت الذنوب أوزارًا ـ على سبيل الاستعارة ـ لثقلها على قلب المؤمن، وثقل تبعتها على الكافر والعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام].

﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: أثقل ظهرك، وهذا ترشيح للاستعارة، أي: أثقله الذنب حتى صار له نقيضٌ؛ أي: صوت، فالله تعالى قد حط عن نبيه ﷺ جميع الأوزار ما تقدم منها وما تأخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح]، ولْيُعلم أن الأنبياء تجوز عليهم الصغائر، ولكنهم يتوبون منها ولا يُقرُّون عليها، وتكون حالهم بعد الذنب خيرًا منها قبله، ولْيُعلم أنه ليس كل ذنب يجوز على الأنبياء؛ فإن منها أشياء لا تقع منهم أبدًا؛ كالكذب، والخيانة، وما يزري بهم، ويُنفِّر عنهم، لا قبل النبوة ولا بعدها.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾؛ أي: أعلينا شأنك بالنبوة والرسالة وبذكر اسمك في الشهادة، وقرن اسمه مع اسمه تعالى، وطاعته بطاعته، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، ولم يخاطبه الله باسمه العلم (محمد)، بل بوصف النبوة والرسالة، وألقى الله في قلوب المؤمنين محبته وتعظيمه وإجلاله ﷺ.

قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر؛ أي: إذا كنا أنعمنا عليك بذلك فلا تحزن لعدم إيمان قومك، واصبر على أذاهم ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾؛ أي: المشقة والضيق ﴿يُسْرًا ﴿٥﴾﴾؛

أي: فرجًا وسعة، وتنكير (اليسر) لعظمته وسعته، فهو يسر في كل شيء، وفي الآية بشارة ووعد من الله بنصر نبيه وإظهاره على المشركين عن قريب، لما تفيده ﴿مَعَ﴾ مِن سرعة مجيء اليسر بعد العسر، فكأنه معه؛ أي: مقارن له، ولذا أكد المعنى بتكراره فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

ولما ذكَّر الله نبيِّه بنعمه ندبه إلى الشكر والاجتهاد في العبادة، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾؛ أي: من أمر دنياك ﴿فَٱنصَبْ ۝٧﴾؛ أي: جِدَّ في العبادة، ففيها: الحث على استغراق جميع الأوقات في عبادة الله، وهذا أمر للنبي ﷺ ولأمته، وكذا قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾؛ أي: إلى ربك ـ وحده دون غيره ـ فارغب، كما يفيده تقديم الجار والمجرور؛ أي: فاتجه إلى ربك بالسؤال والضراعة وطلب ما عنده من الخير، فتضمنت الآية توحيد الربوبية في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، وتوحيد العبادة في قصر الرغبة على الرب سبحانه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ امتنان الله على نبيِّه ﷺ بما أنعم عليه مِن شرح صدره، والمراد بشرح الصدر ـ كما تقدم ـ **قيل**: معنوي، وهو توسعته لقبول ما يلقى إليه من الوحي، **وقيل**: حسِّي، كما جاء في الخبر.

٢ ـ امتنان الله على نبيِّه ﷺ بوضع وزره، وذلك بمغفرته تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

٣ ـ إكرام الله لنبيِّه عليه الصلاة والسلام من أول أمره بعظيم النعم.

٤ ـ أن الذنب ثقيل على القلب، ولذا شُبِّه بالشيء الثقيل الذي يحمل على الظهر.

٥ ـ امتنان الله على نبيِّه برفع ذكره، وهو إعلاء ذكره، فلا يذكر الله إلا ذكر معه، كما في الشهادتين.

٦ ـ تسلية الله لنبيِّه ﷺ بوعده باليسر بعد العسر.

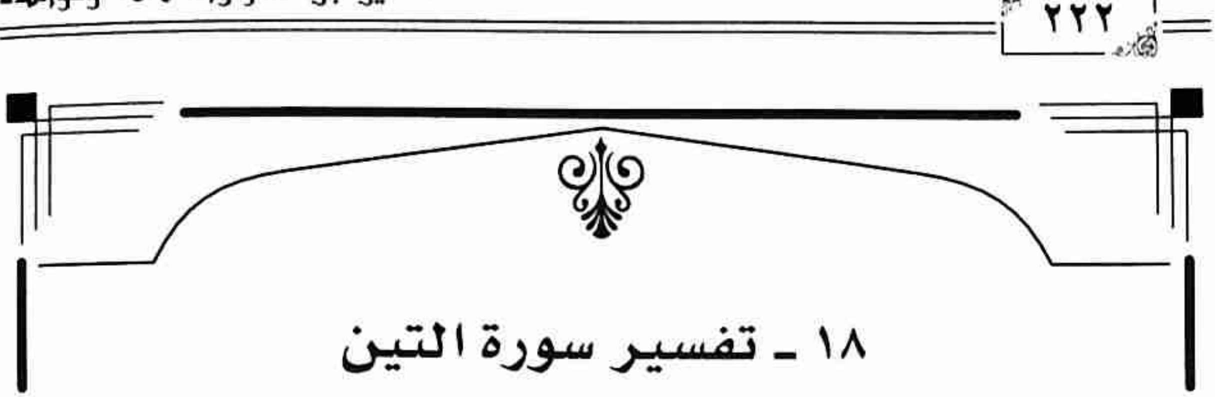
٧ ـ أمره تعالى نبيَّه ﷺ بشكره على ما مَنَّ به عليه من نعمه، وذلك بالنَّصَب في عبادته والرغبة إليه.

٨ ـ قَصْرُ الرغبة في المطالب على الله وحده.

٩ ـ أن كل ما يُطلب مِن خيرٍ فهو عند الله وبيده، فوجب أن تكون الرغبة إليه وحده، كما تدل عليه ربوبيته تعالى العامة والخاصة.

١٠ ـ التناسب بين هذه السورة والتي قبلها؛ لما فيهما من الامتنان والأمر بما يكون به الشكران.





١٨ ـ تفسير سورة التين

سورة التين مكية، وعدد آياتها ثمان، تضمنت الآيات الثلاث الأولى قسمًا من الله بأربعة أشياء: بالتين، والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين.

التين والزيتون ثمرتان معروفتان، فالله يقسم بهما، وقيل: المراد منابتهما، وهي الأرض التي بعث فيها المسيح، فيكون الإقسام من الله بالمواضع التي خرجت منها الرسالات الثلاث: رسالة المسيح، ورسالة موسى، ورسالة محمد عليهم الصلاة والسلام، ولم تذكر المواضع مرتبةً الترتيب الزمني، وذلك ليقترن ذكر موسى عليه السلام بذكر رسالة محمد ﷺ، لما بين الرسولين والرسالتين من التشابه، وهذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى قوله: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وتضمنت الآيات الرابعة والخامسة والسادسة جوابَ القسم وذِكْرَ المقسم عليه، وهو الإنسان في مبدئه ومنتهاه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

وأما الآيتان السابعة والثامنة فتضمنتا توبيخ المكذبين بالجزاء، وتمجيد رب العالمين سبحانه وتعالى؛ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين].

التفسير:

قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾؛ أي: أُقسم بالتين والزيتون، فهو قسم من الله تعالى بالتين والزيتون، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما العباد فليس لهم أن يقسموا إلا بالله تعالى، كما تقدمت الإشارة إليه، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ هما الثمرتان المعروفتان، وأقسم الله بهما لكثرة منافعهما، ولما فيهما من الدلالة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وحكمته ﷻ.

ولا ينفي ذلك أن يكون معنى الآية ـ على ما اختاره بعض المفسرين ـ أنه قَسمٌ بأرض التين والزيتون؛ أي: البلاد التي تنبت فيها، وهي بلاد أشرقت منها رسالات الله السماوية، ووُجد فيها الأنبياء الكرام، فأرض التين والزيتون هي الشام، وقد ظهر منها أنبياء آخرهم كلمة الله عيسى ابن مريم عليه السلام، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ هو الجبل الذي كلم الله عنده موسى عليه السلام.

ويدل لهذا القول أن الله عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾؛ أي: مكة، وفيها بُعث نبينا محمد ﷺ، فالله تعالى يقسم بهذه البقاع لشرفها، وللتذكير بنعمته تعالى على خلقه، حيث أخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ سينين لغة في (سيناء) بفتح السين

وكسرها، وسيناء صحراء بين مصر وفلسطين، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾؛ أي: وأُقسم بهذا البلد الأمين الذي هو مكة، والإشارة إليه لشرفه، و﴿ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ بمعنى الآمن، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ومَن دخله فقد أمِن على نفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ هذا جواب القسم، والمراد بالإنسان جنس بني آدم؛ أي: خلقناه في أحسن صورة، سَويَّ الأعضاء منتصب القامة، ذا فطرة سوية وعقل يميز به الخير من الشر، كما قال ﷺ: «**ما مِنْ مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]، فمَن آمن بالله ورُسله فقد نجا من عذاب الله وفاز برضوانه، ومن كفر فمصيره النار، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾؛ أي: جعلناه في أحط الدركات؛ أي: في النار، والكفار هم الأخسرون والأسفلون، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات]، ومن لازم دخوله النار انقلاب صورته إلى أقبح الصور، كما قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالردِّ إلى أسفل سافلين هو الرد إلى أرذل العمر بالهرم، وضعَّف شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول، وقطع بالقول الأول، وهو أن المراد النار، وأيد ذلك بوجوه قوية[2].

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، والاستثناء متصل، استثني المؤمنون من جنس

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (١٦٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٧٩).

الإنسان، فإنهم لا يُردون إلى أسفل سافلين يوم القيامة؛ ولا تَقْبُح صورهم، بل يزدادون حسنًا إلى حسنهم وبهجة إلى بهجتهم.

وعطف العمل الصالح على الإيمان من عطف الخاص على العام؛ لأن العمل من الإيمان، ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ قدم الجار والمجرور ﴿فَلَهُمْ﴾ للفاصلة وللبشارة والتشويق لما بعده؛ أي: لهم ثواب عظيم غير مقطوع، وهو جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، والفاء رابطة؛ لتضمن الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ معنى الشرط، وقد لا يتضمن الموصول معنى الشرط، فلا تأتي الفاء، كما في سورة الانشقاق في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ [الانشقاق]، وهذا من التنويع في الكلام.

قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ استفهام إنكاري، والفاء للتفريع، تفريع الإنكار على ما ذكر قبلها من دلائل الإيمان والقدرة، والمعنى: أيُّ شيء يحملك ـ أيها الإنسان ـ على التكذيب بالبعث والجزاء بعد وضوح الأدلة وقيام البرهان على ذلك؟! فإن مَن خلقك بعد العدم قادر على إعادتك مرة أخرى للجزاء، وفي الكلام التفات مِن الغَيبة إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾؛ أي: أقضاهم وأعدلهم وأحسنهم صنعًا وتدبيرًا، والاستفهام للتقرير.

وفي الآية وعيدٌ لكل مكذب، وفيها دليل على أن البعث والجزاء موجَب حكمة الربِّ ﷻ، فتأبى حكمتُه ألا يجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل التين على سائر الفواكه.

٢ ـ فضل الزيتون على غيره من الأُدُم.

٣ ـ أن شجرهما ينبت في أرض الشام.

٤ ـ فضل هذه المواضع الثلاثة التي ظهرت فيها الرسالات الثلاث: رسالة موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وأفضلها البلد الأمين، مبعث خاتم النبيين صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، وهو مكة التي حرمها الله، وجعلها بلدًا آمنا.

٥ ـ النص على أن هذه السورة مكية، بدليل الإشارة في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾، وهذا كقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد].

٦ ـ أن من أسماء مكة البلدَ الأمين.

٧ ـ تفضيل مكة بالأمن الكوني، ومنه: حفظها ممن يريدها بسوء، كما في حادثة الفيل، والأمن الشرعي، ومنه: تحريم شجرها وصيدها، وتغليظ حرمة الدماء والأموال والأعراض فيها.

٨ ـ تفضيل الإنسان في حُسن خلْقه في صورته وانتصاب قامته.

٩ ـ إثبات قدرته تعالى على البعث، بدليل قدرته تعالى على خلق الإنسان في نشأته الأولى.

١٠ ـ سُوء مصير الإنسان الكافر بردّه إلى أسوأ حال.

١١ ـ أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب النجاة من سوء المصير والفوز بالأجر الكبير.

١٢ ـ اعتبار الصلاح في العمل، وهو ما كان خالصًا صوابًا.

١٣ ـ دوام ثواب المؤمنين، وهو الجنة، ففيه:

١٤ ـ الرد على من يقول بفناء الجنة، وهو جهم بن صفوان.

١٥ ـ أنه لا حجة للمكذبين بالبعث والجزاء، والرد عليهم بثبوت حكمته تعالى وقدرته.

١٦ ـ أنه تعالى أحسن الحاكمين؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة].

١٧ ـ أن من أسمائه تعالى (أحكم الحاكمين)، والحاكم اسم فاعل من الحُكم، وكمال الحُكْم يتضمن إثبات الحِكمة وكمالها.





١٩ ـ تفسير سورة العلق

سورة العلق مكية، وعدد آياتها تسع عشرة؛ الخمس الأولى هي أول ما نزل على النبي ﷺ من القرآن ألقاها إليه جبريل عليه السلام، وهو في غار حراء، كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي، قالت: «كان أولَ ما بُدئ به رسولُ الله ﷺ الرؤيا الصادقةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه ـ قال: والتحنث: التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها، حتى فَجِئَهُ الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: «**اقرأ**»، فقال رسول الله: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ**»، قلت: «**ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ**»، قلت: «**ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ الآيات إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾»[1] الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢).

الآيات:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

التفسير:

قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ أي: اتْلُ ـ أيها النبي ـ ما يوحى إليك من القرآن مستعينًا بالله ومُفتتحًا بذكر اسمه تعالى، وقول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ ثلاث مرات، هو تبليغ للأمر بالقراءة، فقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ هو من كلام الله المنزل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ في عدد من السور والآيات، فهو أمر بأن يقول هذا القول، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفلق]، فكل هذا أمرٌ مِن الله لنبيه بأن يقول ما ذكر، وهكذا قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أمرٌ من الله لنبيه بالقراءة، وجبريل مبلِّغ لهذا الأمر.

نبَّه إلى هذا المعنى الطاهر ابن عاشور رحمه الله، قال: «والأمر بالقراءة مستعملٌ في حقيقته مِن الطلب لتحصيل فعلٍ في الحال أو الاستقبال، فالمطلوب بقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أن يفعل القراءة في الحال أو المستقبل القريب مِن الحال؛ أي: أن يقول مَا سَيُمْلَى عليه، والقرينة على أنه أُمر بقراءةٍ في المستقبل القريب أنه لم يتقدم إملاءُ كلامٍ عليه محفوظ فتُطلَبَ منه قراءته، ولا سُلِّمت إليه صحيفةٌ فتطلبَ منه قراءتها، فهو كما يقول المعلم للتلميذ: اكتب، فيتأهب لكتابة ما سيمليه عليه»، إلى أن قال رحمه الله: «وعلى هذا الوجه يكون قول الملك له في المرات الثلاث: ﴿ٱقْرَأْ﴾ إعادةً للَّفظ المنزل من الله إعادةَ تكرير؛ للاستئناس بالقراءة التي لم يتعلمها من قبل»[(١)] . ا.هـ.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٥).

وهذا كلام نفيسٌ قلَّ مَن نبَّه على معناه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾؛ أي: خلق جميع المخلوقات بعد العدم، كما يفيده حذف المفعول، فهو سبحانه المتفرد بالخلق، وذكر وصف الربوبية دون وصف الإلهية؛ لأن المقام مقام ربوبية وتدبير، ولما يفيده لفظ الرب من التربية الخاصة؛ أي: الذي ربَّاك ورعاك، ففيه تأنيس للنبي ﷺ.

وبعد أن أخبر سبحانه أنه خلق جميع الكائنات خص الإنسان بالذكر، وهو من أشرف مخلوقاته، وأدلها على كمال قدرته وحكمته وعلمه سبحانه، لما في خلق الإنسان من الإحكام والإتقان الذي يبهر العقول، ولأنه المكلف بالأمانه والمخاطب بالكتب السماوية ومنها القرآن، فقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾؛ أي: خلق هذا الإنسان الحسنَ الخِلقة مِن عَلَق؛ جمعُ عَلَقة، وهي القطعة الجامدة من الدم، و﴿مِنْ﴾ ابتدائية، فمن قَدِر على خلق الإنسان مِن هذا الأصل الضعيف فهو قادرٌ على أن يعيده تارةً أخرى بعد الموت.

ثم أعاد تعالى الأمر بالقراءة للتأكيد، فقال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾؛ أي: أكرم من كل كريم، فله سبحانه الكرم الأكمل من كل وجه، فالأكرم صفة تدل على كمال الاتصاف بالكرم، ومن كرمه سبحانه أنّه ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾؛ أي: علم الإنسان الكتابة بالقلم، وهي من جلائل النعم، وفيها من المنافع ما لا يحيط به إلا الله، فبالكتابة حُفِظ الدِّين وضُبطت العلوم وثبتت الحقوق، ومما يدل على شرف الكتابة أن الله ذكرها بعد تمدحه سبحانه بأنه الأكرم، والباء في القلم هي الداخلة على الآلة؛ أي: علمه الكتابة بواسطة القلم، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣].

وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾؛ أي: ما لم يكن يعلم قبل تعليم الله له، فالله تعالى أخرج الإنسان من بطن أمِّه لا يعلم شيئًا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، و﴿مَا﴾ اسم موصول يعمُّ كلَّ علم، فكل علم يعلمه الإنسان فهو من تعليم الله له، فخصَّ ثم عمَّ في التعليم، كما عمَّ ثم خصَّ في الخلق.

وذكر السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن سورة العلق في آياتها الأولى مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال؛ لكونها أول ما أنزل من القرآن، فإن فيها الأمر بالقراءة والبداءة فيها باسم الله، وفيه الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب وإثبات ذاته وصفاته، من صفة ذات وصفه فعل، وفي هذا الإشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، ولهذا قيل: إنها جديرةٌ أن تسمى (عنوان القرآن)؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله[(١)].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ الأمر بالقراءة، وهي التلاوة.

٢ ـ مشروعية الاستعانة بالله بذكر اسمه تعالى عند القراءة.

٣ ـ الرد على الجبرية، لقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾، فهو يدل على أن الإنسان له فعل.

٤ ـ أنه ليس أول واجب هو النظر في دلائل الربوبية، كما ذهب إليه المتكلمون؛ إذ لم يؤمر به النبي ﷺ في أول ما نَزل عليه، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)].

---

(١) الإتقان (٥/ ١٨٣٢) طبع مجمع الملك فهد.
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٨).

٥ ـ أن الله خالق كل شيء، لقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

٦ ـ إثبات صفة الخلق لله ﷻ.

٧ ـ إثبات الأفعال الاختيارية له سبحانه وتعالى.

٨ ـ إثبات القدرة.

٩ ـ أن من أعظم الدلائل على قدرته تعالى خلق الإنسان.

١٠ ـ إثبات قدرته تعالى على البعث، يؤخذ هذا بالاستدلال بالمبدأ على الإعادة.

قال شيخ الإسلام: «في الآية الأولى إثبات الخالق تعالى، وكذلك في الثانية، وفيها وفي الثانية الدلالةُ على إمكان النبوة، وعلى نبوة محمد ﷺ»[١]، ووجه ما قاله الشيخ من الدلالة على إمكان النبوة، وعلى نبوة محمد ﷺ، أن القادر على خلق جميع الخلق وعلى خلق الإنسان قادرٌ على جعل الإنسان نبيًا.

١١ ـ أن من أطوار خلق الإنسان: العلقة، وقد جاء ذكر هذا في مواضع من القرآن، وهو أول طورٍ يكون بالانتقال من الطور الأول النطفة.

١٢ ـ أن من أسماء الله الأكرم.

١٣ ـ إثبات صفة الكرم، وهو حسن الأوصاف وكمالُها، والإحسان إلى العباد بأنواع النعم.

١٤ ـ أن تعليم القراءة من كرمه تعالى.

١٥ ـ أن علم الكتابة يكون بتعليمه سبحانه.

---

(١) السابق (١٦/ ٢٦٠).

١٦ ـ أن علم الكتابة من نعم الله.

١٧ ـ أن كل علم يعلمه الإنسان فبتعليمه سبحانه وتعالى التعليم الشرعي والكوني، فمن الكوني تعليم القلم، ومن الشرعي تعليم القرآن، وقد جمع الله النوعين في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن]، فتعليم القرآن شرعي، وتعليم البيان كوني.

***

لما ذكر الله ما أنعم به على الإنسان من النعم بدءًا مِن خلقه ثم تعليمه، مما يقتضي الشكر؛ إلا أنَّ مِن الإنسان مَن لم يشكر نِعم الله، وهم الأكثر، بل قابلوها بالكفران، ومع الاستغناء بالطغيان، الموجب للخسران والعذاب، فقال سبحانه:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾ [العلق].

هذه الآيات تضمنت ذكرَ صنفٍ من الناس، وهو الكافر، أو إنسان معين من الكفرة، وهو أبو جهل، كما جاء في سبب نزول الآيات، وفيها ذم له بالطغيان وكفران النعمة، والنهي عن الصلاة، والصدِّ عن سبيل الله، وبالتكذيب والإعراض، وفيها تهديد وتوبيخ له.

وفيها وصف النبي ﷺ بضد ما عليه ذلك الكافر ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ ونهيٌ للنبي ﷺ عن طاعته، وأمرُهُ بالسجود لربه والتقرب إليه ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾؛ أي: حقًّا ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾؛ أي: لَيتجاوز الحدَّ في الطغيان وفي التكبر على ربه، ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾؛ أي: لأجل أن رأى نفسه صار غنيًا بماله وعشيرته، و(الإنسان) في الآية وإن كان المراد به أبا جهل؛ فإنه يعم كلَّ إنسانٍ ملأَ الكِبرُ قلبَه، وأبطره الغنى، وعصى ربه، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا جهل عدوَّ الله أقسم باللات والعزى لئن رأى النبي ﷺ يصلي ليطأن على رقبته، أو ليعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي - زعم ليطأ على رقبته - قال: فما فَجِئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا مِن نارٍ وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوا**» قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦﴾ الآيات[(١)].

ووصفه تعالى لأبي جهل بالطغيان يشبه قوله سبحانه في فرعون: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه]، ويشهد لهذا ما جاء عن النبي ﷺ عن أبي جهل أنه فرعون هذه الأمة[(٢)].

قوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾؛ أي: الرجوع والمصير إلى الله وحده، فيجازي كلا بعمله، وفي الآية تهديد لكل طاغ متكبر، و(الرجعى) مصدر كالبُشرى.

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له الخطاب؛ أي: أخبرني أيها السامع عن هذا الطاغي الشقي، ما أجهله

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٩٧).

(٢) روى الإمام أحمد في المسند (١/ ٤٠٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٦٢)؛ عن ابن مسعود مرفوعًا: «**كان هذا** [أي أبو جهل] **فرعون هذه الأمة**».

وأضله! الذي ينهى على سبيل الاستمرار ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ وهو النبي ﷺ، ووصْفُه بالعبودية تشريفٌ له، ﴿أَرَءَيْتَ﴾ أيها السامع ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾؛ أي: مهتديًا على طريقة مستقيمة ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: أمر الناس بالتوحيد وعبادة الله وترك الشرك به، أيصح أن يُنهى عن ذلك؟! وفي الآية تعجيب وتشنيع على الشقي.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أخبرني أيها السامع عن هذا الناهي إن كذب بالرسول وأعرض عن اتباعه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: مطّلع على فعله القبيح، فيجازيه عليه، ولا يفلت من عقابه، ففي الآيات تعجيب من حال هذا الطاغي الجاهل، وتبشيع لفعله، مرة بعد مرة، حيث لم يقتصر طغيانه على غروره بماله، بل تمادى به الطغيان حتى صار ينهى مَن يصلي لربه، ويشتد قبح فعله إذ كان ذلك العبد على الحق والهدى، آمرًا بتقوى الله، وقد جمع هذا الطاغي إلى ذلك الفعل القبيحِ التكذيبَ بالحق والتوليَ عنه.

وفي قوله ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ توبيخ له على جهله وغفلته عن رؤية الله له، وهو يرد الحق وينهى من يؤمن به، ويدعو إليه، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾ [البلد].

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجرٌ لذلك الطاغي ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ اللام هي الموطئة للقسم الدال على تأكيد الكلام؛ أي: لئن لم ينته عما هو عليه من الطغيان والكفر ونهي الرسول ﷺ ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ اللام واقعة في جواب القسم؛ أي: لنأخذن بناصيته، ثم نلقيه في النار، كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمٰن]، و(السَّفع) هو القبض على الشيء وجذبُه بشدة، وقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ أصله: (نسفعنْ) آخره نون ساكنة للتوكيد، لكنها جعلت في الرسم القرآني ألفًا على حكم

الوقف؛ لأن نون التوكيد الخفيفة يوقف عليها بإبدالها ألفًا، قال ابن مالك في نون التوكيد الخفيفة:

وأبدِلَنْهَا بعد فَتْحٍ أَلِفَا   وقْفًا كما تَقُولُ في قِفَن: قِفَا

و(الناصية) هي شعر مقدَّم الرأس، وتطلق على مقدم الرأس بلا قيد شعر، وخصَّ الناصية لزيادة الإهانة والإذلال، ثم وصف ناصيته فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ﴾ في قولها، والمراد صاحبُها ﴿خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ في فعلها، يقال: خَطِئ - بوزن عَلِم - خِطْأً فهو خاطئ، وهو مَن يفعل الذنب عن عمد، خلافًا لِـ (أخطأ)؛ فإنه الذي يفعله لا عن عمد، واسم الفاعل منه مُخطئ، ومصدره (الخَطَأ) بالتحريك، هذا هو الأكثر في استعمال القرآن.

وقد يستعمل (الخَطَأ) بمعنى الخِطء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خَطَأً كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] على قراءة ابن ذكوان وأبي جعفر.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره، فقال: يا محمد بأيِّ شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديًا، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾، قال ابن عباس: لو دعا ناديه أخذته زبانية العذاب من ساعته[1].

قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أهل مجلسه جميعًا من قرابته

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٢١). ورواه أيضًا ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٥٣٨)، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الإمام أحمد (٢٣٢١)، (٣٠٤٤)، والترمذي (٣٣٤٩). وقال عنه: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وصحح إسناده الحاكم (٣٨٠٩).

وعشيرته مستنصرًا بهم، والأمر للتحدي والتحقير، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أصلها: (سندعو)، حذفت الواو لالتقاء الساكنين، وهي محذوفة في الرسم؛ أي: سندعو ملائكة العذاب فتلقيه في جهنم، واحدهم: زِبْنِيٌّ، بكسر الزاي وسكون الباء، نسبة إلى الزَّبْن، وهو الدفع.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للطاغي ونفيٌ أن يفعل ما تـُحدي به، ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في ترك الصلاة، واثبت على معاصاته، والخطاب للنبي ﷺ، ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾؛ أي: دُم على الصلاة واجتهد في التقرب إليه تعالى بأنواع الطاعة، ومنها السجود، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كما في الحديث[١].

فبدئت السورة بالأمر بالقراءة التي هي ذكرُ ركنِ القيام في الصلاة، وختمت بالأمر بالسجود، الذي هو أفضل أحوال الصلاة، والفرق بين الاقتراب والتقرب أن الاقتراب ثمرة التقرب.

وهذه الآية موضع سجود، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع النبي ﷺ في إذا السماء انشقت، واقرأ باسم ربك[٢].

الفوائد والأحكام:

١ ـ التناسب بين السورتين (التين والعلق) في شأن الإنسان؛ في خلقه ومصيره، فهذا الذي طغى وتولى هو المردود في النار أسفل سافلين.

٢ ـ النهي عن الطغيان، وهو الإفراط في الكفر والظلم، وذم من اتصف به، ومنه كفران النعمة، والنهي عن المعروف، كالصلاة.

٣ ـ تهديد من طغى بالرجوع إلى الله بالموت، ثم البعث والجزاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (٥٧٨).

٤ ـ إثبات المعاد.

٥ ـ أن من أنواع الطغيان الصدَّ عن سبيل الله، ومنه النهي عن الصلاة.

٦ ـ أن الغنى من أسباب الطغيان.

٧ ـ التقابل بين حال العبد الكافر الطاغي والعبد المؤمن التقي، وأنهما ضدان ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾.

٨ ـ أن من الطغيان التكذيب بالحق والإعراض عن قبوله والعمل به، مع علم المكذب بأن الله يراه؛ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾.

٩ ـ وصفه تعالى بأنه يرى كل شيء.

١٠ ـ تهديد مَن أصرَّ على الطغيان بالأخذ بناصيته، وأخذ ملائكة العذاب به لإلقائه في العذاب، ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ [الرحمٰن].

١١ ـ إثبات ملائكة العذاب، وهم الزبانية.

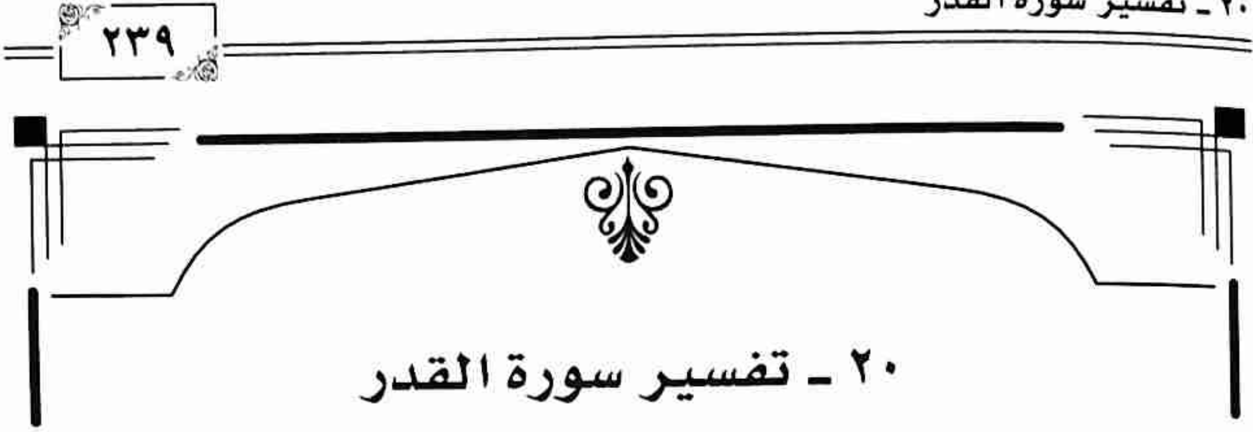
١٢ ـ النهي عن طاعة الكفار، وشواهده في القرآن كثيرة.

١٣ ـ الأمر بالسجود لله، وهو يتضمن الأمر بالصلاة، ففيه شاهد لقوله ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[1].

١٤ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها، وارتباط ذلك بالصلاة، فأولها الأمر بالقراءة، وآخرها الأمر بالسجود.



(١) تقدم تخريجه.



٢٠ ـ تفسير سورة القدر

سورة القدر، وعدد آياتها خمس، وهي مدنية على الصحيح، كما تشهد لذلك السُّنَّة في الأحاديث الصحيحة، وما فيها من التنويه بليلة القدر، ولم يكن مثل ذلك في مكة.

وقد تضمنت الإخبار عن وقت إنزال القرآن، وهو ليلة القدر، كما دلت الآية في سورة البقرة على الشهر الذي نزل فيه القرآن، وهو شهر رمضان، فدل مجموع الآيتين على أن ليلة القدر في شهر رمضان، كما تضمنت السورة التنويه بليلة القدر، وذلك من وجوه:

١ ـ إنزال القرآن فيها.

٢ ـ وصفها بذات القدْر؛ أي: الشرف.

٣ ـ تفخيمها بالاستفهام.

٤ ـ تعظيم شأنها بذكر اسمها الظاهر دون الضمير ثلاث مرات.

٥ ـ تقدير المقادير فيها.

٦ ـ أنها تفضل على ألف شهر.

٧ ـ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر.

٨ ـ وصفها بأنها سلام.

٩ ـ ومن السُّنَّة أن من قامها غفر له ما تقدم من ذنبه.

١٠ ـ اجتهاد النبي ﷺ في تحريها، وترغيبه أصحابه في ذلك، فدل على فضلها الكتاب والسنة.

الآيات:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر].

التفسير:

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ضمير الجمع في ﴿إِنَّآ﴾ يعود إلى الله تعالى، والله تعالى يذكر نفسه بضمير الجمع لدلالتها على التعظيم، كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾ [ق]، وقد يذكر نفسه سبحانه بصيغة الإفراد لدلالتها على التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طه].

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ الضمير المنصوب يعود إلى القرآن، ولم يتقدم له ذكر للعلم به ولشهرته، ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾؛ أي: ليلة الشرف والفضل، من قولهم: «فلان له قدْرٌ»، فليلة القدر ليلة عظيمة تغفر فيها الخطيئات وتقال العثرات، وفي الصحيحين: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

وقيل: سميت ليلة القدر من التقدير؛ لأن مقادير العام؛ من الأرزاق والآجال وغيرها، تقدر وتكتب في تلك الليلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

والمعنيان صحيحان، والثاني داخل في الأول، فإن تقدير المقادير فيها لشرفها وفضلها.

دلت الآية على أن القرآن أُنزل في ليلة القدر، وليلة القدر في رمضان، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ومعنى إنزاله في رمضان؛ أي: ابتداء نزول القرآن كان في رمضان؛ فإن الليلة التي نزل فيها جبريل على النبي ﷺ بالآيات الخمس مِن سورة العلق كانت في رمضان، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا[1]، ثم بقي ينزل على الرسول ﷺ نجومًا مفرقًا بحسب الوقائع، وبهذا يظهر التناسب في ترتيب السورتين العلق والقدر، فكأنه قيل: إن تلك الآيات في العلق أنزلت في ليلة القدر.

ودلَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ على تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه:

الأول: ذكر القرآن بالضمير.

الثاني: أن الله اختار لإنزاله أشرف الأوقات.

الثالث: أن الله أسند إنزاله إلى نفسه.

ولما كانت تلك الليلة عظيمة عند الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾؛ أي: أيُّ شيء أعلمَك عظمَ قدرها ومنتهى فضلها، فالاستفهام للتفخيم والتشويق لما بعده، ولهذا قال في بيان فضلها: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾؛ أي: في الشرف والفضل، والمعنى: أن

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٨٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٩٩١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٢)، ولم يتعقبه الذهبي، وصححه الضياء في المختارة (١٥١).

العبادة في تلك الليلة خيرٌ وأكثرُ ثوابًا وأعظم فضلًا مِن العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، قال ابن عيينة: «ما كان في القرآن ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أعلمه، وما قال: ﴿وما يدريك﴾ فإنه لم يعلمه»(١) قلت: هذه قاعدة أغلبيه.

ثم ذكر تعالى من فضل تلك الليلة فقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: تتنزل الملائكة تباعًا ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، والمعنى أنه ينزل مع الملائكة في ليلة القدر، وخصه بالذكر لشرفه مع أنه داخل في الملائكة، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾؛ أي: بأمره تعالى لهم بالنزول، فنزولهم طاعة لله، وفي الحديث عن النبي ﷺ أن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى(٢).

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾؛ أي: ينزلون بكل أمر قدَّره الله، فمِن بمعنى الباء، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان].

ويجوز أن تكون ﴿مِّن﴾ على بابها، فيكون الجار والمجرور ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ متعلِّقًا بما بعده، وهو قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾، والمعنى: هي ليلةُ خيرٍ وأمان وسلام من كل آفة وشر(٣).

---

(١) نقله عنه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٠٨).

(٢) وهو ما أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٥٤٥)، ومن طريقه الإمام أحمد (١٠٧٣٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**إنها ليلة سابعة ـ أو تاسعة ـ وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى**» وصححه ابن خزيمة (٣/ ٣٣٢)، وقال الهيثمي «مجمع الزوائد» (٣/ ١٧٦): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، رجاله ثقات». وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٠٥).

(٣) النحويون يقولون: إنَّ المصدر لا يتقدَّم عليه معمولُه. ولهذا يجعلون الجار والمجرور (مِنْ كلِّ أَمْرٍ) متعلِّقًا بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه المصدرُ (سَلَامٌ)، ولا موجب لهذا، والقرآن حجة عليهم.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر و﴿هِيَ﴾ مبتدأ أُخِّر للحصر؛ أي: ما هي إلا سلام، فهو إخبار بالمصدر مبالغةً؛ للدلالة على الكثرة والكمال، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾؛ أي: تمتد تلك الليلة بما فيها من الخير إلى وقت طلوع الفجر.

وقد اختلف أهل العلم في تعيين ليلة القدر تبعًا لاختلاف الأحاديث الواردة في تعيينها، وأصح ما قيل أنها تتنقل في العشر الأواخر مِن رمضان، وهي في الأوتار آكد[1]، والعلم عند الله.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذِكْر الله نفسه بضمير الجمع الدال على عظمته.

٢ ـ أن القرآن منزل.

٣ ـ أنه منزل في ليلة القدر؛ أي: ابتداء نزوله، **وقيل**: إنزاله جملة من اللوح المحفوظ.

٤ ـ فضل ليلة القدر من الوجوه المتقدمة.

٥ ـ تقدير مقادير السَّنة، من ليلة القدر إلى مثلها.

٦ ـ أن ليلة القدر باقية لم ترفع، قاله بعضهم، ووجْهُه: إضافتها للقدر، وهو التقدير لما يكون في السَّنة، والتقدير في كل سنة، لا يختص بالسَّنة التي بدئ فيها إنزال القرآن، ولأن بقاءها مناسب لبقاء القرآن محفوظًا، فتذكر كلما ذكر نزول القرآن، كما يذكر القرآن كلما جاء رمضان الشهر الذي أنزل فيه القرآن، كما يقتضي بقاءها ـ أيضًا ـ ما ذكر

(١) ذكر ابن حجر في فتح الباري (٤/ ٢٦٥) أربعين قولًا في تعيين ليلة القدر، قال في أثنائها: «القول السابع والعشرون: تنتقل في العشر الأخير كلِّه، قاله: أبو قلابة، ونص عليه: مالك، والثوري، وأحمد، وإسحاق. وزعم الماوردي أنه متفق عليه».

في هذه السورة من تعظيم شأنها، والامتنان بها على هذه الأمة.

٧ ـ تنزل الملائكة في تلك الليلة، وجبريل عليه السلام معهم.

٨ ـ أن الروح اسم لجبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء]، وتخصيصه بالذكر في هذا السياق؛ لأنه الذي نزل بالقرآن.

٩ ـ أن نزول الملائكة بإذن الله؛ أي: بأمره.

١٠ ـ إثبات الملائكة، وأنهم قائمون بأنفسهم، ويتصرفون بأمر الله، خلافًا لمن يزعم من المتكلمين أنهم أشياء معنوية.

١١ ـ أن ليلة القدر مباركة، كما في سورة الدخان، ومن بركتها كثرة نزول الملائكة فيها.

١٢ ـ أنها ذات سلام؛ أي: سالمة من الشرور التي تحدث في غيرها.

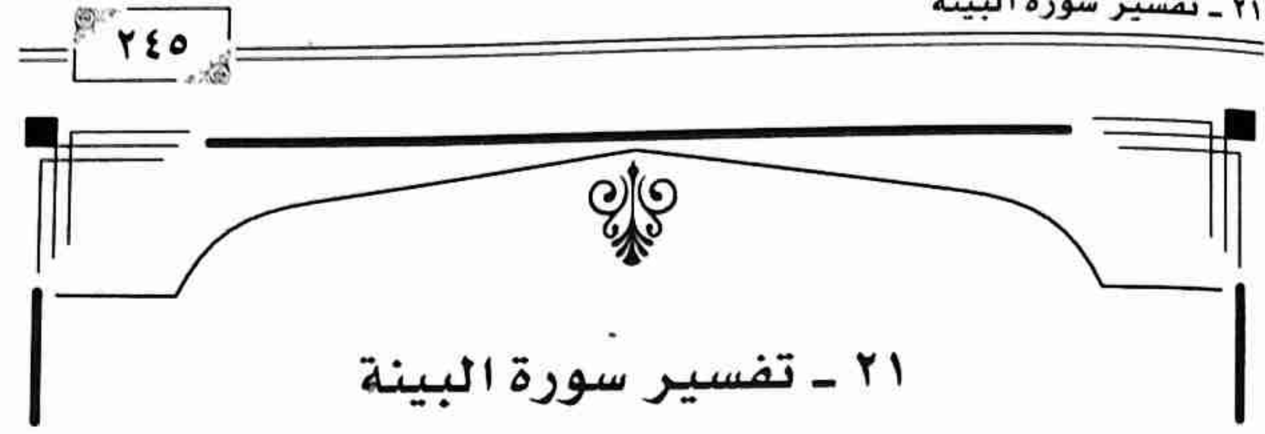
١٣ ـ أن وقت ليلة القدر من أول الليل إلى طلوع الفجر.

١٤ ـ أن الليل أفضل من النهار، كما استنبطه بعض العلماء من إنزال القرآن في ليلة القدر، وهذا استنباط وجيه، ويؤيده أن الليل أخصُّ بالوظائف والفضائل الدينية كالتهجد والدعاء، وفيه النزول الإلهي، ومن الليالي ليلة القدر.

١٥ ـ أن العمل قد يفضل غيره لفضل الزمان.

١٦ ـ فضل الله على هذه الأمة بتيسير أسباب الأجور.





٢١ ـ تفسير سورة البينة

هذه السورة مدنية، وآياتها ثمان، وقد قرأها الرسول ﷺ على أبيٍّ بن كعب، وأخبره أن الله أمره بذلك، فقال أبيٌّ: وسمَّاني لك؟ قال: «**نعم**»، فبكى أبيٌّ رضي الله عنه[1].

وقد تضمنت الآيات الأربع الأولى الخبر عن الكفار من أهل الكتاب والمشركين بأنهم لم يكونوا منفكين إلا من بعد ما جاءتهم البينة، والبينة هي الرسول ﷺ الذي جاء بالقرآن المكتوب في صحف، وهي الصحف التي في أيدي الملائكة، كما في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

كما تضمنت الخبر عن تفرقهم بعدما جاءتهم البينة، وأنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله وحده، وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهما أعظم شرائع الإسلام بعد التوحيد، كما تضمنت الآيات الثلاث في آخر السورة ذكر جزاء الكافرين، وهو الخلود في جهنم، وجزاء المؤمنين، وهو الخلود في جنات النعيم، مع بيان منزلة الفريقين.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

الآيات:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أي: اليهود والنصارى، و﴿مِنْ﴾ بيانية، لبيان الذين كفروا ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عُبّاد الأوثان، معطوف على أهل الكتاب، ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عن كفرهم؛ أي: مفارقين له ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾؛ أي: إلى أن تأتيهم الحجة الواضحة من الله التي يتبين بها الحق من الباطل، ثم بيَّن هذه البيِّنة، فقال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو محمد عليه الصلاة والسلام، وإطلاق البينة عليه كإطلاق النور والسراج عليه ﷺ؛ لأنه يبين للعباد ما نزل إليهم من ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

ولقد أخبر الله عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون على العرب بمحمد ﷺ قبل أن يبعث؛ أي: يستنصرون به على مشركي العرب، ويتحرون ظهوره لما هو مكتوب عندهم في كتبهم، فيتبعونه بزعمهم،

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

كما أخبر الله عن المشركين أنهم يُقسمون أنْ إذا بُعث فيهم رسول أنْ يتبعوه، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر]، فهذا معنى الآية عند أكثر المفسرين؛ أي: لم يكن الكفار من أهل الكتاب والمشركين تاركين لكفرهم حتى يأتيهم رسول.

وقيل: معنى الآية: لم يكن هؤلاء وهؤلاء متروكين حتى يُرسَل إليهم رسول، فهي كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة]، لا يؤمر ولا ينهى، وكقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ وذلك بإرسال الرسل ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ورجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى(١).

وسمَّى الله نبيه ﷺ (بيِّنة) لكمال أوصافه، كأنَّ ذاتَه نفسُ الحجة، وذلك لما كان عليه مِن الأخلاق الباهرة، ولما أُيِّدَ به من الآيات والمعجزات الظاهرة، مع كونه أُميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا بدل من ﴿ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾، وتنكير (رسول) لتعظيمه، ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾؛ أي: يقرأ عن ظهر قلب قرآنًا مكتوبًا في الصحف التي بأيدي الملائكة، والصحف التي بأيدي المؤمنين،

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٩٤).

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس]، ﴿مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾؛ أي: منزهة من الباطل والتحريف، فالقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾؛ أي: في تلك الصحف شرائع مستقيمة وأخبار صادقة، فكُتُبٌ بمعنى أحكام أو أخبار مكتوبة، وهي ما تتضمنه آيات القرآن.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾؛ أي: وما اختلف اليهود والنصارى في القرآن أو في النبي محمد ﷺ وصاروا شيعًا وأحزابًا إلا من بعد ما جاءهم الرسول ﷺ بالحق المبين، فهذا موجبٌ لإيمانهم، ولكنهم اختلفوا، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وأفرد أهل الكتاب بالذكر لشناعة حالهم؛ فإنهم يعلمون نبوته وصدقه عليه الصلاة والسلام، فجحود العالم أقبح من إنكار الجاهل الغافل، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ؛ أي: إن تكذيبهم كان لعنادهم، لا لقصور في الحجة.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: والحال أنهم ـ أي الجميع ـ ما أمروا بما أمروا به إلا ليعبدوا الله وحده ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: لا يشركون أحدًا معه في العبادة، ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ أي: مائلين عن الباطل إلى الحق، جمع حَنِيف، ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهما مِن أعظم أركان الإسلام، ولذا خصهما الله بالذكر، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما أمر الله به من العبادة والإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأشير إليها بإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لعلو شأن هذه الشرائع، ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾؛ أي: دينُ الملة

المستقيمة، وهو دين الإسلام، فلأيِّ شيء لا يدخلون فيه؟!

ثم ذكر مآل الفريقين المؤمنين والكافرين في الآخرة، وابتدأ بالكفار؛ لأن الحديث عنهم من أول السورة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بالله ورسوله، ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: لا يخرجون منها أبدًا، وسُميت النار (جهنم)؛ لأنها ذات تجهم وعبوس، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾؛ أي: شر الخليقة عند الله لكفرهم، وسُموا (برية)؛ لأن الله برأهم؛ أي: أوجدهم بعد العدم، وأصل (البرية): البريئة، فسُهِّلت الهمزة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ فلا بُدَّ مع الإيمان مِن عمل، ولا بد أن يكون العمل صالحًا، ولا يكون صالحًا إلا بشرطين؛ هما: الإخلاص والمتابعة، ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في الآخرة، ومجيء اسم الرب هنا لبيان أن ما نالوه من الجزاء هو من آثار ربوبيته الخاصة، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة، مِن: عَدَنَ بالمكان؛ إذا أقام فيه، وعلى هذا فـ(عَدْنٌ) ليس اسمًا مخصوصًا لجنة من الجنات، بل هو وصف عام لجميع الجنات، فكلها جنات عدن، كما يفيده اشتقاق المادة، ورجحه ابن القيم[1]، وجمعت الجنات باعتبار أنواعها، وإذا أفردت فباعتبار الجنس، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: من تحت قصورها وأشجارها، فهي متناهية في الحسن، قال ابن القيم:

أنهارُها في غَيرِ أُخدُودٍ جرتْ   سُبحانَ مُمسِكها عَن الفَيَضانِ[2]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهذا من تمام السعادة، فهم في نعيم مقيم

---

(١) ينظر: حادي الأرواح (ص: ٩٨).
(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص: ٣٠٨).

وسرور دائم، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم له، فقبل أعمالهم، ورِضَى الله عنهم أعظمُ من دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة]، وفي الصحيح: يقول الله لأهل الجنة: «**ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟**» فيقولون: يا ربِّ وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: «**أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[1].

﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لما أعطاهم من أنواع الكرامة، ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الجزاء الحسن والرضى مِن الله ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾؛ أي: لمن خاف الله واتقاه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات]، والخشية أخص من الخوف؛ لأن فيها تعظيمًا للمخوف منه، وذِكْر التأبيد في وعد المؤمنين دون وعيد الكافرين؛ لأن ذلك من تمام التفصيل في الوعد.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وصف أهل الكتاب بالكفر.

٢ ـ تسمية الرسول ﷺ بينة، كما سُمي ذِكرًا في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق].

٣ ـ ضرورة البشَر إلى بعْثِ الرُّسل.

٤ ـ أن القرآن مكتوب في صحف بأيدي الملائكة وعند المؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩)؛ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

٥ ـ أن في القرآن علومًا وشرائع قيمة.

٦ ـ أن أهل الكتاب لم يتفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة المبيِّنة؛ إما تفرقهم بعد مجيء أنبيائهم بالآيات البينات، وإما تفرقهم بعد بعثة محمد ﷺ، بين مؤمن به وكافر.

٧ ـ أن أعظم ما أمر الله به العباد: التوحيد والصلاة والزكاة، وهي أهم أصول الدين الحق.

٨ ـ وجوب الإخلاص في العبادة، واعتبار النية.

٩ ـ إثبات الجنة والنار، وأن أهلهما فيهما مخلدون.

١٠ ـ بيان أسباب السعادة والشقاوة.

١١ ـ منزلة الكافرين ومنزلة المؤمنين بين الخليقة، فالكفار شر البرية، والمؤمنون خير البرية.

١٢ ـ فضل صالح المؤمنين على الملائكة، قاله بعضهم، لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾.

١٣ ـ إثبات عندية العهد والضمان؛ لقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

١٤ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

١٥ ـ إثبات صفة الرضا لله.

١٦ ـ فضل خشية الله، وأنها الباعث على طاعة الله ورسوله.





٢٢ ـ تفسير سورة الزلزلة

هذه السورة مكية، كما جاء عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وغيرهم، وقيل: مدنية، والأول أظهر، ويؤيده أن مضمون السورة مما يناسب القرآن المكي، وعدد آياتها ثمان، وقد تضمنت الآيات الخمس الأولى الخبر عن حدث عظيم من حوادث يوم القيامة، وهو زلزلة الأرض واضطرابها بعد قرارها، وتحديثُها بأخبارها بوحي الله إليها، وتضمنت الآيات الثلاث الأخيرة الخبر عن صدور الناس بعد الحشر من أرض الحشر، ليجد كلٌّ جزاءَ عمله وإن قلَّ، ثوابًا أو عقابًا.

الآيات:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾؛ أي: حُركت تحريكًا عنيفًا، ورُجّت رجًا شديدًا متتابعًا، فتحطم كلُّ ما عليها، وصارت بسببه قاعًا صفصفًا، ﴿زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ مصدر مضاف إلى ضمير الأرض لتناسب

رءوس الآي، ولإفادة عِظَمه؛ أي: زلزالها الهائل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج].

وبناء الفعل ﴿زُلْزِلَتِ﴾ لما لم يسم فاعله للعلم بالفاعل؛ وهو الله تعالى، ولأن المقصود الإخبار عن الزلزال، وافتتاح السورة بإذا الشرطية مع تعدد جمل الشرط للتشوُّف إلى معرفة الجواب بذكر ما سيحدث؛ ليقع موقعه في النفس، ومعلوم أنَّ ﴿إِذَا﴾ هنا ظرف لزمان يوم القيامة الممتد من النفخة الأولى إلى دخول دار الجزاء (الجنة والنار)، فهذه الزلزلة تكون عند النفخة الأولى التي بها قيام الساعة ونهاية الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾؛ أي: ما في بطنها من الموتى للحساب والجزاء، وهذا يكون عند النفخة الثانية، وهي نفخة البعث.

و(الأثقال) جمع ثِقْل ـ بكسرٍ فسكون ـ وهو الحِمل الثقيل؛ في الأصل.

وقيل: أخرجت كنوزها، وهو قول ضعيف، واستُدِل له بما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأُسْطُوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قَطعْت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعتْ يدي، ثم يدَعونه فلا يأخذون منه شيئًا**»(١).

ويجاب عن ذلك فيقال: إنَّ جعْل الحديث تفسيرًا للآية ليس بظاهر؛ لأن لفظ الحديث يدل على أن ذلك يكون وقت خروج الدجال، قبل يوم القيامة، بل هو من أشراط الساعة، وسياق الآيات في البعث والحساب الذي كذب به المشركون.

(١) أخرجه مسلم (١٠١٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ذكر الأرض مرة أخرى بالاسم دون الضمير؛ لأنه أبلغ في التهويل.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ تعجبًا لعظم الدهشة وشدة الهول؛ أي: مالها زلزلت هذه الزلزلة وأخرجت ما في بطنها؟! والإنسان هو الكافر على قول الجمهور، كما يقول ابن عطية.

وقيل: المراد جنس الإنسان، ويؤيد هذا ما سيأتي من جزاء المؤمن والكافر.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ هذا جواب ﴿إِذَا﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل مِن ﴿إِذَا﴾ لزيادة التقرير والتهويل؛ أي: يومئذْ زُلْزلَتْ وأَخْرَجتْ؛ تُحدِّثُ أخبارها، أي: تحدث الناسَ بأخبارها، و﴿أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ منصوب بنزع الخافض، ولم يذكر المفعول هنا؛ لأن المقصود ذكرُ تحديثها بالأخبار؛ إذِ الغرض تهويل اليوم، وأنه مما ينطق فيه الجماد، بقطع النظر عن المحدَّث، وحديث الأرض حقيقيٌّ بلسان المقال، ولا موجب لصرفه عن الظاهر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ الباء سببية؛ أي: تحدِّث بسبب إيحاء الله لها؛ أي: إذنه لها أن تخبر بما عُمل عليها مِن خير أو شر، واللام في ﴿لَهَا ۝٥﴾ بمعنى (إلى)، جيء بها لمراعاة الفواصل، وإلا فإن الفعل (أوحى) يتعدى بـ (إلى)، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم يقع ذلك ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: يرجعون عن موقف الحساب إلى مأواهم؛ إما الجنة أو النار. و(الصَّدَر) ضد الورود، ﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شَتٍّ، أي: متفرقين جماعاتٍ لا يلوي أحد على أحد، ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾؛ أي: ليريهم الله جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فيرون الجزاء عيانًا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾؛ أي: وزنَ ذرة (وهي النملة الصغيرة) يجد ثوابه في الآخرة، وقدَّم الخير لشرفه، فلا يضيع شيء عنده تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾؛ أي: يجد عقوبته؛ إلا أن يعفو الله عن عبده الموحد، وهذه الآية في المؤمن والكافر، والأُولى في المؤمن، وإذا كان الحساب على القليل، فما فوقه من باب أولى، وعلى العبد ألا يحقر ذنبًا؛ لأن احتقار الذَّنب ذنب آخر، قال ﷺ لعائشة: «**يا عائشة؛ إياكِ ومُحقَّرات الأعمال؛ فإن لها مِن الله طالبًا**»[1].

وهاتان الآيتان من الآيات الملقَّبات، فهما من جوامع الكلم، ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال في الخيل: «**هي لثلاثة؛ لرجل وزرٌ، وهي لرجل سترٌ، وهي لرجل أجرٌ**» الحديث، ثم سئل عن الحُمُر، فقال: ما أنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[2].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أنه يَحدث للأرض زلزالٌ عظيم يوم القيامة يحصل به للناس هولٌ عظيم، يفسره قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٤٤١٥)، وابن ماجه (٤٢٤٣)، وقال البوصيري: «إسناده صحيح، رجاله ثقات». مصباح الزجاجة (٣/٣٠٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣١). وقوى إسناده محققو المسند.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

٢ ـ أن الأرض تُخرج في ذلك اليوم أثقالها؛ وهم الأموات الذين غُيِّبوا في بطنوها في آماد الدهور.

٣ ـ الدلالة على قدرة الله ﷻ على التصرف في العوالم وعلى إحياء الموتى، وإنطاق الجماد.

٤ ـ استنكار الإنسان وتعجبه من زلزلتها بعد ما كانت قرارًا.

٥ ـ أن الأرض في ذلك اليوم تُحدِّث أخبارها؛ أي: بما عُمل عليها.

٦ ـ أن ذلك بوحيٍ مِن الله للأرض.

٧ ـ أن من الوحي ما هو كوني؛ كالمذكور في الآية، ومنه شرعي؛ كالوحي للأنبياء.

٨ ـ صدور الناس بعد الحشر والحساب إلى ما أُعِدّ لهم من ثواب وعقاب، فيتفرقون بعد هذا الاجتماع، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم]، الآيات.

٩ ـ أن مِن عُصاة الموحدين مَن يدخل النار من غير خلود، كما هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة؛ لقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

١٠ ـ أن الجزاء على الحسنات شامل لصغيرها وكبيرها، فلا يُنقص أحدٌ من حسناته ولا مثقالَ ذرة، بل يضاعف الله لمن يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

١١ ـ أن الجزاء على السيئات شامل لصغيرها وكبيرها إلا أن يغفر الله لمن يشاء؛ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا﴾.

١٢ ـ أن الذي يوزن هو الأعمال، ويشهد لهذا حديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان**»[(١)]، وحديث: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**»[(٢)].

١٣ ـ الترغيب في الحسنات وإن قلَّت.

١٤ ـ التحذير من السيئات وإن قلَّت.

١٥ ـ كمال علم الرب وعدله وعظيم فضله.



(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢) واللفظ له؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال الترمذي: حسن صحيح.



٢٣ ـ سورة العاديات

هذه السورة مكية، وقيل: مدنية، وعدد آياتها إحدى عشرة، تضمنت الآيات الخمس الأولى قَسَمًا مِن الله بثلاث صفات من صفات الخيل: (العاديات، الموريات، المغيرات)، ثم ذكر فعلين من أفعال الخيل: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾، واشتملت الآيات الباقية على جواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾، ثم توبيخ الإنسان على جهله وغفلته عن البعث والنشور وتحصيل ما في الصدور.

الآيات:

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العاديات].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ جمع (عادية) صفة للخيل، من العدْو، وهو الجري السريع، و(الضَّبْح): هو صوت أنفاسها عند جريها، وهو غير الصهيل والحَمْحَمة، فالله ﷻ يقسم بالخيل العادية، وهي تضبَح ضَبْحًا، وله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ جمع (مُورية) من الإيراء؛ أي: التي تُخرج النار بحوافرها إذا ضربت الحجارة؛ أي: حال كونها قادحات.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾؛ أي: التي تُغير على العدو وقت الصباح، فهي تسير إليه تحت جنح الظلام، ثم تُباغته صباحًا على حين غفلته، وهذا هو الأكثر في الإغارة، وكذلك كان يفعل النبي ﷺ، فإنه كان يغير صباحًا، فإن سمع أذانًا وإلا أغار، وأسند الإغارة إلى الخيل ـ والمراد أصحابها ـ لأنها من أكبر أسباب القوة والنصر.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾؛ أي: فحركن الأرض بحوافرهن فأثرن الغبار في مكان الإغارة أو وقتها، فالضمير المجرور ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى الصَّباح، أو إلى المكان المفهوم من الإغارة، وهذا من شأنه أن يبعث الخوف والهيبة في نفوس العدو، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾؛ أي: بالفارس، توسطن ودخلن جمعًا من الأعداء، فصار في قلب المعركة، والعطف بالفاء في الآيات يدل على الترتيب والتعقيب فيما بين هذه الصفات: العدو، والإيراء، والإغارة، والإثارة.

فهذه ثلاثة أقسام مِن الله بالخيل في حال عدوها وإيرائها وإغارتها، ففي القسم إعلاءٌ لشأن الخيل وحث على اقتنائها وركوبها، والتأمل في خلقها البديع، وإن أعظم ما اتخذت له الخيل الجهادُ في سبيل الله وإرهاب أعداء الله، كما تشير إليه الآيات، لا للهو والتباهي، وقد قلَّت الحاجة في الحرب إلى الخيل بما جدَّ من آلات الحرب البرية والبحرية والجوية، والواجب على المسلمين أن يعدوا العدة للجهاد بما يناسب الزمان، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال ﷺ: «**الخيل**

معقود في نواصيها الخير الأجر والمغنم إلى يوم القيامة»(١).

وذهب بعضٌ إلى أن المراد بالعاديات الإبل، والأول هو قول الجمهور من أهل التفسير واللغة، كما يقول أبو حيان(٢).

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: جنس الإنسان ﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾؛ أي: لكفورٌ مبالِغ في كفره لنعمة الله؛ أي: جاحدها إلا مَن هداه الله، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ]، واسم (الرب) هنا أوقع؛ لأن الربوبية تقتضي من المخلوق الشكر لا الكفر.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾؛ أي: وإن الإنسان على كُنوده لشهيد بلسان الحال، وهذه الشهادة أبلغ؛ لعدم احتمال الكذب في شهادة الحال، والمراد أن أعماله في الدنيا تشهد عليه بكفره، كما قال تعالى في المشركين: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧].

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ يعود إلى الله؛ أي: وربُّه شاهد عليه.

وفي هذا تفكيك للضمائر، ولذا **فالصحيح** هو القول الأول، إذْ تعود الضمائر في هذه الآيات إلى الإنسان.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾؛ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ ۝٨﴾؛ أي: قويٌّ مبالغٌ في حب المال.

وهذه الآيات الثلاث هي جواب القسم، فيكون الله ﷻ أقسم بثلاثة أشياء على ثلاثة أشياء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧٣)؛ من حديث عروة البارقي رضي الله عنه.
(٢) البحر المحيط في التفسير (١٠/٥٢٧).

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾؛ أي: أُثير وأخرج ﴿مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩﴾ من الموتى للجزاء والحساب، وهذا كناية عن البعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار]، وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾؛ أي: جُمع وأحصي ما في قلوبهم من خفايا أعمالهم، ورأوه عيانًا بين أيديهم، أفلا يعلم الإنسان ما يكون عليه حاله يومئذ، وما ينزل به من عذاب الله؟! فالاستفهام للإنكار والتهديد.

ومفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف دل عليه السياق، وخُص الصدر؛ لأن فيه القلبَ الذي فيه النوايا والخفايا، وهو موضع السريرة، والحساب يوم القيامة يكون على ما في القلوب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾؛ أي: يومئذْ بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور، ﴿لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾؛ أي: عليمٌ ببواطنهم وظواهرهم، فلا تخفى عليه خافيه، وسيجازي كلًّا بعمله، وخَصَّ علمه بهم في ذلك اليوم؛ لأنه يوم الحساب والجزاء الذي مردُّه إلى العلم، وإلا فإنه تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ القسم من الله بالخيل وصفاتها الفعلية.

٢ ـ فضل الخيل.

٣ ـ أن الخيل عدة الجهاد وإرهاب العدو.

٤ ـ اختيار وقت الغارة، وهو الصباح.

٥ ـ كفر الإنسان بربه وبنعمه.

٦ ـ شهادة الإنسان على نفسه بلسان حاله.

٧ ـ محبة الإنسان للمال.

٨ ـ ذم الإنسان لغفلته عن اليوم الآخر.

٩ ـ التذكير باليوم الآخر وبما يكون فيه.

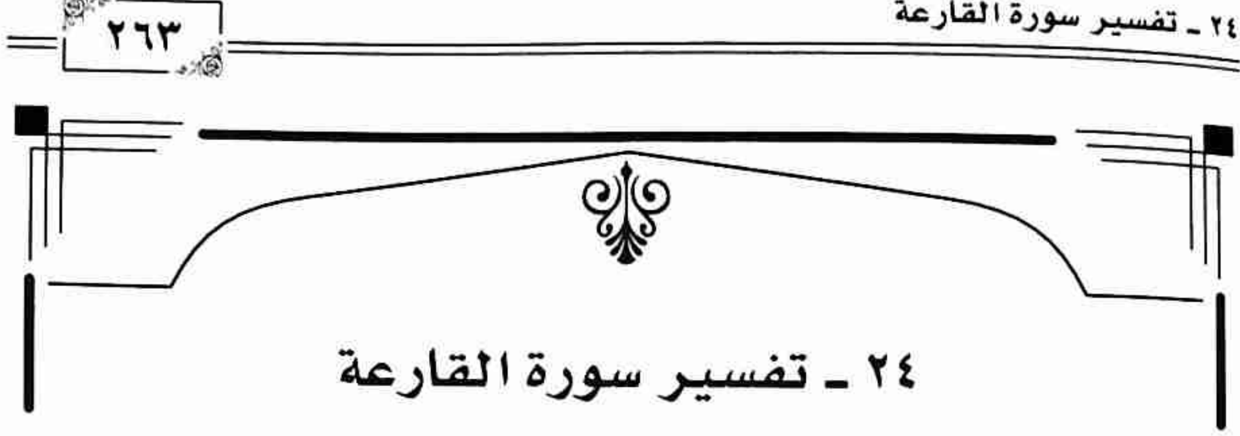
١٠ ـ إثبات البعث والجزاء.

١١ ـ التذكير بخبرته تعالى في ذلك اليوم بحال عباده.

١٢ ـ إثبات علمه تعالى بالجزئيات، والرد على الفلاسفة.

١٣ ـ إثبات الربوبية العامة.





٢٤ ـ تفسير سورة القارعة

هذه السورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة، والقارعة اسم من أسماء القيامة، وتضمنت السورة وصفًا لبعض أحوال يوم القيامة وأهوالها، وذِكرَ الفريقين: السعداء والأشقياء؛ مَن يثقل ميزانه ومَن يخف، وعاقبة كلٍّ منهما.

الآيات:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾؛ أي: القيامة، اسم فاعل مِن القرع، وهو الضرب الشديد، وسميت القيامة بذلك؛ لأنها تقرع القلوب والأسماع، وتُفزعها بأهوالها، كما سماها الله الحاقة والطامة والغاشية، وكثرة أسمائها تدل على عظم شأنها وكثرة أهوالها، وأول ذلك النفخ في الصور، نفخة الفزع، وهذا الفزع يُلم بالخلائق، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾

[النمل: ٨٧]، ولكنَّ المؤمنين بمنجاة مِن هذا الفزع، كما قال تعالى عقب الآية السابقة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل].

وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب: ﴿مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ بإضافة فزع إلى يومئذ، وخفض يوم.

وعليه فظاهر الآية دخول المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، فلا يصيبهم الفزع في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ مبتدأ، ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ مبتدأٌ ثانٍ وخبرُه، والجملة خبر للمبتدأ الأول؛ أي: أيُّ شيءٍ هي، والاستفهام للتعظيم والتهويل والتعجب من حالها، وتكرار المبتدأ الأول بلفظه مغنٍ عن الضمير الرابط لجملة الخبر بالمبتدأ، ولا يكون ذلك إلا في مواضع التعظيم.

ومن أهل العلم مَن يرى أنَّ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ كلمة سدَّت مسدَّ الجملة من حيث المعنى، فهي مبتدأٌ خبرُه فيه، أو خبرٌ مبتدؤه فيه، فهي كلمة مفردة ذات جَرْسٍ بالغٍ جيء بها للتفخيم، فلا تحتاج إلى ما تُضم إليه، ويؤيد ذلك أنها كتبت في المصحف آية مستقلة، فيقف القارئ عندها؛ ليكون لها دويٌّ في الأسماع.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ تعظيمٌ بعد تعظيم، وتهويلٌ بعد تهويل، وأنها أكبر من أن تحيط العقول بكنهها؛ أي: أيُّ شيء أعلمك ما هي، والخطاب لكل مَن يصلح للخطاب، فهو لغير معين؛ أي: إنك ـ أيها الإنسان ـ لا تعلم كُنهها، ولا تدرك قدرها، ومهما قدرت فهي أعظم من ذلك، فشأن القارعة بعيدٌ عن متناول العقول.

وفي قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ إظهار في

مقام الإضمار لزيادة التعظيم والتهويل، والأصل: ما هي، وما أدراك ماهي.

فهنا ستة أمور اشتملت عليها الآيات لتعظيم أمر القيامة: ١ ـ لفظ القارعة، ٢ ـ ذكر هذا اللفظ ثلاث مرات، ٣ ـ الاستفهام في قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾، ٤ ـ الاستفهام في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، ٥ ـ الاستفهام في قوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾، ٦ ـ التقييد بالظرف الذي فيه تلك الأهوال في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل محذوف؛ أي: تقرع الأسماع ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: عند البعث من شدة الفزع ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ جمع فَرَاشة، وهي الطيور الصغيرة الضعيفة التي تتساقط في النار ﴿ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾؛ أي: المنتشر في كل مكان، شبَّه الله الناس يوم القيامة في كثرتهم وانتشارهم وضعفهم وذلتهم واضطرابهم وإسراعهم إلى الداعي حين يدعوهم إلى المحشر = بالفراش المبثوث المتطاير إلى النار.

وفي آية القمر شبههم الله بالجراد المنتشر، قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر].

قيل: هما صفتان في وقتين مختلفين أحدهما عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيجيئون ويذهبون على غير نظام، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض، لا جهة له يقصدها، فإذا سمعوا المنادي قصدوه، فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد يتوجه دائمًا إلى ناحية مقصودة، نقله ابن عطية[1].

---

(١) تفسير ابن عطية: (٥/٥١٦).

وجاء وصف حال الناس يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف]، على القول بأن الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ يعود إلى جميع الناس.

هذا حال الناس في ذلك اليوم، وأما الجبال فاستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ بعد صلابتها وتمكنها في الأرض ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾؛ أي: الصوف المتفرق، ووجه الشبه التفرق والخفة واللين، وذكر الجبال مع الناس إشارة إلى عظم القارعة، حيث أثرت في الجبال، فكيف بالناس؟!

وقد جاء في القرآن ذكر أحوال الجبال يوم القيامة؛ فإنها تكون أولًا كالرمل المهيل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل]، ثم تكون كالعهن، كما في هذه السورة، ثم تكون كالهباء، قال سبحانه: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة]، ثم تسيَّر كالسحاب، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثم تكون على وجه الأرض كالسراب، قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ]، ثم تسوى مع الأرض حتى تكون قاعًا صفصفًا، قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾﴾ أمَّا حرف شرط وتفصيل، والفاء للتفريع؛ أي: إذا كان الأمر كذلك من قيام الساعة ووقوع البعث، فإن أعمال العباد توزن، فمنهم مَن يثقل ميزانه، ومنهم مَن يخف، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾﴾؛ أي: رجحت موازين حسناته، وهو المؤمن ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾؛ أي: في

حياة هنيئة مَرضيَّة كاملة؛ أي: في الجنة، وأسند الرضا إلى العيشة إشارةً إلى رضا صاحبها على الوجه الأبلغ، وهذا مجاز عقلي.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾؛ أي: خفت موازين حسناته ورجحت موازين سيئاته، وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون]، و(الموازين) جمع ميزان، وهو الميزان الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة، وجمع باعتبار تعدد الموزونات.

وقوله سبحانه: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾؛ أي: مأواه الذي يأوي إليه جهنم، كما يأوي الطفل إلى أمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأصل الهاوية المكان العميق.

ثم عظَّم شأن النار، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾؛ أيْ: أيُّ شيءٍ أعلمك ما هي، والهاء للسكت، ثم بينها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾؛ أي: شديدة الحرارة.

وهناك قسم ثالث لم يذكر هنا، وهم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، وقد **قيل**: إنهم أصحاب الأعراف، فإنهم يوقفون إلى ما شاء الله على الأعراف، وهو سور أو حجاب بين الجنة والنار، ثم يصيرون إلى الجنة، لقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف]، ولأن رحمة الله سبقت غضبه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء القيامة القارعة.

٢ ـ تهويل الحدث العظيم.

٣ ـ أن الناس بعد البعث يموج بعضهم في بعض، كالفراش المبثوث.

٤ ـ أن الجبال يوم القيامة تذهب صلابتها، وتصير كالعهن المنفوش.

٥ ـ أن مِن الناس مَن يثقل ميزانه.

٦ ـ أن من ثقل ميزانه يصير إلى الجنة التي فيها العيشة المرضية.

٧ ـ أن من خف ميزانه يؤول إلى النار.

٨ ـ إثبات الميزان، والرد على من أنكره.

٩ ـ وزن أعمال العباد.

١٠ ـ إثبات البعث والجزاء.

١١ ـ إثبات الجنة.

١٢ ـ إثبات النار.

١٣ ـ شدة حرارة نار جهنم.

١٤ ـ أن من أسماء النار الهاوية.

١٥ ـ أن الشقي يهوي في نار جهنم.

١٦ ـ تعظيم أمر النار.

١٧ ـ إثبات عدل الله وحكمته في جزائه للعاملين.





٢٥ ـ تفسير سورة التكاثر

سورة التكاثر مكية في قول أكثر المفسرين، وعدد آياتها ثمان، وقد تضمنت توبيخ المعرضين عن الآخرة وتهديدهم، المؤثرين لعَرض الحياة الدنيا، ثم تأكيد أمر الآخرة، وأنهم سيرونها عيانًا، ويُسألون عمَّا مُتِّعوا به من نعيم الدنيا، وهو الذي ألهاهم التكاثر به.

وبهذا تظهر مناسبتها للسورة قبلها، القارعة، فبعد ذكر القيامة وأهوالها ناسب التحذير من اللهو عنها بالتكاثر.

الآيات:

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر].

التفسير:

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ الخطاب لجنس المكلفين ـ ويُستثنى منهم المؤمنون المؤثرون للآخرة على الدنيا ـ أي: شغلكم التفاخر والتباهي بالأموال والأولاد والعشيرة، وصرفكم عن العمل بطاعة الله والاستعداد للآخرة.

و(اللهو) ما يُشغل الإنسان عمَّا يعنيه ويهمه ويصرف قلبه، و(التكاثر) تفاعل يكون من اثنين فأكثر، كلٌّ يقول لصاحبه: أنا أكثر منك

مالًا وأعز نفرًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ]، والفعل (ألهى) يعدَّى بـ (عن)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وحُذِف المُلهَى عنه في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ خيرٍ أُلهي عنه المكلَّف، وذلك أبلغ في الذم والتنديم.

وقوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ خبر معناه الوعظ والتوبيخ والتعجب من حالهم؛ أي: شغلكم التكاثر مدة حياتكم بما لا ينفعكم عند الله ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾؛ أي: إلى أن جاءكم الموت وصرتم من أهل القبور، يقال لمن مات: «زار حفرته، وتوسد لحده»، قال مروان ابن أبي حفصة:

وكانَ النَّاسُ كلُّهم لمغْنٍ ... إلى أنْ زارَ حُفرتَه عِيالا

وذِكر الزيارة في الآية إشارة إلى البعث، فإن الزائر لا بد أن ينصرف، والموتى سيرحلون إما إلى الجنة أو إلى النار، سمع بعض الأعراب ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ فقال: بُعث القومُ للقيامة وربِّ الكعبة؛ فإن الزائر منصرفٌ لا مقيم.

والتعبير بالماضي في ﴿زُرْتُمُ﴾ لتحقق وقوعه.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ **(كَلَّا)**: حرف ردع وزجر؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن التكاثر والتشاغل بالدنيا، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ سوءَ عاقبة اللهو والتكاثر بعد الموت، وهذا إنذارٌ لهم وتهديد، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ تهديدٌ بعد تهديد، وهو أبلغ من الأول لمجيء ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على الترقِّي.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾؛ ﴿كَلَّا﴾ تأكيد للردع المتقدم؛ أي: لو تعلمون الأمر الذي تصيرون إليه من البعث والجزاء علمًا يقينيًّا،

وهو العلم الجازم المطابق للواقع الذي لا شك فيه، وإضافة ﴿عِلْمَ﴾ إلى ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وينبغي الوقوف على قوله: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾؛ لأن جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وليس هو ﴿لَتَرَوُنَّ﴾، بل هذه جملة مستأنفة، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل؛ أي: لو تعلمون لعلمتم أمرًا عظيمًا، ولألهاكم ما علمتم عمَّا ألهاكم من التكاثر، كما قال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلًا**»[1].

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جواب قَسمٍ مقدر، لتأكيد التهديد؛ أي: والله لترون الجحيم، وهي النار، وسميت بذلك لشدة حرارتها وتأججها، يقال: «نارٌ جَحْمة»؛ أي: شديدة اللهب، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ الجملة تفسير لمفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو تعلمون عاقبة أمركم، إنها والله رؤية الجحيم! والتفسير بعد الإبهام يدل على التعظيم والتهويل.

وهذه الآية لعموم الناس، كما تقدم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم].

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ تأكيد للرؤية وتفخيم لشأنها؛ أي: ترون النار عيانًا، فهي رؤية يقينية لا شك فيها، وعينُ اليقين هو الحاصل برؤية العين، وهو أعلى درجة من علم اليقين، فإن هذا ـ أي علم اليقين ـ يحصل بالسمع بطريق الإخبار، فعين اليقين أعلى منه؛ لأنه رؤية بالعين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم رؤية الجحيم في الآخرة ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾؛ أي: جميع أنواع النعيم؛ من الصحة والطعام والشراب والأمن وغيرها، وسؤال الكافر للتوبيخ وإقامة الحجة، وسؤال المؤمن لتذكيره بنعم الله عليه، وتقريره بما قصر فيه من الشكر.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٩٠١)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا**»، فقاموا معه فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله! ما أحدٌ اليوم أكرمَ أضيافًا مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعِذْقٍ فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك والحلوب**»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**»[(١)].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذمُّ اللهو بحظوظ الدنيا عن ذكر الله وذكر الآخرة.

٢ ـ ذمُّ التكاثر بالأموال والأولاد وبكل ما لا ينفع في الآخرة.

٣ ـ قبح التمادي في اللهو والتكاثر حتى الموت المفضي إلى المقابر.

٤ ـ أن اللبث في القبور يسير، كلبث الزائر.

٥ ـ إثبات عذاب القبر؛ لقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ بعد قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

٦ ـ الإشارة إلى البعث من القبور.

---

(١) مسلم (٢٠٣٨).

٧ ـ الرد على من يقول عن القبر: إنه المثوى الأخير.

٨ ـ الزجر عن اللهو والتكاثر.

٩ ـ التهديد بكشف غيب الآخرة.

١٠ ـ أن اليقين بالآخرة يصرف عن اللهو بمتاع الدنيا، ويورث العمل للآخرة.

١١ ـ أنه لا يكفي مطلق العلم حتى يكون يقينًا.

١٢ ـ أن مَن لم يدع التكاثر ولم يعمل للآخرة فليس بموقن بها.

١٣ ـ أن مَن اتقى الله وعمل بطاعته كان من الموقنين بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة].

١٤ ـ الوعيد برؤية الجحيم رؤية عيانية.

١٥ ـ أن الجحيم من أسماء النار.

١٦ ـ الوعيد بالسؤال عما يمتع به الإنسان من نعيم الدنيا.

١٧ ـ الحث على شكر نعم الله، والتحذير من كفرانها.

١٨ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

١٩ ـ أن اليقين مراتب: علم اليقين، وعين اليقين ـ وهما مذكوران في السورة ـ وحق اليقين، وهو أعلاها، كما في سورة الواقعة والحاقة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١﴾ [الحاقة].

٢٠ ـ في السورة شاهد لحديث: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله مِن أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**»[١]، وحديث: «**والذي نفسي بيده لتُسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة**»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)؛ من حديث أبي برزة رضي الله عنه، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) تقدم تخريجه.



٢٦ ـ تفسير سورة العصر

هذه السورة مكية، وآياتها ثلاث، وهي ـ مع قلة آياتها ـ متضمنةٌ مِن الإنذار والتحذير والتذكير والتبشير بأمر عظيم، فهي إجمالٌ لكثير من آيات القرآن، ولذا جاء عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم»(١).

وجاء عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أن الرجلين منهم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر(٢).

والمناسبة بين هذه السورة وما قبلها أن اللهو بالمال والأولاد من أعظم ما يضيع به عمر الإنسان، ويجلب له الخسران، فحقيق بالحازم أن يؤثر أسباب الربح من الإيمان والعمل الصالح.

الآيات:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

التفسير:

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾، هذا قسم من الله بالعصر؛ أي:

---

(١) المجموع للنووي (١/ ١٢) ومفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٨).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥١٢٤)، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠٧): «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير ابن عائشة وهو ثقة»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤٨).

أُقسم بالعصر، الذي هو الدهر، وهو الزمان كلُّه، وهو سبحانه يقسم بما شاء من خلقه، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله، كما تقدم مرارًا، وأقسَم الله بالعصر لما فيه من الأحداث العظيمة والعبر الدالة على قدرة الله الباهرة وحكمته الظاهرة، فما نراه من تعاقب الليل والنهار، وجريان الأقدار، وتتابع الفصول، واختلاف الأحوال؛ من صحة وسقَم وغنى وفقر وفرح وحزن وأمن وخوف = كلُّ ذلك داع إلى التفكر في عظمة خالقه، وواسع علمه، وبالغ حكمته ولطف تدبيره، ومُنبِّهٌ إلى استثمار الزمان وعمارته بالطاعات، والتجافي عن الإثم واتباع الشهوات.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ أي: عموم الإنسان، فـ (أل) للجنس، فيشمل جميع أنواع الإنسان، كما يدل على ذلك الاستثناء، فإن الاستثناء معيار العموم؛ أي: إنه إذا جاء شيء واستثني منه شيءٌ، دلَّ ذلك على أن بقية الصور غير المستثناة داخلةٌ في المستثنى منه، فيكون عامًّا إلا في الصورة المستثناة، ﴿لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾؛ أي: نقص وهَلَكة، والخُسر والخُسران بمعنى واحد، كالكُفر والكُفران، وتنكير ﴿خُسۡرٍ﴾ لتعظيمه، المعنى: أن جميع الناس منغمسون في خسر عظيم في جميع أحوالهم، بإيثار الدنيا واتباع الشهوات وغَمط الحق، وصرف العمر فيما لا يجدي، هذا هو الأصل في كل إنسان، ولهذا أكد الله تعالى الخبر بـ (إنَّ) واللام.

ثم استثنى مِن ذلك أهل الإيمان، فليسوا بخاسرين، وهم قليل بالنسبة إلى غيرهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والاستثناء متصل، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحات ففعلوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهى الله عنه، فجمعوا بذلك بين الإيمان والعمل الصالح.

وقدم الله الإيمان على العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح مبني على الإيمان، فالإيمان شرط في العمل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

وعطف عمل الصالحات على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ من عطف الخاص على العام، لأهميته وتأكيد القيام به، ولا حجة للمرجئة في الآية على إخراج الأعمال عن مسمى الإيمان، فإنهم قالوا: إن العطف يقتضي المغايرة. نقول: هذا ممنوع؛ فليس كل عطف يقتضي المغايرة دائمًا، بل المغايرة وعدمها يرجع فيه إلى ما بين المعطوف والمعطوف عليه من النسبة. وقد دل الكتاب والسنة على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، كما في حديث شعب الإيمان[(١)] وغيره، فوجب أن يكون عطف الأعمال على الإيمان من عطف الخاص على العام في هذه السورة وغيرها. وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية في كتاب الإيمان.

وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضًا بالحق، والحقُّ ضد الباطل، وهو كل اعتقاد صحيح وعمل صالح، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾؛ أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى حبس النفس عن المعاصي، ومعلوم أن الجنة حُفَّت بالمكاره، فلا بد من التزود بزاد من الصبر لسلوك طريقها، وكرر الفعل ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ تأكيدًا لشدة الصبر؛ ومجيء الأفعال بصيغة الماضي ﴿تواصوا﴾ يشير إلى تحقق وقوع ذلك منهم.

وفي الآية الحث على مصاحبة العلماء والصالحين؛ فإنهم يعينون على معرفة الحق، ويدعون إلى العمل به والثبات عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعطف التواصي بالصبر على التواصي بالحق ـ مع أنه داخل فيه ـ من باب عطف الخاص على العام؛ تنبيهًا لشرف الصبر وفضله، فإن عطفه على الحق يشعر بنوع مغايرة وتميُّز، مع أنه مندرج تحته، كعطف جبريل على الملائكة في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، كما أن عطف التواصي بالأمرين على العمل الصالح ـ مع أن العمل الصالح شامل لهما ـ فيه دليل على أهميتهما.

وتأمل! كيف جاءت الآية بلفظ التواصي دون: (تآمروا) و(تناهوا)؛ لما في لفظ الوصية من معنى العهد، والعناية بالموصَى والموصَى به، فكأنه لعظم شأنه عهدٌ لا يتهاون به.

دلَّت الآيات على أن الناس جميعًا في خسر إلا من اتصفوا بأربعة أشياء: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهذه الأمور الأربعة عليها مدار الفوز والفلاح، فإن الإنسان يكمِّل نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ويكمِّل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون حينئذ قائمًا بحق الله وحق عباده.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله أقسم بالعصر، وهو الزمان في جملته، كما أقسم بأجزاء من الزمان؛ كالليل، والنهار، والضحى، والفجر.

٢ ـ أن الله يقسم بمخلوقاته، كما أقسم بالسماء والأرض والنفس والشمس والنجم والقلم.

٣ ـ التنبيه إلى عظم شأن الزمان ـ الذي هو عمر الإنسان ـ في الربح والخسران.

٤ ـ أن كل إنسان خاسر إلا مَن استثنى الله.

٥ ـ أن النجاة من الخسر مداره على الأمور الأربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

٦ ـ ضرورة الإنسان إلى العلم؛ فإنه لا إيمان إلا بعلم.

٧ ـ أن ثمرة العلم والإيمان العملُ الصالح، وهو من الإيمان.

٨ ـ اعتبار العمل في النجاة، ففيها:

٩ ـ الرد على المرجئة الغلاة.

١٠ ـ اعتبار الصلاح في العمل، وجِماع الصلاح: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ.

١١ ـ أن الناس يتفاوتون في الخسر بحسب ما يفوتهم من أسباب الربح المذكور.

١٢ ـ أن أخسر الناس هم الكافرون.

١٣ ـ أن كل من عصى الله فهو خاسر بقدر معصيته.

١٤ ـ فضل التواصي بالحق، وهو كل ما جاء به الرسول ﷺ من العلوم والشرائع.

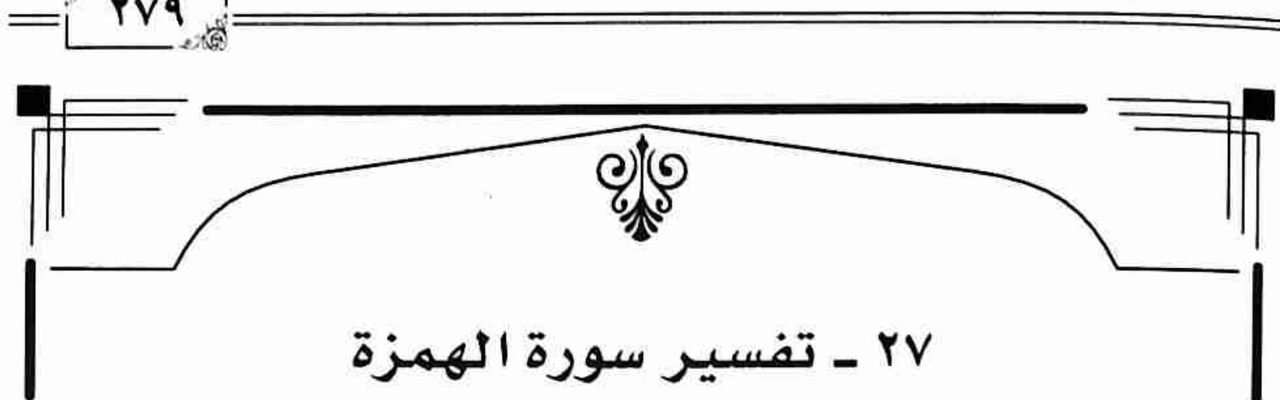
١٥ ـ فضل التواصي بالصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصي الله، والصبر على أقدار الله.

١٦ ـ أن الصبر عماد كل بر وفضيلة.

١٧ ـ اعتبار الرفق واللين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يدل له لفظ الوصية.

١٨ ـ أن الحق ثقيلٌ على نفس الإنسان، كالصبر، فلذا ندب إلى التواصي بهما.

١٩ ـ أن المؤمن في ربح دائم وإن طال عمره؛ بفعله الحسنات، وبما يكتب له في حال عجزه.



٢٧ ـ تفسير سورة الهمزة

هذه السورة مكية، وهي تسع آيات، وقد افتتحت بتهديد كلِّ هُمَزة لُمزة، وهو الكثير الهمْز واللمْز، وتضمنت السورة ذكر بعض صفاته الذميمة ذمًّا له وتقبيحًا، وأن عاقبته أن يطرح في النار التي تحطِّم كل ما يُلقَى فيها، فهي الحُطَمة، ومن شأن هذه النار أنها تطَّلِع على الأفئدة، وأنها مؤصدة على أهلها، نعوذ بالله من النار.

الآيات:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك وعذاب شديد، وهو لفظ يُراد به الذم والتقبيح والوعيد، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾؛ أي: كثير الطَّعْن والعيب في غيره، ﴿لُّمَزَةٍ ۝١﴾ كثير اللمز، **قيل**: الهمز باليد، واللمز باللسان، **وقيل**: الهمز في الوجه، واللمز في الغَيبة، وكل هذه الأقوال جاءت عن مفسري السلف، وهي متقاربة المعنى، وترجع إلى أصل واحد، وهو الطعن وإظهار العيب، وإن كان الهمز أشد.

والتاء في الكلمتين للمبالغة في الوصف، كما في قولهم: (راوية) و(علّامة).

و(فُعَلة) ـ بضم ففتح ـ صيغة مبالغة للفاعل؛ أي: المكثر المتعود للشيء، كما يقال: (لُعَنة) و(ضُحَكة) إذا كان يكثر اللعن والضحك، وإذا سُكِّنت العين فهي صيغة مبالغة للمفعول، فيقال: (لُعْنة) و(ضُحْكة)؛ إذا لُعن وضُحك منه.

وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ وإن كان وعيدًا للمكثر المعتاد، فإن لكل من صدر منه ذلك نصيبًا مِن هذا الوعيد.

ثم ذكر صفة الهُمزة اللُّمزة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ قوله: ﴿مَالًا﴾؛ أي: عظيمًا، كما يفيده التنكير، ﴿وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾؛ أي: صار يعدُّه المرة بعد المرة ويتفقده؛ حبًا له وحرصًا عليه، وتلذُّذًا بإحصائه، وهو مع ذلك ممسك له، فلا ينفقه في وجوه الخير، ويظهر أن هذا المال الكثير هو الذي غرَّه، فصار يحتقر الناس ويهمز ويلمز كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، فيكون ذكر ماله بعد فعله من ذكر السَّبب بعد المسبَّب.

قوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ يظن لفَرْط جهله وغروره أن ماله يجعله خالدًا في الدنيا فلا يموت، وهذا من باب التشبيه؛ أي: إن حاله كحال من يظن أنه لا يموت، وإلا فلا أحد من البشر يظن ذلك في قرارة نفسه.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له وزجرٌ على هذا الحسبان الباطل؛ فإنه سيموت لا محالة، وسيترك أمواله وراء ظهره، ثم ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾؛ أي: والله ليُلقَين مهينًا حقيرًا في النار، وسميت النار

بذلك؛ لأنها تحطم بشدة كل ما يُلقَى فيها؛ أي: تكسره أيًّا كان، كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ [المدثر].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾: أيُّ شيءٍ أعلمك ما الحطمة، استفهام تهويل وتعظيم للنار، فمهما قُدِّر في العقول مِن شأنها فهي أعظم من ذلك، ولفظ الحُطمة في مقابل الهمزة، فالهُمَزة جزاؤه الحُطَمة. والجزاء من جنس العمل.

ثم فسر الاستفهام ترقِّيًا في التهويل، فقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾؛ أي: المسعَّرة التي لا تخمد، فهي تَتَّقِدُ أبدًا، وليست كسائر النار التي تتقد تارة وتخمد أخرى، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [الليل]، وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء]، وأضافها الله إلى نفسه المقدسة؛ تعظيمًا لها، وتخويفًا للعباد منها.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾؛ أي: تصل إلى القلوب وإلى أجواف البدن، فهي تحرق كل شيء حتى تبلغ الأفئدة، مع أنهم لا يموتون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ [طه]، وخص الأفئدة بالذكر؛ لأنها ألطف ما في الجسد، ولأن القلب محل العقائد والنيات، فهو مَلِك الأعضاء، فهي تابعة له في الصلاح والفساد.

﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: تلك النار ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾؛ أي: مطبَقة مغلَقة الأبواب، فلا خروج منها، وهذا حبس الأبد، يقال: «أوصدتُ الباب وآصدتُه»، لغتان بمعنًى؛ أي: أغلقته.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾؛ أي: النار في عَمَدٍ ممددةٍ عليهم من كل جانب، فهي محيطة بهم لتيئيسهم من الخلاص.

أو هم في عَمَد؛ أي: موثقون بها، والله أعلم بمراده وبكيفية

ذلك. فالجملة حالية إما من الضمير المنصوب في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: النار، أو من الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِم﴾.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تحريم الهمز واللمز.

٢ ـ التنفير من الحرص على المال وجمعه وتعديده.

٣ ـ أن من الجهل والغرور؛ ظَنَّ الخلود بجمع المال.

٤ ـ أن الشقيَّ يُطرح في النار طرح الحقير.

٥ ـ أن من أسماء النار الحُطَمة.

٦ ـ تعظيم أمر النار بإضافتها إلى الله، ففيه شاهد لقوله ﷺ: «**إن النار لا يعذب بها إلا الله**»[1].

٧ ـ أن النار موقدة، ووَقُودها الناس والحجارة.

٨ ـ أن النار تطَّلع على ما في قلوب أهلها من الكفر وسوء الاعتقاد، فيمسهم من عذابها بحسب ذلك.

٩ ـ أن النار موصدة على أهلها.

١٠ ـ أن النار ممددة في عَمَد.

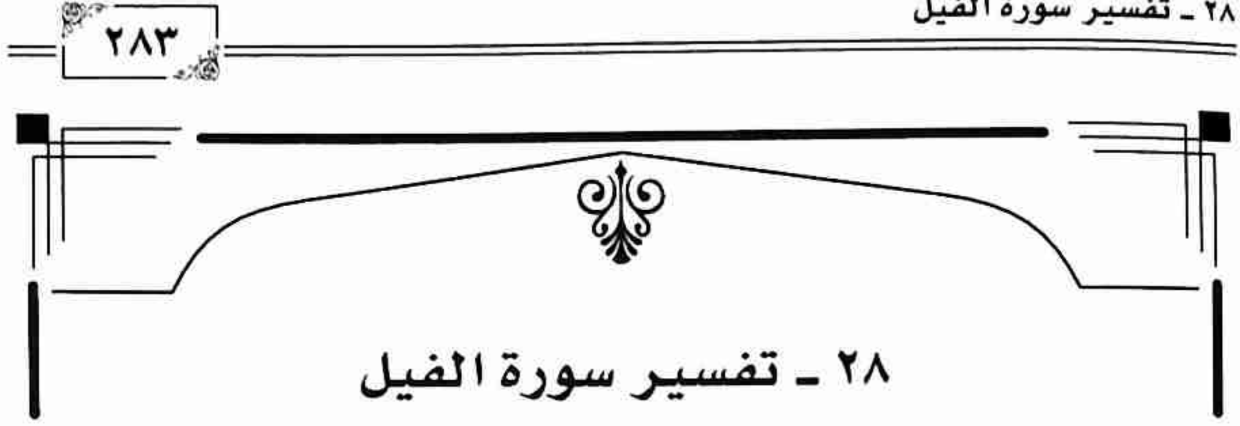
١١ ـ أن عذاب النار ـ والعياذ بالله ـ ما وراءه عذاب.

١٢ ـ تيئيس أهل النار من الخروج منها، نعوذ بالله من النار ومن حال أهل النار.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٤)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.



٢٨ ـ تفسير سورة الفيل

سورة الفيل مكية، وهي خمس آيات، وقد تضمنت ذكر حادثة الفيل، وما جرى على أصحابه من النكال، وما صدر منهم من الكيد، وقد وقعت حادثة الفيل قرب مكة قَبل منى، وذلك سنَةَ مولده ﷺ، وقد جاءت بذلك أخبار وآثار عن حادثة الفيل، ذكرها المفسرون والمؤرخون بأسانيدهم.

۞ الآيات:

۞ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل].

۞ التفسير:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل مَن يصلح للخطاب، والاستفهام للتقرير والتعجيب؛ أي: ألم تعلم أيها الرسول بالأخبار المتواترة كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. والرؤية قلبية بمعنى العلم، وأطلقت الرؤية هنا على العلم؛ لأن قصة الفيل كانت معروفة عندهم، فكأن المخاطب يراها بعينه.

وهذه القصة من أعجب الحوادث التاريخية وأعظمها في جزيرة

العرب، لما فيها من خوارق العادة، وذلك أن أبرهة حاكم اليمن من قِبَلِ ملك الحبشة بنى كنيسة في صنعاء، وأراد أن يصرف الناس ليحجوا إليها بدل الكعبة، فخرج إليها أحد العرب فلوثها بقَذر، فغضب عندئذ أبرهة، وعزم على هدم الكعبة، فتوجه إلى مكة بجيش جرار، ومعه فيل عظيم، وقيل: أفيال، ليرهب بها العرب، ولم يكونوا رأوا الفيل قبل ذلك، فلما بلغ الجيش مكانًا يسمَّى الـمُغَمَّس من ضواحي مكة، أهلكهم الله شر إهلاك، وأبادهم عن آخرهم بطير صغار من أضعف خلق الله، تحمل حجارة ترميهم بها فتقتلهم؛ لأنهم جاؤوا بأكبر الحيوانات مستنصرين بها.

والأصل أن هذه الطير نوع من الطيور المشاهدة للناس، فلا يصح بعد ذلك أن يقال: إنها طيور خفية، وهي جراثيم مرض الحصبة وميكروباتها، كما قاله بعض المعاصرين، اعتمادًا على ما ذُكر أن مرض الحصبة لم يعرف إلا بعد حادث الفيل، فإنَّ هذا ـ لو صح ـ لا يوجب مخالفة ظاهر القرآن؛ إذْ لا يمتنع أن يكون للحجارة التي رُمي بها أصحاب الفيل آثارٌ نشأ عنها مرض الحصبة.

وهذه القصة وقعت قبيل مولده ﷺ، في العام الذي ولد فيه، ففيها ـ والله أعلم ـ إرهاصٌ بنبوته عليه الصلاة والسلام، وتذكيرٌ لقريش بنعمة الله عليهم أنْ صدَّ عدوهم عنهم، وبيانُ عاقبة المكذبين المعتدين على حرمات الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾؛ أي: إنه فعل عجيب يدعو إلى التفكر والاعتبار.

والاستفهام بـ (**كيف**) يدل على تهويل الحادثة، وأنها وقعت على كيفية هائلة تدل على عظيم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، وشدة بطشه.

ومجيء ﴿فَعَلَ﴾ دون (عَمِلَ) لما في (فعل) مِن الدلالة على شدة البطش وسرعة الأخذ، كما قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم]، وكما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر]، وتمدح الله ﷻ بأنَّه فعَّال لما يريد على إثر قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج].

وأضاف اسم الرب إلى الرسول ﴿رَبُّكَ﴾ تأنيسًا للنبي ﷺ وتثبيتًا لقلبه.

ثم فصَّل تعالى ما فعل بهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾؛ أي: مكرَهم في هدم الكعبة وانتهاك الحرمة ﴿فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾؛ أي: تضييع وخسار، فخاب سعيهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا﴾ جمع طائر؛ مثل: صحْب وصاحب، ﴿أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾؛ أي: جماعاتٍ هائلةً متتابعة تأتيهم من كل جهة، و(أبابيل) جمعٌ لا واحد له من لفظه؛ على قول الجمهور.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾؛ أي: من طين متحجر، من جنس الحجارة التي أرسلها الله على قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات]، وقال في هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود]. وقوله: ﴿تَرْمِيهِم﴾ الأصل رَمتهم، لكن جاء الفعل بصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (العصْف) ورق الزرع، واحدته عَصْفة، سمِّي بذلك لأنه إذا قطع تعصف به الريح إلى كل جهة، والمعنى أن الله جعلهم كزرع أكلته الدواب ثم داسته، فصاروا مفتَّتين هالكين، وهذا التشبيه يكشف حالهم وما لحقهم من المهانة والخسة والتلف.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ثبوت حادثة الفيل.

٢ ـ إهلاك الله لأصحاب الفيل الغُزاة لهدم بيته الحرام.

٣ ـ أن فعل الله بهم عجيب.

٤ ـ إحباط كيدهم وحماية الله لبيته.

٥ ـ إثبات الربوبية الخاصة والعامة لله تعالى.

٦ ـ عظم حرمة البيت عند الله، وقد أضافه الله إلى نفسه؛ ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وخصه بربوبيةٍ منه؛ ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ [قريش].

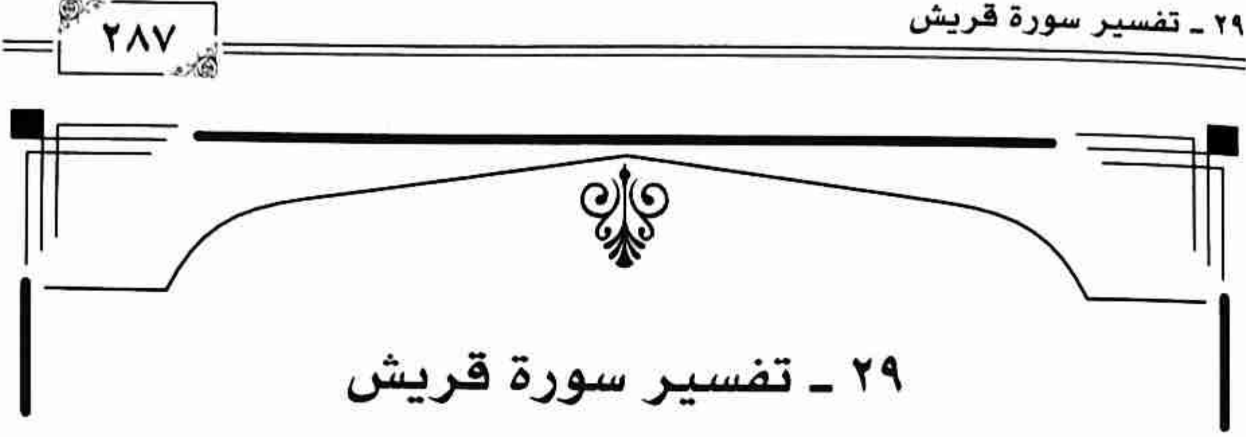
٧ ـ بيان نوع العذاب الذي نزل بهم.

٨ ـ أن كيفية إهلاكهم آيةٌ من آيات الله؛ إذْ كان بإرسال جماعات من الطير تحمل حجارة، فلكل واحد من الغازين طائر وحجر، وليس لهذا نظير في عذاب الأمم المكذبين.

٩ ـ أنهم صاروا على إثر ذلك كروث الدواب؛ تَفَتَّتْ أجسامهم، فجعلهم الله كعصف مأكول.

١٠ ـ أن من أراد دينه سبحانه وبيته بسوء فسينتقم الله منه، وقد يُستدرجون فيُملَى لهم.





٢٩ ـ تفسير سورة قريش

سورة قريش مكية، وهي أربع آيات، وقد تضمنت السورة الامتنان من الله على قريش بما يسر لهم من الرحلتين، وما ينتج عنهما من المكاسب وجلب الحوائج، مما كان قوامًا لمعاشهم، ثم أمْرهم بعبادة ربّ البيت الحرام الذي شرفهم به بين قبائل العرب، وقد جعله الله سببًا لرزقهم وأمنهم، فأطعمهم سبحانه من جوع، وآمنهم من خوف.

ويظهر التناسب بين هذه السورة والتي قبلها ـ سورة الفيل ـ أن سورة الفيل تضمَّنت التذكير بنصر قريش على ذلك العدو الباغي لإذلالهم ولهدم سبب عزهم، فنصَرهم الله بسبب سماويٍّ لم يكن بحولهم ولا قوتهم، ولم يكن لهم طاقة بقتال ذلك العدو، وهذا النصر هو من أعظم إيمان الله لهم من أعظم خوف طرقهم.

۞ الآيات:

۞ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش].

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾؛ أي: لإلفِ قريشٍ رحلةَ الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت، وقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ مصدر مضاف إلى فاعله.

تقول: أَلِفتُ الشيءَ إِلْفًا وإلافا، وآلَفْتُه إيلافا، إذا لزمتَه وأنستَ به، وضد الإيلاف الإيحاش، وقُدم في السورة لعظم المنة به.

وقال بعض أهل التفسير: إن أول هذه السورة متعلق بآخر سورة الفيل قبلها، فيكون الكلام: أهلك الله أصحاب الفيل؛ لأجل إيلاف قريش هاتين الرحلتين.

وهذا بعيد؛ لأن الأصل أن تبقى كل سورة مستقلة بنفسها، كما يدل عليه وجود البسملة بين السورتين.

وقريش قبيلة عربية حجازية من ذرية فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وفِهْر هو الملقب قُريشا، وكان لهذه القبيلة مكانة في نفوس العرب؛ لأنهم المجاورون للبيت والقائمون عليه، وإليهم ولاية الكعبة وسِدانتها وسِقاية الحاج، وقد شرفهم الله بذلك، وهو أثرُ اصطفاء الله لهم، كما قال ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[(١)].

وقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ بدل من ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ وهو من باب التفصيل بعد الإجمال الذي يراد به تفخيم الأمر لبيان عظم المنة، ولتمكين الكلام في نفس السامع، و﴿رِحْلَةَ﴾ مفعول به للمصدر، والرحلة: السفر من مكان إلى مكان، وكان لقريش رحلتان لغرض التجارة، رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة إلى الشام في الصيف، فيجلبون الأطعمة والثياب وكل ما يحتاجون إليه.

وإنها لنعمة عظيمة من الله على قريش أن ألفوا هاتين الرحلتين،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦)؛ من حديث واثلة بن الأسقع ﵁.

ولا يعرض لهم أحد، ولا يبغي عليهم باغ، في حين أن غيرهم لا يأمن على نفسه إذا سافر، ولا على ماله، ولهذا أمرهم الله بشكر نعمته عليهم، وإخلاص العبادة له وحده، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾؛ أي: الكعبة، وقد أضاف الله ربوبيته إلى البيت تشريفًا له، والإشارة إليه باسم الإشارة تعيين له وتعظيم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] والفاء في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ للتفريع؛ أي: إذا كان الأمر كذلك فليعبدوا.

قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ مع أنهم في وادٍ غير ذي زرع، والاسم الموصول صفة لـ (رب البيت)، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾؛ أي: جعلهم مطمئنين سالمين حضرًا وسفرًا، فهم في آمنِ مكان وأرغد عيش مما لم يكن لغيرهم، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل قريش على سائر قبائل العرب، وقد شرَّفهم الله بكرم النسب ورفعة الحسب، ثم شرفهم بأن جعلهم أهلَ الحرم، ورعاةَ بيته العتيق، ثم شرفهم ببعثة سيد ولد آدم منهم ﷺ، وجعل الخلافة فيهم.

٢ ـ أن مَن اعتاد سببًا مِن أسباب المعاش فإنه يألفه وينشط فيه دون غيره.

٣ ـ أن قريشًا كانوا تجارًا، والتجارة أفضل وسائل الكسب.

٤ ـ أنه كان لقريش رحلتان؛ رحلة في الشتاء لليمن، ورحلة في الصيف للشام.

٥ ـ تيسير أسباب الرحلتين.

٦ ـ وجوب شكر النعمة.

٧ ـ أن شكره يكون بعبادته وحده لا شريك له؛ بفعل ما أَمر به، وترك ما نهى عنه.

٨ ـ أن أعظم الضروريات في حياة الإنسان: الطعام.

٩ ـ أن أعظم الضروريات لهناء العيش: الأمن.

١٠ ـ أن الله هو المطعم لعباده، والمؤمِّن لعباده، وإن جعل لذلك أسبابًا؛ فإنه خالق الأسباب والمسبَّبات، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ [الشعراء].

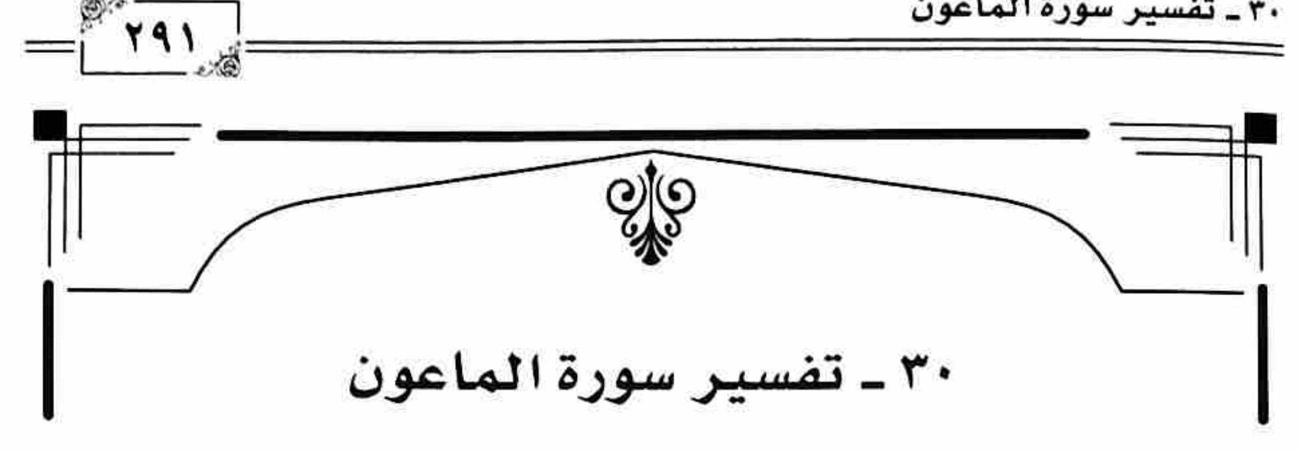
١١ ـ الندب إلى ذكر نعم الله؛ فإنه أعظم الدواعي لشكرها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣].

١٢ ـ فضل البيت الحرام؛ لإضافة اسم الرب إليه، كما أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

١٣ ـ إطلاق اسم البيت على الكعبة.

١٤ ـ أن هذه السورة مكية؛ لقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.





٣٠ ـ تفسير سورة الماعون

هذه السورة الأظهر أنها مدنية، ويُروى ذلك عن ابن عباس، **وقيل**: مكية، **وقيل**: الآيات الثلاث الأولى مكية، والأربع الأخيرة مدنية.

ومنشأ الاختلاف هو مضمون الآيات، ولا ريب أن الآيات الأربع الأخيرة مناسبة لحال المنافقين في المدينة، وأما الآيات الثلاث الأولى فهي مناسبة لحال المشركين المكذبين للبعث بمكة، ومع ذلك فإن مضمونها يليق بالمنافقين؛ فإنهم مكذبون بالبعث في الباطن، ويظلمون اليتيم، ولا يحضون على طعام المسكين.

ولذا يترجح أنها مدنية، فمضمون السورة كلها يصدق على المنافقين، فتضمن أولُها ذكر باطنهم، وآخرها ذكر ظاهرهم، والأمر في هذا يسير، والله أعلم.

الآيات:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون].

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ الاستفهام للتعجب

والتعجيب من حال المكذب بالدين، وهو الجزاء، وهذا كقولك: أرأيت فلانًا ماذا ارتكب، والأكثر أن تستعمل هذه الصيغة (أرأيت) في حالة عجيبة.

والرؤية بمعنى المعرفة؛ أي: هل عرفت هذا الذي يكذب بالدين، والخطاب للنبي ﷺ، أو لكل عاقل يصلح للخطاب.

ولما حصل التشوف إلى معرفته بيَّنه بقوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾؛ أي: فهو الذي مِن أخصِّ صفاته أنه يدفع اليتيم عن حقه بعنف ويظلمه، واليتيم: مَن مات أبوه ولم يبلغ.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾؛ أي: ولا يحثُّ غيرَه على إطعام المسكين، وإذا كان لا يحث غيره، فمن باب أولى أنه لا يفعل ذلك لشدة بخله وقسوة قلبه، وفي الآية الحث على الرحمة والتواصي بها، وأن ذلك من صفات المؤمنين، كما صرح به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد]، ومن الدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين**»[1].

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾؛ أي: عذاب شديد لهم وهلاك، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾؛ أي: غافلون عنها، فلا يقيمونها أصلًا، أو لا يأتون بها كما أمر الله. وفيه الإشارة إلى أن المكذب بالدين الذي يدُع اليتيم ليس من أهل الصلاة، فلهذا أساؤوا للمخلوق، كما قصروا في حق الخالق جل وعلا.

قال عطاء بن دينار: «الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣)؛ من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

يقل: في صلاتهم»، وذلك لأن السهو في الصلاة لا يكاد يخلو عنه مسلم، فليس هو أمرًا اختياريًا، خلافًا للسهو عن الصلاة؛ فإنه أمر متعمد، نسأل الله السلامة.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ الناس بصلاتهم وسائر أعمالهم، فيُظهرون أنهم من أهل الصلاح والتقوى، وهم بضد ذلك، فليس همُّهم رضا الله ﷻ، وهذه صفة المنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء].

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾؛ أي: يمنعون السائل أقل الأشياء مما يتعاوره الناس فيما بينهم؛ كالكأس والإبرة ونحوهما، ومن باب أولى أنهم يمنعون الزكاة، فهم موصوفون بأشد البخل.

وفي الإخبار عنهم بصيغة المضارع (يكذب، ويدعُّ، ويراؤون، ويمنعون) إشارة إلى تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تقبيح حال الكافر المكذب بالجزاء، والتعجب والتعجيب من قبح ما صنع.

٢ ـ ذمُّ هذا المكذب بالقسوة والظلم للضعيف، وبإعراضه عن الدعوة إلى الإحسان.

٣ ـ أن التكذيب بالبعث والجزاء ينشأ عنه فساد العمل؛ لأنه لا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا.

٤ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

٥ ـ أن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على صلاح العمل والرحمة والإحسان رجاء ثواب الله، وترك الظلم خوفًا من عقاب الله.

٦ ـ التحذير من ظلم اليتيم والضعيف.

٧ ـ أن اليتيم أحق بالرحمة من سائر المساكين.

٨ ـ الإرشاد إلى الحض على الإحسان وإطعام المساكين.

٩ ـ أن للمسكين حقًا في مال الغني.

١٠ ـ أن الطعام أهم ضروريات الإنسان.

١١ ـ تهديد المصلين الساهين عن صلاتهم.

١٢ ـ ذمهم بالرياء وبمنع الإحسان الذي لا يضرهم ولا ينقصهم.

١٣ ـ أن هذه الآيات مدنية؛ لأن ما ذكر من الصفات هي صفات المنافقين، وذكرُ المنافقين وصفاتهم من خصائص السور المدنية.

١٤ ـ أن من صفات المنافقين السهو عن الصلاة، وهو الغفلة عنها الناشئة عن عدم الاهتمام.

١٥ ـ الفرق بين السهو عن الصلاة والسهو في الصلاة.

١٦ ـ عظم شأن الصلاة عند الله.

١٧ ـ أن من صفات المنافقين الرياء.

١٨ ـ أن من صفات المنافقين البخل ولو بالشيء اليسير من النفع؛ كعارية الدلو والماعون والفأس، ففيه شاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

١٩ ـ أن هذه الصفات جمعت التفريط في حق الله وحق عباده.

٢٠ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأن الله ذم الكافر على ظلم اليتيم، وعلى ترك الحض على إطعام المسكين، وأخبر تعالى عن المجرمين إذا سئلوا عن سبب عذابهم أنهم يقولون: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر].



٣١ ـ تفسير سورة الكوثر

سورة الكوثر مدنية، وهي ثلاث آيات، وقد تضمنت كلُّ آيةٍ معنًى مستقلًّا عن معنى الآية الأخرى، مع التناسب بينها لفظًا ومعنى؛ فتضمنت الآية الأولى الامتنان من الله على عبده ورسوله محمد ﷺ بأن أعطاه الكوثر، وتضمنت الآية الثانية أمر الله نبيه بالصلاة له والنحر له، وتضمنت الآية الثالثة تهديدًا من الله لشانئ الرسول ﷺ بقطع دابره، وفي كل ذلك تكريم وتشريف من الله لنبيه عليه الصلاة والسلام.

الآيات:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر].

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ الخطاب خاص بالنبي ﷺ، و(الكوثر) في اللغة الخير الكثير، على وزن (فَوْعل)، فهي صيغة مبالغة، تدل على أنه خيرٌ بالغٌ النهاية في الكثرة، والآية بشارةٌ وامتنانٌ مِن الله على نبيه محمد ﷺ؛ أي: إنا وهبنا لك ـ أيها الرسول ـ من النعم والأفضال في الدنيا والآخرة شيئًا عظيمًا؛ من النبوة، والقرآن، والإسراء، وسائر المعجزات، ورفعة الذكر، وبقاء اسمك على كل لسان مقرونًا باسم الله في الذكر وغيره، وكثرة أتباعك، وسلامتك مِن

أعدائك، وظهورك عليهم، وكثرة الفتوحات، والمقام المحمود في الآخرة، وهو الشفاعة العظمى، وكذلك النهر في الجنة، والحوض الذي في عرصات القيامة، وأنك أول مَن تُفتح له الجنة، وصاحبُ الوسيلة، وهي الدرجة العالية في الجنة، التي لا تكون إلا لك، إلى غير ذلك من الأعطيات الربانية الكريمة، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى]؛ أي: عطاء لا حدود له.

وتصدير السورة بهذه الآية من حسن الافتتاح، مع ما اشتملت عليه الآية من أنواع التأكيد؛ لأنها تضمنت بشارةً ووعدًا ورضًا مِن الله عن نبيِّه ﷺ، فمن ذلك مجيء ﴿إِنَّآ﴾، وضمير العظمة الذي تكرر مرتين، وصيغة المبالغة ﴿ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾، ومجيء الفعل ماضيًا ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ لتحقق الوقوع.

وقد ورد عن النبي ﷺ تفسير الكوثر بالنهر في حديث أنس رضي الله عنه في «صحيح مسلم»، ولفظه: قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أنزلت عليَّ آنفًا سورة**» فقرأ: **بسم الله الرحمٰن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير**» الحديث(١).

وفي «صحيح البخاري» عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدُّر المجوَّف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك**»(٢).

---

(١) مسلم (٤٠٠).

(٢) البخاري (٦٥٨١).

وتفسير النبي ﷺ للكوثر بأنه النهر من تفسير اللفظ ببعض ما يدل عليه؛ وهو من التفسير بالمثال، فإن الكوثر يعمُّ النهر وغيره، فإنه ثبت في الآثار عن طائفة من مفسري السلف؛ كابن عباس، وسعيد بن جبير، وغيرهما، تفسير الكوثر بالخير الكثير، ساق هذه الآثار ابن جرير وابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾؛ أي: دُم على الصلاة فرضِها ونفلِها شكرًا لله على ما وهبك من صنوف النِّعم، والصلاة عماد الدين، وهي أجل الأعمال، وأحبها إلى الله ﷻ، ﴿وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ النسائك مِن البُدن وغيرها لله تعالى، وقوله: ﴿فَصَلِّ﴾ الفاء للسببية؛ لأن الإنعام الكثير سبب لمداومة الشكر، كأنه قال: إنا أعطيناك الكوثر فدم على الشكر، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ أي: اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر لوجهه تعالى، وباسمه سبحانه، فهو أمر بالتوحيد والإخلاص، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام].

وفي قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ التفات من التكلم إلى الغَيبة، حيث لم يقل: فصلِّ لنا، لتربية المهابة في القلوب، وتحقيقًا للتوحيد في العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ [طه]، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ من إظهار الحفاوة واللطف به ﷺ ما لا يخفى، وأن ما هو فيه من النعماء من آثار تربية الله له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ مِن الشنآن؛ أي: مبغضك من قومك وغيرهم ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ لا محالة؛ أي: المنقطع عن النَّسل وعن الذِّكر الحسن وعن كل خير، ويكفيه خزيًا خلودُه في النار، أمَّا أنت أيها الرسول فذكرك باقٍ إلى آخر الدهر، واسمك مرفوعٌ على المنابر

والمنائر، جارٍ على كل لسان، وأتباعك الذين يؤمنون بك ويحبونك ويعظمونك ويذكرونك هم أكثر الأمم.

ويذكر المفسرون أسماء جماعة من المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ ويصفونه بالأبتر، فنزلت الآية ردًا عليهم، والآية لم تذكرهم بأسمائهم بل بأوصافهم فتعم جميعَ مَن ذُكروا وغيرَهم ممن أتى ومَن لم يأت ممن اتصف بالشنآن؛ لأن اسم الفاعل (شَانِئ) يفيد الاستمرار، فيشمل الماضي والمستقبل.

وفي الآية معجزة قرآنية ظاهرة، وتأمل كيف أكد الجملة بمؤكدات عدة: **أولها**: (إنَّ)، **الثاني**: بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والاختصاص، **الثالث**: مجيء الخبر على أفعل التفضيل دون اسم المفعول، **الرابع**: تعريف الأبتر بـ (أل)، ليدل على كمال القطع والبتر لهذا العدو الشانئ لخير الخليقة وأحبهم لربه ﷺ.

وهذه السورة ـ على وجازتها وكونها أقلَّ سور القرآن كلمات ـ تضمنت معانيَ عظيمة؛ مِن بشارة، ودعوةٍ إلى التوحيد، وإخبار بالغيب، وحماية للجناب النبوي، فأولها بُشرى مِن العزيز الحميد، وأوسطها عبادةٌ وتوحيد، وآخرها نصرٌ للنبي وتهديد للشَّانئ العنيد، ففيها البرهان على أن هذا الكتاب العزيز في أعلى طبقات البلاغة والبيان، فسبحان من أنزله! وبحلية الإيجاز والإعجاز زيَّـنه وكمَّله!

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذِكْر الله نفسَه بصيغة الجمع الدالة على العظمة وعلى كثرة الأسماء والأوصاف والجنود، مع كمال الطاعة والعبودية.

٢ ـ عِظم شأن هذه العطية؛ فإن الكوثر هو الخير الكثير، وهو شاملٌ لكل ما أعطاه الله في الدنيا، وما يعطيه في الآخرة، ومنه نهر الكوثر.

٣ ـ إنعام الله على نبيه بأن أعطاه الكوثر على التفسيرين في المراد بالكوثر.

٤ ـ اختصاص النبي ﷺ بالكوثر تشريفًا وتكريمًا، ولأمته وِردٌ على حوضه وشربٌ منه، وماء الحوض مِن الكوثر، وقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ في وصفه، وذكرِ وُرَّاده مِن أُمَّته.

٥ ـ أمر الله نبيَّه ﷺ بشكر هذه النعمة؛ بالصلاة له والنحر له، فهما سبب لما أعطاه، وسبب للمزيد من الإنعام.

٦ ـ وجوب الإخلاص لله في الصلاة والنحر وغيرِهما من العبادات.

٧ ـ التناسب بين عبادتي الصلاة والنحر، ولهذا قرن الله بينهما في آيتين من القرآن: في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام]. فالصلاة أجلُّ العبادات البدنية والقلبية، والنَّحر أجلُّ العبادات المالية والقلبية؛ فإنهما تتضمنان التواضع لله والبذل والسخاء وتعظيم الله بتحقيق التوحيد، والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، وعدم الالتفات إلى زهرة الدنيا التي مُتِّع بها أصناف من الناس.

٨ ـ أن من جزاء النبي ﷺ على شكر ربه وقيامِه بما أوجب الله عليه = أنْ جعل كلَّ مُبغِضٍ للنبي ﷺ هو الأبتر؛ أي: الخاسر ومقطوع الدابر مِن جميع الوجوه، في الدنيا والآخرة. ولكلِّ مَن أبغض شيئًا مما جاء به النبي ﷺ نصيبٌ من هذا الوعيد.

٩ ـ وجوب محبة النبي ﷺ فوق محبة النفس والأهل والولد، كما جاء في الحديث الصحيح، ويتبع ذلك محبة ما جاء به عليه الصلاة والسلام.

١٠ ـ أن بغضه ﷺ من سمات الكافرين، وهو نوع من النفاق الأكبر؛ لأن البغض عملٌ قلبي، وهو نقيض حب الله ورسوله ﷺ.

١١ ـ أن مَن فرَّغ نفسه لله ولعبادته كفاه الله ما يخشاه، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود].





٣٢ ـ تفسير سورة الكافرون

سورة الكافرون مكية، وهي ستُّ آيات، وقد تضمنت البراءة من دين الكافرين المشركين، ومن معبوداتهم، وإعلانَ التميُّز عنهم بعبادة الله وحده، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]. وهذه السورة شقيقة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص]، وتسميان سورتي الإخلاص، لما تضمنتاه مِن تقرير التوحيد، والثناء على الله بصفات الكمال، وكان النبي ﷺ يقرأ بهما في سُنَّة الفجر(١)، وفي سُنَّة المغرب(٢)، وفي ركعتي الطواف(٣).

الآيات:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

التفسير:

روى ابن جرير والواحديُّ وغيرهما أن رهطًا من المشركين عرضوا على النبي ﷺ أشياء، فممَّا عرضوا عليه أن قالوا: تعبُد آلهتنا سنة:

(١) ينظر: مسلم (٧٢٦)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ينظر: الترمذي (٤٣١)، وابن ماجه (١١٦٦)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) ينظر: مسلم (١٢١٨)؛ عن جابر رضي الله عنه.

اللات والعُزَّى، ونعبد إلٰهك سَنَة، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ السورة.

فالمراد بالكافرين ـ إذن ـ قومٌ مخصوصون، بقرينة سبب النزول، واختار ذلك ابن جرير وغيره، قالوا: يؤيده نظمُ السورة؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢﴾ لا يجوز أن يكون خطابًا مع كل الكفرة؛ لأن فيهم مَن يعبد الله تعالى، كاليهود والنصارى، فلا يجوز أن يقال لهم: لا أعبد ما تعبدون، ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣﴾ خطابًا مع عموم الكفار؛ لأن في الكفار مَن آمن بعد ذلك، وصار يعبد الله تعالى.

وذهب آخرون إلى أن الخطاب في السورة لكل كافر، ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال: «الخطاب للمشركين كلِّهم، مَن مضى ومَن يأتي إلى يوم القيامة»[(١)]، وقال أيضًا: «وكان يُقرأ بالسورة في المدينة بعد موت أولئك المعينين، وكان [النبي ﷺ] يأمر بقراءتها، ويقول: «**هِي براءةٌ مِن الشِّرك**»[(٢)]، فلو كانت خطابًا لأولئك المعينين، أو لمن عَلم [الله] منهم أنه يموت كافرًا، لم يخاطَبْ بها مَن لم يَعلم ذلك منه»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٠٣)؛ من حديث فروة بن نوفل رضي الله عنه أنه أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، عَلِّمني شيئًا أقولُه إذا أَوَيتُ إلى فِراشي؟ فقال له: «**اقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم نَمْ، فإنها بَراءة من الشرك**»، وأخرجه أبو داود (٥٠٥٥) عن فروة عن أبيه، قال الترمذي: «وهو أصح». وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في تخريج الأذكار (ص: ٢٦٥)، وعبارته: «حديث حسن، أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وفي سنده اختلاف كثير على أبي إسحاق السبيعي، فلذا اقتصرت على تحسينه».

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾؛ أي: المكذبون الجاحدون؛ أي: قل ـ يا أيها الرسول ـ للكافرين بالله وبرسوله هذا القول العظيم الفصل.

وفي ندائهم بهذا الوصف تحقيرٌ لهم وتوبيخ؛ لأنهم كانوا يسترذلون هذا الوصف، ومع ذلك فقد حفظ الله نبيه ﷺ من كيدهم، وذلك من أعلام النبوة.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾؛ أي: لا أعبد في المستقبل، فإن (لا) تُخْلِص المضارعَ للمستقبل، ونفيُ عبادة آلهتهم في المستقبل يفيد نفي عبادتها في الحال بدلالة فحوى الخطاب، ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾؛ أي: الذي تعبدونه الآن من الآلهة الباطلة.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾؛ أي: ولا أنتم عابدون في الماضي والحاضر والمستقبل الإله الحقَّ الذي أعبده، فإنَّ ﴿لَآ﴾ دخلت على جملة اسمية فأفادت ثبوتَ النفيِّ وشمولَه لجميع الأوقات.

ويصح أن يعبر عن الله بـ (ما)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس]؛ أي: وبانيها، كما يعبر عنه سبحانه بـ (مَن).

قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾؛ أي: ولستُ في جميع الأوقات بعابدٍ معبودَكم.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ هذه الآية تأكيد لنظيرتها السابقة، والتأكيد بتكرار الكلمة معروفٌ في أساليبهم، وهو في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر]، وقال ﷺ: «**فَلَا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ**»[1]، وفائدة

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩) واللفظ له؛ من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

التأكيد هنا الدلالة على إصرارهم على الشرك، واستمرارهم عليه، وتحقيقُ الخبر بموتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبدا، وهذا على قول مَن قال إنَّ الخطاب في الآية لقوم مخصوصين من الكفار.

وفي قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ دلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام، كما أنه يدل على تنزهه ﷺ عن عبادتها، فإنه أضاف عبادتها إليهم فقال: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾.

ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ وقوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ مصدرية، فتُؤَوَّل مع ما بعدها بمصدر، ويكون المعنى: ولا أنا عابدٌ عبادتكم الباطلة، ولا أنتم عابدون عبادتي الحقَّ؛ أي: فلا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة، فلا تكرار حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ الذي هو الشرك، ولا أوافقكم عليه ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ وهو الإسلام، فلا أحيد عنه، وأصلها: ديني، حذفت الياء تخفيفًا مِن أجل الفاصلة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ عموم رسالة محمد ﷺ؛ لأنه أُمر بخطاب جميع الكافرين.

٢ ـ التباين بين دين الرسول ﷺ ودين الكافرين.

٣ ـ أن دين الرسول ﷺ ـ وهو دين الرسل كُلِّهم ـ يقوم على عبادة الله وحده لا شريك له.

٤ ـ أن دين المشركين يقوم على عبادة غير الله.

٥ ـ براءة الرسول ﷺ من معبودات المشركين، ومن عبادتها:

* ١ ـ أن هذه البراءة عامة من جميع المشركين، ومطلقة في كل زمن.

* ٢ ـ براءة المشركين من الله ومن عبادته؛ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس].

* ٣ ـ بطلان ما يدعيه المشركون ويظهرونه من عبادة الله، فليسوا عابدين لله، وإن زعموا ذلك.

* ٤ ـ التباين بين دين الموحد ودين المشرك في المعبود والعبادة.

* ٥ ـ استثارة الكفار بالبراءة منهم ومعاداتِهم والصبرِ على أذاهم، واستثارتُهم للتفكير في حالهم، وبعثُ هممهم لقبول ما دُعوا إليه. ففي السورة:

٦ ـ دعوة الكفار إلى الإيمان بالرسول ﷺ، والاستجابة لما دُعوا إليه من التوحيد، وترك الشرك الموجب للبراءةِ منهم وعداوتِهم وبغضِهم.

٧ ـ فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أصل الدين، وهو توحيد العبادة.

٨ ـ أن ما عليه الكفار من اعتقادات وأعمال تعبدية يسمى دينًا، وشواهد هذا كثيرة؛ ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ [آل عمران: ٨٥].

٩ ـ الإجمال بعد التفصيل في هذه البراءة.

وبعد ما تيسر من هذه الفوائد، نذكر لك فوائد سبق تحريرها، وهي مختصة بفوائد تصدير بعض السور وكثير من الآيات بـ﴿قُلۡ﴾، وأصلها منتقًى من كلام الفخر الرازي في تفسيره لهذه السورة مع التلخيص والتحرير، وإليك هذه الفوائد:

١٠ ـ أن الله يتكلم.

١١ ـ أن الله يأمر.

١٢ ـ أن الرسول ﷺ مأمور.

١٣ ـ أن هذا القرآن كلام الله.

١٤ ـ أن الرسول مبلِّغ؛ وفي ذلك إعلام المخاطبين بأنه لم يأت بهذا الكلام ابتداءً من عنده، بل هو مبلغ لكلام مرسِله، وهم مقرِّون بربوبيته.

١٥ ـ وجوب التبليغ.

١٦ ـ أهمية مضمون الجملة.

١٧ ـ التنبيه لما سيأتي بعد.

١٨ ـ تشريف المأمور بتوجيه الخطاب له.

١٩ ـ الرد على الجبرية، فإن العبد لو كان مجبرًا لما توجه إليه الأمر.

٢٠ ـ تثنية هذا الأمر في القرآن فيه تأكيد أن من جاء به رسول، وأن كل ما يتلوه هو كلام مرسِله.

٢١ ـ تلقين الرسول ﷺ الرد على المشركين في قولهم: نعبد إلٰهك سُنَّة، وتعبد إلٰهنا سُنَّة.

٢٢ ـ الدلالة على إعراض الله عنهم وترك خطابهم، وإحالة ذلك إلى الرسول ﷺ، وإن كان ذلك غير مطرد.

٢٣ ـ أن ما بعد ﴿قُلۡ﴾ قد لا يناسب أن يتكلم الله به ابتداءً، كما في هذه السورة.

٢٤ ـ تكليفه ﷺ بمواجهة المكذبين له من قومه وغيرهم بنعتهم بالكفر بشركهم وتكذيبهم، وهذه المواجهة من الصدع بما أُمر به ﷺ.

٢٥ ـ أن نعت النبي ﷺ لهم بالكفر مع قرابته القربى، من الحوافز على مراجعة أمرهم.

٢٦ ـ تكليفه ﷺ البراءة من المشركين؛ من عباداتهم ومعبوداتهم.

٢٧ ـ أن ما أُمر به من القول كبيرٌ على الكافرين المشركين، وقرة عين المؤمنين الموحدين؛ ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

٢٨ ـ أن البراءة في هذه السورة تتضمن تنزيه الله عن الشركاء، وتسفيه المشركين، وتدل على حكمة الرسول ﷺ ورجاحة عقله بهداية ربه؛ فتسوية المخلوق بالخالق فيما هو من حقه تعالى غاية السفه.

٢٩ ـ أمْرُ الله نبيَّه برفض ما طلبه المشركون مِن الصلح مع النبي ﷺ بأن يعبدوا إلهه سنة، ويعبدوا آلهتهم سنة، وبأن يعلن أن ذلك ممتنع؛ لأن الإلٰه واحد، فلا يجوز الصلح على أنه متعدد.





٣٣ ـ تفسير سورة النصر

هذه السورة مدنية بالاتفاق، وإن قيل: إنها نزلت بمكة؛ فإن المدني ـ على الصحيح ـ ما نزل بعد الهجرة، ولو كان نزوله بمكة.

وهي ثلاث آيات، تضمنت الآيتان الأُوليان البشارة بالنصر والفتح، وتضمنت الآية الثالثة الأمر بالتسبيح والاستغفار، وثناءه تعالى على نفسه بأنه تواب.

الآيات:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر].

تفسير الآيات:

الخطاب في هذه السورة للنبي ﷺ، فقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؛ أي: إذا جاء نصر الله لك وللمؤمنين؛ أي: إعانته لكم، وإظهاركم على الكافرين من قريش وغيرهم، و﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله، والتعبير بـ ﴿إِذَا﴾ (الذي هو ظرف لما يُستقبل من الزمان) يفيد تحقق هذا المجيء.

والنصر معلوم أنه لا يكون إلا من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وأضافه إلى نفسه المقدسة

للدلالة على أنه نصرٌ عظيم يهزم به العدو أشنع هزيمة، ولذا وصفه بالعزة في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح].

﴿وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر]؛ أي: فتح مكة، الذي وقع في رمضان من السَنة الثامنة، إذْ دخل النبي ﷺ مكة في عشرة آلاف مقاتل فاتحًا خاشعًا شاكرًا، يقرأ سورة الفتح ويُرجِّع في قراءتها، وهو على راحلته[١]، فأظهره الله على قريش، وحكَّمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصاله شأفتهم وإبادة خضرائهم؛ إذْ لقي منهم ما لقي من الشدائد، ولكنه عليه الصلاة والسلام بعد النصر والفتح المبين قال لهم وهو على باب الكعبة، وهم بين يديه ينتظرون حكمه فيهم: «**ماذا ترون أني صانع بكم؟**» فقالوا: أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم، فما زاد على أن عفا عنهم وصفح، وقال: «**أقول لكم كَمَا قَالَ أَخِي يوسف:** ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: ٩٢]، **اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء**»[٢].

فهذا الفتح هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به المؤمنين، وأذل به الكافرين، وطهَّر الله به بيته من الرجس والأصنام، ولهذا سماه الله فتحًا مبينًا في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ [الفتح]، وهذه السورة (سورة النصر) نزلت قبل فتح مكة على الصحيح، ولقد وقع ذلك كله كما أخبر الله به، فكان ذلك مصداقًا لنبوة محمد ﷺ، ومعجزة من معجزات القرآن. وعطف الفتح على النصر من عطف المسبَّب على السبب؛ لأن النصر سبب للفتح.

قوله: ﴿وَرَأَيۡتَ﴾ أيها الرسول، والرؤية قلبية بمعنى علمتَ،

---

(١) ينظر: البخاري (٧٥٤٠)، عن عبد الله بن مغفل ﷺ.

(٢) ينظر: المعجم الكبير للطبراني (١٠٥٢)، سيرة ابن هشام (٤/٧٨)، الأموال لأبي عبيد (ص: ١٤٣).

ويحتمل أنها بصرية ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ جمع فَوْج؛ أي: جماعات كثيرة، فيسلمون من غير قتال، وهذا كناية عن انتشار الإسلام، وذهاب أمر الجاهلية، وانتهاء سلطان قريش وأتباعها، ولهذا قال أبو سفيان يومئذ: يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم![١].

ثم إن القبائل بعد فتح مكة جعلت تتوافد نحو المدينة داخلة في الإسلام زُمَرًا زُمَرًا، من عرب الحجاز ونجد واليمن وشرقي جزيرة العرب، حتى سمي ذلك العام ـ وهو التاسع من الهجرة ـ عامَ الوفود، وكانوا قبل ذلك يسلمون أفرادًا؛ واحدًا بعد واحد، روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلِمة رضي الله عنه قال: كانت العرب تَلوَّمُ (أي: تنتظر) بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إنْ ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق، فلما كانت وقعة الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم[٢].

وقوله: ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾؛ جملة: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ حاليةٌ؛ إن كانت (رأى) بصرية، أو مفعول ثانٍ؛ إن كانت (رأى) علمية، و﴿أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ حال من الواو في ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الفاء رابطة؛ لأنها واقعة في جوابِ (إذا) المتضمنة معنى الشرط، والمعنى: نزِّه ربك بقلبك ولسانك؛ أي: قل: سبحان الله والحمد لله، ونزِّهه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله من النقائص، ومنها العجز، فإنه تعالى هو الذي نصرك على أعدائك، وهو على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٢).

والباء في ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للمصاحبة، متعلقة بحال محذوفة؛ أي: سبِّحه حالَ حمدك له؛ أي: بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظة: ﴿بِحَمْدِ﴾ أضيفت إلى معرفة ﴿رَبِّكَ﴾؛ فتعم جميع المحامد من كل وصفِ كمالٍ وجلالٍ ثابتٍ لله.

ومن رحمته ـ سبحانه ـ أن علَّمنا صيغ الحمد، ولم يترك لنا إنشاءها، إذنْ لفات على غير الفصحاء أن يحمدوا الله كما يكون الحمد، ولكن جاءت النصوص في الكتاب والسنة، وفيها صيغ كثيرة للحمد، فالحمد لله على ما هدى وعلَّم.

وفي ذكر اسم الرب ﴿رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن ما حصل من النعمة بالنصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا هو من آثار ربوبيته تعالى الخاصة بالنبي ﷺ، وأن ذلك كلَّه من آثار ما أنعم به عليه من النبوة والرسالة عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾؛ أي: اسأله المغفرة؛ فإنها نهاية الخير، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾؛ أي: يتوب على من تاب، وتوَّاب صيغة مبالغة، لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه، ومن كرمه تعالى أنه يوفق العبد للتوبة، ثم يتقبلها منه، فيكون العبد كمن لم يذنب، كما قال ﷺ: «**كيوم ولدته أمه**» في أحاديث[1].

وهو تعالى لم يزل توابًا، لم يحدث له هذا الوصف بعد أن لم يكن، فـ ﴿كَانَ﴾ هنا بصيغة الماضي لا مفهوم لها، وإنما تدل على اتصاف اسمها بخبرها مطلقًا. وهكذا ما كان مثلها مما ورد في أسماء الله وصفاته، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣﴾ [النساء]،

(١) منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**» البخاري (١٧٢٣) ومسلم (١٣٥٠).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء]، فإنه سبحانه لم يزل كذلك.

وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه مُذ نزلت عليه السورة، قالت عائشة رضي الله عنها: ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ إلا يقول فيها: «**سبحانك ربنا وبحمدك، اللَّهُمَّ اغفر لي**»[١]، وفي لفظ قالت: يتأول القرآن[٢]؛ أي: يفعل ما أُمر به.

وهذه السورة آخر ما نزل من سور القرآن، كما قال ابن عباس[٣]، وفيها الإشارة إلى دنو أجله عليه الصلاة والسلام، حيث أمر بالاستغفار، والاستغفار تختم به الأعمال الصالحة؛ كالصلاة وغيرها، وقد أتم الله نعمته على نبيه، ومكَّنه من تبليغ رسالة ربه، وما مات عليه الصلاة والسلام وفي بلاد العرب كلِّها موضع لم يدخله الإسلام.

فهو تعالى يقول لنبيِّه ﷺ: إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فاعلم أنه دنا أجلُك؛ فأكثر من التسبيح والاستغفار، وإلا فمقتضى السياق في الظاهر أن يكون: فاشكر الله على ذلك. وفي الآيات تنبيه للعاقل إذا قرب أجله أن يكثر من الاستغفار والحمد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ حتى ختم السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷺ نفسُه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قطُّ اجتهادًا في أمر الآخرة[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٢) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٣) ينظر: مسلم (٣٠٢٤).
(٤) رواه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣)، وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٦) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد، وأحد أسانيد رجاله رجال الصحيح».

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»! فقال: «**خبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرتُ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه، فقد رأيتها:** ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ **فتح مكة،** ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾»[(١)].

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نَصرَنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾، وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[(٢)].

وفي البخاري أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «**إنَّ عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه مِن زهرة الدّنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده**»، فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به[(٣)].

---

(١) مسلم (٤٨٤).
(٢) البخاري (٤٦٨٦).
(٣) البخاري (٣٦٩١).

فعلم مما تقدم أنَّ قُرب أجل النبي ﷺ قد أُشير إليه في القرآن في هذه السورة، ودلت عليه السُّنَّة في حديث أبي سعيد هذا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ الإشعار بقُرب أجله ﷺ، كما فهم ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، وصوَّبه عمر رضي الله عنه.

٢ ـ البشارة بالنصر والفتح.

٣ ـ أن النصر من الله، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٤ ـ الفرق بين النصر والفتح؛ فالنصر بغلبة المؤمنين للكافرين، والفتح يكون بالفصل بين أوليائه وأعدائه في حكمه الكوني، والمراد به هنا: فتح مكة.

٥ ـ أن من آثار نصر الله للمؤمنين كثرة من يدخل في الإسلام. وقد وقع هذا في آخر حياة النبي ﷺ، فإنهم بعد ما كانوا يدخلون أفرادًا صاروا يدخلون أفواجًا؛ أي: جماعات كثيرة.

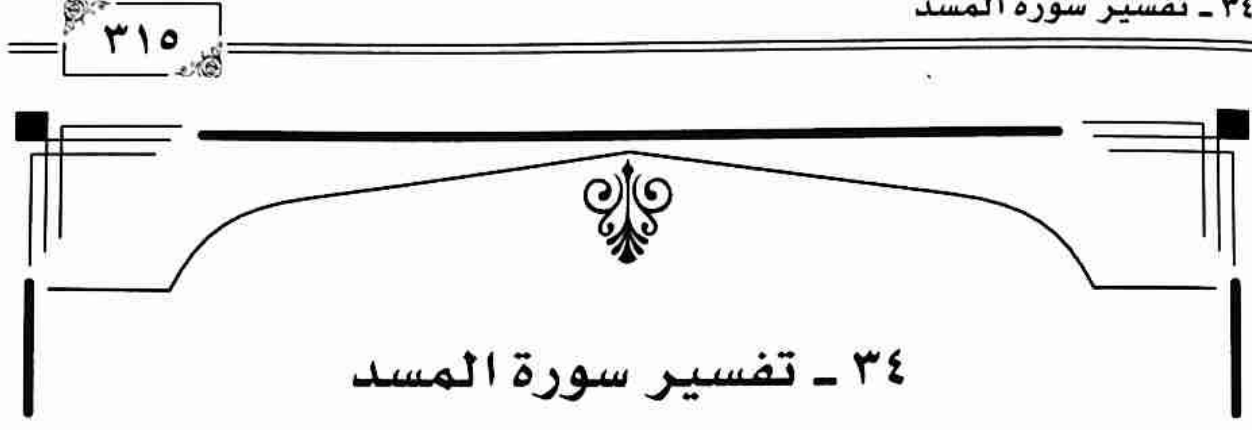
٦ ـ وجوب شكر النعمة، ومن أعظم ذلك: النصر والفتح. وقد شكر النبي ﷺ ربه كما أمره، فهو سيد الشاكرين، فصار يكثر من التسبيح والاستغفار.

٧ ـ أن الشكر يكون بمضاعفة العبودية لله، والاجتهاد في طاعته، ومن ذلك تمجيده بالتسبيح والتحميد، والخضوع له بالاستغفار.

٨ ـ مشروعية ختم الأعمال والأعمار بالذكر والاستغفار.

٩ ـ أن الأنبياء يجوز عليهم ما يقتضي الاستغفار.

١٠ ـ إثبات اسمه تعالى: التَّواب، وما دلَّ عليه مِن صفة التوبة وصفة الكثرة فيها.



٣٤ ـ تفسير سورة المسد

سورة المسد مكية، وهي خمس آيات، وقد تضمنت الخبرَ عن شِقوة عدوٍّ من أعداء الله ورسوله، وهو عبد العُزَّى بن عبد المطلب، عمُّ النبي ﷺ، ولقبه أبو لهب، والخبرَ عن شِقوة امرأته المؤذية للنبي ﷺ بقولها وفعلها، المنعوتةِ بقبيح فعلها ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾، وقد علم بذلك مصيرهما: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾، وبئس المصير.

۞ الآيات:

۞ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [المسد].

۞ التفسير:

هذه السورة لها سبب نزول، فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد إلى الجبل فنادى: «**يا صباحاه**»، فاجتمعت إليه قريش فقال: «**أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مُصبِّحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقونني؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟! تَبًّا لك! فأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٢) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (٢٠٨).

وكان أبو لهب شديدَ العداوة للنبي ﷺ، وكان يتبعه في المجامع ليكذبه أمام الناس، روى الإمام أحمد في مسنده عن ربيعة بن عباد الدِّيلي رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيءُ الوجه، أحولُ، ذو غَديرتين[1]، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ، وقالوا لي: هذا عمُّه أبو لهب[2].

فقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾؛ أي: خسِر وهلَك، فـ (التبُّ) والتَّباب والتَّتْبيب كلها بمعنى الخسران والهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر]، وقال: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ [هود].

والفعل (تبَّ) من باب ضرب. وتباب يديه كنايةٌ عن تبابه هو، وهو من التعبير بالبعض عن الكل؛ لأن اليدين أداة الفعل، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالآية دعاءٌ على أبي لهب، فهي ردٌّ على الشقيِّ في مقابل دعائه على النبيِّ ﷺ، وقوله: ﴿وَتَبَّ ۝١﴾؛ أي: وقد تبَّ وهلك، فهو إخبار بحصول هلاكه بعد الدعاء عليه، وجاء بصيغة الماضي، لأنه في حكم

---

(١) مثنى غديرة وتجمع على غدائر؛ وهي العقيصة أو الضفيرة من الشَّعر.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠٠٤)، والطبراني في الكبير (٤٥٨٢) والحاكم في المستدرك (١/ ١٥). قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٢): «وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات الرجال»، وله شاهد من حديث طارق المحاربي رضي الله عنه صححه ابن الملقن في البدر المنير (١/ ٦٨٠).

المقطوع به، ولهذا مات الشَّقي على كفره، وهذه أعظم هَلَكة، حيث خسر الدنيا والآخرة.

وأبو لهب لقبه، وهو وإن كان كنية فلا تكريم فيه؛ لأنه أضيف إلى غير ذي العقول، واسمه عبد العُزَّى، والعُزَّى صنم فلا يناسب أن يذكر هذا الاسم في القرآن؛ لما فيه من التعبيد لغير الله، ثم إن في ذكره بهذا اللقب ـ أبي لهب ـ تعيينًا له، وموافقة لحاله؛ فإنه من أصحاب النار، وبئس القرار.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾؛ أي: لم ينفعه ماله ولا كسبُه (وهُو: ولَدُه) في كيده للنبي ﷺ، ولا في دفع العذاب عنه، فـ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ نافية، أو هي استفهامية للإنكار؛ أي: بمعنى النفي، والمعنى: أيُّ شيء أغناه؟! لا المال ولا الولد، و﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ مصدرية؛ أي: وكسبُه، أو اسم موصول بمعنى الذي. وتفسير الكسب بالولد يدل له حديث: «**إنَّ أطيب ما أكلتم مِن كسبكم، وإنَّ أولادكم مِن كسبكم**»(١).

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾؛ أي: سيدخل نارًا عظيمة ويحترق فيها، ﴿ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ صاحبة اشتعال وتوقد، والسين حرف استقبال لتأكيد الوعيد.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ امرأتُه؛ أي: زوجته، معطوف على ضمير ﴿يَصْلَى﴾؛ أي: وزوجته ستصلى نارًا ذات لهب، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان رضي الله عنه، وكانت شديدة الأذى للنبي ﷺ، إذ كانت تحمل بنفسها الحطب وحزم الشوك بالليل، وتضعه في طريق

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، وابن ماجه (٢٢٩٠)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: حديث حسن.

النبي ﷺ، ولذا قال سبحانه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾، ونُصب ﴿حَمَّالَةَ﴾ بفعل مقدر مفهوم من السياق يدل على الذم؛ أي: أعني الشقيةَ حمالةَ الحطب، والنصب قراءة عاصم، وقرأ الجمهور بالرفع نعتًا لامرأته.

﴿فِى جِيدِهَا﴾؛ أي: عنقها، وهو خبر مقدم، ﴿حَبْلٌ﴾ مبتدأ، ﴿مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾؛ أي: من ليف مفتول فتلًا شديدًا، أو من حديد، تُجَر به في جهنم، وفي هذا إهانة لها، وتشهير بها عند أهل النار.

وهذه السورة من أكبر الأدلة على صحة الوحي وصدق الرسالة؛ فإنها نزلت في أبي لهب وامرأته وهما حيَّان، فكانت إعلامًا بأنهما لا يسلمان، بل يموتان على الكفر، في حين أن كثيرين مِن المشركين آذوا النبي ﷺ ولم ينزل فيهم قرآن؛ لأن الله كتب في سابق علمه أنهم سيدخلون الإسلام، فما أعظم هذا الكتاب! وما أصدقه!

وذهب بعض المتكلمين إلى أن هذه السورة دليل على جواز التكليف بما لا يطاق؛ حيث يكون أبو لهب مكلفًا بالإيمان بأنه لا يؤمن، وليس ذلك بصحيح؛ فإن القول بأنه مكلفٌ بالإيمان بأنه لا يؤمن: ممنوعٌ، بل بإعلامه بأنه سيصلى نارًا ذات لهب رُفع عنه التكليف؛ لأنه صار إلى ما يشبه حال مَن عاين الموت، فلا ينفعه الإيمان حينئذ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ الخبر من الله بأعظم خسرانٍ لأبي لهب، وهو التَّباب، والآية وإن كان لفظها دعاء فإنها متضمنة للخبر بخسرانه.

٢ ـ إسناد الوصف إلى اليدين؛ لأن الفعل بهما غالبًا.

٣ ـ أن أبا لهب ذو مال وولد، ولم يغنيا عنه شيئًا.

٤ ـ أن ولد الرجل من كسبه، ويؤيده ما جاء في الحديث.

٥ ـ بيان خسرانه المبين بإصلائه النار ذاب اللهب.

٦ ـ التناسب بين لقب هذا الشقي ومصيره.

٧ ـ أن مصير امرأته مصيرُه، فبئس الزوجان!

٨ ـ تقبيحها بالنص على فعلها القبيح، وهو وضع الشوك في طريق النبي ﷺ، كما قاله ابن عباس وغيره.

٩ ـ أن من شعب الكفر وضع الأذى في طريق المسلمين، ويفهم منه:

١٠ ـ أن من شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق، كما جاء في الحديث.

١١ ـ صحة أنكحة الكفار، لقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾.

١٢ ـ أن النسب لا عبرة به مع الكفر، فلم ينفع أبا لهب شرف نسبه، وفي الحديث: «**مَن بطَّأ به عملُه لم يسرع به نسبُه**»[1].

١٣ ـ أن المعصية ممن له شرف أقبح، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب].

١٤ ـ جواز الأكل من مال الولد؛ لأنه الله سماه كسبًا، كما يدل له حديث: «**إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.



٣٥ ـ تفسير سورة قل هو أحد

سورة (قل هو الله أحد) مكية، وهذا اسمها، وهي أربع آيات، وهي صفة الرحمٰن، وقد أُخلصت لذلك، ولذا سميت سورة الإخلاص، وفي قصة الرجل الذي بعثه النبي عليه الصلاة والسلام على سريَّة فكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**سلوه لأي شيءٍ يصنع ذلك**»، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمٰن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**»[(١)].

ومما يدل على فضلها ما ثبت عن النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن[(٢)]، ومما قيل في معنى الحديث إنه لما كان القرآن ثلاثة أقسام: توحيد، وأحكام، وقصص؛ وهذه السورة أُخلصت لصفات الله تعالى، وذلك هو التوحيد، فكانت لذلك تعدل ثلث القرآن، وسميت سورة الإخلاص.

وفي «صحيح البخاري» أنه عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٣)؛ من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم (٨١١ و٨١٢)؛ من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة، رضي الله عنهم.

[الناس]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات(١).

وتقدم أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ بهذه السورة وبالكافرون في سُنَّة الفجر، وفي سُنَّة المغرب، وفي ركعتي الطواف(٢)، وكان يقرأ بها في الوتر(٣).

الآيات:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

التفسير:

جاء في سبب نزول السورة ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد؛ انسب لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ السورة(٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الخطاب للرسول ﷺ أولًا، ولكل مَن يصلح للخطاب، وابتداء الكلام بـ (قل) يدل على أهمية

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تقدم تخريج ذلك في تفسير سورة الكافرون.

(٣) ينظر: ما أخرجه أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (١٦٩٩)، وابن ماجه (١١٧١)؛ من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. وصححه ابن حبان (٢٤٣٦)، وابن القطان في «الوهم والإيهام» (٢٨٣٤)، وقال الحاكم (٣٠١٦): «إسناده صحيح». وما أخرجه الترمذي (٤٦٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال: حسن غريب.

(٤) مسند الإمام أحمد (٢١٢١٩) وأشار محققوه إلى ضعف إسناده، والترمذي (٣٣٦٤) و(٣٣٦٥)، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٦٠٦)، وحسن ابن حجر إسناده في فتح الباري (١٣/ ٣٦٩)، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن اليهود هم الذين سألوا، فقالوا: صف لنا ربك، فأنزلت السورة.

مضمونه، ولفت الأذهان إليه، وإعلانه للأمة، فإن من أساليب الكلام البليغ أن يُفتتح بالمؤكدات، أو بفعل أمر، مثل: (اعلم) أو (قل)، كما هنا، ونحو ذلك.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ أي: قل أيها الرسول: هو الله أحد؛ أي: واحد لا شريك له ولا شبيه له ولا مثيل له، فهو تعالى المتفرد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وهو مبتدأ، وجملة ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ خبره، فهي تفسير للضمير، وضمير الشأن يُؤتى به تفخيمًا للأمر، فإن فيه إجمالًا وإبهامًا يتطلع معه السامع إلى معرفة الإجمال والإبهام، فإذا ذُكر الخبرُ المفسِّرُ بعده تمكن من ذهنه فضلَ تمكن، ونظير هذه الآية في اشتمالها على الضمير ومفسِّره قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ [الحشر: ٢٢].

والاسم الشريف ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلم على الربِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وهو أصل الأسماء الحسنى، ولا يسمى به غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والصحيح أنه مشتق، وأن أصله الإلٰه، فحذفت الهمزة وأدغمت اللام في اللام مع التفخيم، و(الإلٰه) بمعنى: المألوه؛ أي: المعبود، كالكِتَاب بمعنى: المكتوب، والفراش بمعنى: المفروش، قال ابن عباس في معناه: «الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»[1].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ الجملة خبر ثانٍ للضمير ﴿هُوَ﴾، والصمد الذي يُصمد إليه؛ أي: يُقصد في الحوائج، فهو الملجأ والملاذ لجميع المخلوقات جلَّ وعلا، يقال: صمَده يصمُده إذا قصدَه، فالصَّمَد فَعَل بمعنى مفعول، ونظيره: السَّنَد الذي تسند إليه الأمور المهمة.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/١٢١).

وجاء عن السلف تفسيرات عدة للصمد؛ منها: السيد الذي انتهى سؤدده، والحيُّ القيوم الذي لا زوال له، والـمُصمْت الذي لا جوف له؛ أي: فلا يأكل ولا يشرب، لغناه عن كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وكل هذه التفسيرات صحيحة يحتملها اللفظ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر، وفي الجملة قصر بتعريف الجزأين؛ أي: لا صمَد إلا الله.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ أي: لم يتخذ ولدًا، وتنزه عن ذلك، وهذا من تمام غناه سبحانه وأحديته؛ فإن الولد بَضعة مِن أبيه وجزء منه، والله لا مثيل له، والوالد يتقوى بابنه، والله غني عن كل أحد، والأب يتخذ ولدًا ليخلفه إذا مات، والله حي قيوم لا يموت، ولهذا كان وجود الابن في حق الله نقصًا، وإنْ كان كمالًا في حق العبد لضعفه وحاجته وأنه يموت. ثم إن الولد لا يكون إلا لمن له زوجة، والله ليس له زوجة، كما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام]، فتبين بذلك أن أسباب الولادة منتفية عن الله.

وفي الآية رد على اليهود الذين قالوا: عزيرٌ ابن الله، وعلى النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وعلى مشركي العرب القائلين: الملائكة بنات الله، وعلى الفلاسفة القائلين بتولد العقول والنفوس من العلة الأولى (الإله) بزعمهم، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾؛ أي: لم يكن له والد، فهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، كما في الحديث[1]، والولادة تستلزم

(١) وهو قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ أنت الأول فليس قبلك شيء**»، أخرجه مسلم (٢٧١٣)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحدوث، فكل مولود حادث. وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات، فلا ولد ولا والد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا﴾؛ أي: مكافئًا ومماثلا، ﴿أَحَدٌ ۝٤﴾؛ أي: ولم يكن أحد من خلقه يكافئه ويماثله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى].

وقرأ الجمهور: (كُفُؤًا) بالواو مهموزة وضم الفاء، وقرأ حمزة ويعقوب وخلف: (كُفْئًا)، وقرأ حفص: ﴿كُفُوًا﴾.

الفوائد والأحكام:

في هذه السورة فوائد؛ منها ما يتعلق بتصدير السورة بـ ﴿قُلْ﴾، وقد دُوِّنت في فوائد سورة الكافرون، وهي إحدى عشرة فائدة، من الفائدة العاشرة إلى الفائدة العشرين، فارجع إليها، ومن فوائدها أيضًا:

١ ـ فضل هذه السورة لفضل ما تضمنته من صفة الرحمٰن.

٢ ـ إثبات اسمه تعالى الأحد.

٣ ـ إثبات اسمه الصمد.

٤ ـ تميز هذه السورة عن سائر سور القرآن بذكر هذين الاسمين، وهذا من أسباب فضلها.

٥ ـ أنه تعالى لا يأكل ولا يشرب، ولا جوف له.

٦ ـ أنه تعالى الكاملُ في جميع صفات الحمد والجلال.

٧ ـ أنه الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها.

٨ ـ تنزيهه تعالى عن الولد والوالد.

٩ ـ تنزيهه عن الكُفء، وهو المِثل والنَّظير.

١٠ ـ التفصيل بعد الإجمال، وبيان ذلك أن اسمه الأحد يدل على تنزيهه تعالى عن الشريك والنظير، وفي الجمل الثلاث الأخيرة تفصيل لهذا التنظير.

١١ ـ أن الله يوصف بالإثبات والنفي المتضمن لإثبات الكمال.

١٢ ـ الرد على جميع الأديان والمذاهب الباطلة.





٣٦ ـ تفسير سورة الفلق

هذه السورة مكية، وهي خمس آيات، وقد افتتحت بـ (قل)، كما افتتحت بذلك سورة الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الناس.

وتضمنت السورة الأمر بالتعوذ بالله تعالى بربوبيته للفلق، من شر أربعة أشياء في أربع آيات ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ إلخ السورة، وتقدم[١] أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ من سورة الإخلاص، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ من سورة الناس الحديث، وكان ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده[٢].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؛ قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس**»[٣]، وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**يا ابن عابس، ألا**

---

(١) في تفسير سورة قل هو الله أحد.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الحافظ معلقًا على قول البخاري «باب فضلِ المعوذات»: «أي: السور الثلاث [الإخلاص، الفلق، الناس]، وذكر سورة الإخلاص معهما تغليبًا؛ لما اشتملت عليه من صفة الرب، وإن لم يصرح فيها بلفظ التعويذ» فتح الباري (٩/ ٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (٨١٤).

أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قال: قلت: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «**قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، هاتين السورتين**»(١)، وعنه رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة(٢). وسُميت بالمعوِّذات؛ أي: المحصِّنات؛ لأنها تحصن قارئها مِن الشَّر والأذى.

الآيات:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق].

تفسير الآيات:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ويشمل كل مَن يصلح له الخطاب مِن أمته، ﴿أَعُوذُ﴾ ألتجئ وأعتصم وأستجير، فهو طلبٌ للعياذ من هذه الشرور، فهو إنشاءٌ وإن كان بصيغة الخبر، ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾؛ أي: الصبح، وربه هو الله جل جلاله، وسمي الصبح فَلَقًا؛ لأنه يُفلَق عنه سواد الليل وظلمتُه؛ أي: يُزَال، فالفَلَق بمعنى المفعول، كالصَّمَد بمعنى المصمود، والله تعالى هو فالق الصبح ومجليه، كما قال سبحانه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٩٧)، وحسن إسناده ابن حجر في «بذل الماعون في فضل الطاعون» (تحقيق: أحمد الكاتب)، (ص: ١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذي (٢٩٠٣) وقال: «حسن غريب»، والنسائي (١٣٣٦)، وصححه ابن حجر في «نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار» (٢/ ٢٩٠).

وذكر الربوبية ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ لما فيها من معنى الملك والتدبير والتصرف في الخلق والإنعام، فهو سبحانه الذي يجلِّي الصبح، ويسلخ عنه ظلام الليل، وبهذا تظهر مناسبة التعوذ برب الفلق من هذه الشرور، فبالصبح ينقشع الظلام، والله هو القادر على ذلك، فهو تعالى فالق الإصباح، وهو القادر على دفع هذه الشرور، ورفع ما وقع منها.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ أي: من شر جميع المخلوقات مما فيه شر، ومن ذلك شر النفس، وأضاف الشر إلى المخلوقات لا إلى الخلق الذي هو فعله؛ لأن الشر لا يدخل في صفاته ولا في أفعاله تعالى، كما قال ﷺ: «**والشّر ليس إليك**»(١).

ولما عمَّ في التعوذ مِن شر جميع المخلوقات خصَّ بعضها فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾؛ أي: الليل، كما قال تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ إذا أظلم، ففي الليل ينتشر الشر وتنطلق السباع والهوامّ واللصوص، والغاسق أيضًا القمر، ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ إذا غاب، ففي الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «**يا عائشة، استعيذي بالله مِن شرِّ هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب**»(٢)، وهذا يؤول إلى القول الأول؛ لأن القمر إذا غاب هجمت الظلمة.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ النَّفْث نفخ خفيف مع ريق قليل؛ أي: وأستجير بالله من شرِّ النفوس النفاثات الشريرة التي تنفث في عُقَدٍ عَقَدَتْها لينفذ السحر، فينفذ بإذن الله، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١)؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) الترمذي (٣٣٦٦) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (٢/ ٥٤٠)، وحسن إسناده الحافظ في فتح الباري (٨/ ٧٤١).

وفُسر ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ بالنساء السواحر، على اعتبار أن النساء أكثر تعاطيًا للسحر، ولكن الأولى تعميم اللفظ؛ فإن السحر موجود عند الرجال أيضًا، ومن ذلك أن النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله[1].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ وهو الذي يتمنى زوال نعمة الآخرين، ﴿إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ إذا أظهر حسده، وقد تنفعل نفس الحاسد الخبيثة فيصيب المحسود بعينه، ويلحق الأذى به، فلهذا أمر الله بالاستعاذة من شر الحاسد، نسأل الله أن يعيذنا منه ومن جميع الشرور بمنه وكرمه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ مشروعية العياذ بالله من جميع الشرور.

٢ ـ التوسل إلى الله بربوبيته للفلق في الوقاية من الشرور عمومًا وخصوصًا.

٣ ـ أن الله فالق الإصباح.

٤ ـ أن الضياء خير، والظلمة شرٌّ؛ في الحسيات والمعنويات، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والله خالقهما ومدبرهما.

٥ ـ التناسب بين الوصف المستعار والشرور المستعاذ منها.

٦ ـ أن في المخلوقات خيرًا وشرًّا.

٧ ـ أن الله خالق الخير والشر.

(١) ينظر ما أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

٨ ـ الرد على من قال: إن الله لم يخلق الشر.

٩ ـ فيها تفسير «**أعوذ بك منك**»(١)، فالمَعاذ به سبحانه من شر ما خلقه.

١٠ ـ أن مجيء الظلام بحلول الليل أو غياب القمر مظنة الشر.

١١ ـ أن السحر موجودٌ، وأن منه ما يكون بالعَقد والنفث.

١٢ ـ أن في السحر شرًّا وضررًا، لكن لا يضر إلا بإذن الله، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

١٣ ـ أن في الحسد شرًّا للمحسود.

١٤ ـ أن شرَّ الحاسد أشدُّ ما يكون إذا أراد الشر بالمحسود.

١٥ ـ أن كلًّا من الثلاثة المذكورة: الغاسق، والنفاثات، والحاسد؛ يختص بنوع من الشر يقتضي الاستعاذة منه، فاقتضى ذلك تكرار هذا الاسم.



---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.



٣٧ ـ تفسير سورة الناس

هذه السورة مكية، وهي ست آيات، وقد افتتحت بـ (قل)، كما افتتحت بذلك سورة الكافرون وقل هو أحد وقل أعوذ برب الفلق، وتضمنت السورة الأمر بالتعوذ بالله تعالى بربوبيته للناس، وملكه للناس، وإلاهيته للناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾، من شر الوسواس، وهو الشيطان، وهو أصل كلِّ شرّ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ إلخ السورة، وليراجع ما ذكر في فضل هذه السورة وفضيلة التعوذ بها فيما ذكرناه في تقْدِمة سورة الفلق.

الآيات:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس].

التفسير:

يقول سبحانه مخاطبًا نبيَّه عليه الصلاة والسلام وكلَّ مَن يتأتى خطابه من أمته: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾؛ أي: أعتصم وألتجئ وأستجير في كلِّ وقت، وفي كل مكان، وفي كل حال، كما تفيده صيغة المضارع، ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾؛ أي: خالقهم ومربيهم ورازقهم، فهو تعالى الذي أوجدهم بعد العدم، وصرف عنهم النقم، وهيأ لهم بفضله النعم.

وخص (الناس) بالذِّكر مع أنه تعالى رب كل شيء؛ لشرفهم، ولأنهم المقصودون بالتعويذ.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ عطف بيان، وهو وصف يدل على الـمُلك؛ أي: مالكِهم ومدبر أمورهم، والقائم عليهم، والمتصرف فيهم بما شاء سبحانه مِن أمرٍ ونهيٍ، وإعزاز وإذلال، وإحياء وإماته.

﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ عطف بيان آخر؛ أي: معبودِهم الحق، فـ(الإلٰه) فِعال بمعنى مفعول، ككتاب؛ أي: مكتوب، ومن كانت هذه صفاته فهو أهل أن يستعاذ به لكمال قدرته.

وكرر (الناس) دون إضمار؛ لتأكيد تعلق هذه المعاني بهم، من الربوبية والملك والإلهية، ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ متعلق بـ ﴿أَعُوذُ﴾، و﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو الموسِوس، وهو الشيطان، و(الوسواس) في الأصل اسم مصدر بمعنى الوسوسة، وإطلاقه على الشيطان يفيد المبالغة للفعل؛ أي: كثير الوسوسة، كقولهم: فلانٌ عَدْلٌ، كأنه لكمال اتصافه بالعدالة صار نفس العدالة.

﴿ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: الكثير الخُنُوس وهو الرجوع والتأخر، وذلك إذا ذَكر العبد ربه خنَس الشيطان، فهو تارة يوسوس، وتارة يخنِس، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية: «الشيطان يكون على قلب الإنسان، فإذا ذكر الله خَنَس»[١].

ثم بيَّن مكانه من الإنسان، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾؛ أي: يلقي في قلوبهم حب الشهوات، ويزين لهم الفواحش والتكذيب بالحق، ويَعِدهم ويمنِّيهم، مستمرًا على ذلك، قال

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٧٥٤) وإسناده صحيح.

تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ثم بيَّن حقيقته فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾؛ أي: يكون الشيطان الموسوس مِن الجنِّ ويكون مِن الإنس، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات ربوبيته تعالى للناس، وملكه لهم، وإلهيته لهم.

٢ ـ مشروعية التعوذ بالله بهذه الصفات.

٣ ـ افتقار الناس إلى ربهم في جلب منافعهم ودفع مضارهم، ولا سيما شرُّ عدوهم الشيطان؛ لأنه لا قيام للمربوب إلا بالرب، ولا صلاح إلا به؛ فإن الرب هو المربي القائم على غيره.

٤ ـ الرد على الاتحادية؛ لأن الآيات فرقت بين الرب والمربوب، والاتحادية يزعمونهما واحدًا.

٥ ـ أن شر الوسواس أعظم الشرور، وهو أصل جميع الشرور، ولهذا جاء التعوذ منه بثلاث من صفات الله تعالى، كما في الآيات الثلاث الأولى.

٦ ـ أن هذه الصفات تقتضي رحمته تعالى بالناس، وأعظم ذلك وقايته إياهم من شر ذلك الوسواس، وبهذا تظهر المناسبة بين المستعاذ به والمستعاذ منه.

٧ ـ أن الوسواس هو الشيطان الذي يوسوس بالشر.

٨ ـ أن وسوسته في الصدور، فهي معانٍ يلقيها في القلب ليست كلامًا يسمع في الآذان.

٩ ـ أنه عدوٌّ باطنٌ لا يُدفع إلا باللجأ إلى الله بدعائه، والاستعاذة به، وأعظم ذلك ما علَّمه الله نبيه عليه الصلاة والسلام وعباده المؤمنين.

١٠ ـ أن الشيطان يوسوس ويخنس، فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس.

١١ ـ أن الشيطان خنَّاسٌ، أي كثير الخنوس، وهو الانقباض، وهو شيطان المؤمن.

١٢ ـ أن الوسواس يكون من الإنس كما يكون من الجن، وأصله وسواس الجن، وكلاهما شيطان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وإلى هنا ينتهي ما أردنا مِن القول في تفسير الجزء الثلاثين من الكتاب الكريم، وهو جزء عم يتساءلون، فللَّه الحمد على ما هدى ويسَّر، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، سبحانه لا نحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه، ونسأله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه سبحانه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس الموضوعات

